

Ba krū و 'Atā

دراسات

في الشعر العربي

Dirāsāt fī al-shi'r al-'Arabī

تأليف

عطاء بكرى

front

ساعدت وزارة التربية على نشره

119671

مطبعة الارشاد - بغداد

Near East

PJ

7551

.B3

C.1



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

تجارة الكائن شوقو

www.lisanarb.com

تصدير

سلمتني يد كريمة ، هي غير يد المؤلف الفاضل ، مسودات هذا الكتاب لافراه ، فأرى فيه رأبي ، فأكتب له مقدمة تتضمن هذا الرأي • فقلت لنفسي : ستكون هذه اغرب مقدمة لكتاب • ذلك لأنني سأقدم للقراء كاتباً لم اعرفه بشخصه ، بل اعرفه بكتابه ، وسيكون هذا ، في نظر بعض الناس ، تكليفاً تكون حصيلته مقدمة متكلفة • وتذكرت في الحال عبارة علفت بذهني لكاتب انكليزي هو جورج كراب George Crabb ترجمتها :

« لا نجد في المقدمات - في غالب الاحيان - سوى فقرات من الجراءة التي مبعثها الغطرسة و •• » وبقية العبارة اشد قسوة على كتاب المقدمات •

وفتحت الكتاب ومضيت في قراءته ، بل في دراسته ، واذا انا انتقل بين مجموعة من المقالات ، كتبت - على ما يبدو - في اوقات مختلفة ، قدم فيها المؤلف الفاضل دراسات تحليلية موفقة - في جملتها - في اشهر الاغراض الشعرية المعروفة في الشعر العربي • واتخذ لكل غرض شاعراً يمثل شعره ذلك الغرض ، بل لنعكس المسألة فنقول : لقد رسم المؤلف بقلمه وصور بعباراته الانيقة اعلاماً شامخة في الشعر العربي ، وخلع على كل منهم اللون الذي يقلب على شعره • ولم يقتفه تصوير الجو النفسي والطبيعي والتاريخي والثقافي الذي اثر في الشاعر وفي شعره ، كما لم يفته تصوير اثر الشاعر في محيطه او في المذهب الشعري الذي تناوله • ويمضي القارئ في هذه الدراسات وهو مقتنع بان كلا من هؤلاء الشعراء قد انتهت اليه الامامة في الغرض الشعري الذي خصه به المؤلف وساق الدليل على ذلك باضمانة منتقاة من شعر الشاعر حتم بها كل بحث من بحوثه ليكشف لنا الجوانب المختلفة للغرض الشعري الذي ميز

شعر الشاعر عن غيره •

ولقد اسعدتني مطالعة هذه المسودات (واعتذر عن أقسام لذتي الخاصة في هذا المجال) بأن اعادت الى ذهني (قضايا ادبية) مرت بي في اول العهد بالطلب ، فهنت صورتها ونصل لونها ، ولكنها عادت اليوم نابضة بحياة جديدة •••

وابرز هذه القضايا قضية (الانتحال) في الشعر الجاهلي • وقد اثارها الدكتور طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) فحدث ضجة عنيفة في مصر ، وقام الازهر وقعد ، وتعرض موقف وزيرى المعارف والعدل آنذاك للاستقالة من الوزارة • ونصح طه حسين بأن يسافر الى الخارج ، فيمّم فرنسا • وصودرت نسخ الكتاب واحرقّت • وانبرى للرد على ما جاء فيه الكثير من الكتاب في مصر وفي البلاد العربية • وألفت الكتب والرسائل ونشرت المقالات الحادة العنيفة في ذلك ، متهمة طه حسين ، بالمروق من الدين ، وبالخروج على الاسلام ، وبالخطأ في الاجتهاد ••• واذكر من هؤلاء صاحب كتاب (الشهاب الراسد) المحامي محمد لطفى جمعة ، والغمراوي ، كما اذكر مقالين ساخرين للمازني تجدهما في آخر كتابه (قبض الريح) •

على أن احرار الفكر في البلاد العربية اتصروا لظه حسين ، كما اتصروا لعلي عبدالرازق ، الذي اثار كتابه (الخلافة واصول الحكم) ما اثاره كتاب زميله طه • ونذكر من صدى هذه الحركة الادبية الحامية في العراق أن شوقي ، حين يبيع بامارة الشعر باحتفالات فخمة في مصر ، نظم معروف الرصافي قصيدة مطلعها :

امارس دهرا من جديديّ داهرا
وقد بيت ليلي في العراقين ساهرا

أشار فيها الى محنة الفكر التي امتحن فيها كل من طه حسين وعلي
عبدالرازق بقوله في شوقي وفي مبايعته بامارة الشعر :

ألا ان شوقي شاعر جد شاعر
يفوق الاوالي بل ييز الااخرا

ولكنني قد انظر الحفلة التي
تقام له في مصر ذا اليوم ساخرا

فقد اسمعتا ضجة أمطرت بها
(علياً) و (طه) حاصبا مطايرا

فما بال هذا عُد في مصر مارقاً
وما بال هذا عُد في مصر كافرا

اذا لم تكّ الافكار في مصر حرّة
فليس لمصر ان تكرمّ شاعرا

وحين اعاد طه حسين طبع الكتاب حذف منه فصلين وازاد اليه
نصولا تتعلق بالنثر الفني الجاهلي وسماء (في الادب الجاهلي) .

واريد ان اقول - بعد هذا الاستطراد - ان السيد عطا بكري كان
موفقا حين وقف من قضية (الانتحال في الشعر الجاهلي) موقفا وسطا
يشبه ما يسميه علماء الكلام المسلمون (المنزلة بين المنزلتين) . . .

ولكم أعجبت بالمدخل البارع الذي وليه المؤلف الى دنيا المعرّي
ضارباً في دروبها القائمة مجملا مذهب الرجل في الحياة ، وجاليا فلسفة
معتقده المستندة على العقل ، الذي لا يسلم من التخبط في دياجير الشك ،
وحاكما في (القضية) القائمة بين من يضعونه في صف الفلاسفة وبين من
يضعونه في صف الشعراء . فأثبت انه فيلسوف تعرض للفلسفة باصطناع

الشعر - وهو فن - وسيلة للتعبير عنها ؛ وهذه طريقة تختلف عن طريقة من يتعرض للفلسفة بالتفكير المنطقي المتسلسل المنسق كما انه دافع عن شاعرية الرجل بأنه استطاع ، بايجاز يقرب من الاعجاز ، ان يعبر عن ادق مكونات نفسه وعن أكثر الآراء اعتيادا وجموحا .

ولقد استوفيتني اختيار الكاتب لشخصياته التي نصب كلا منها هدفا لغرض شعري معين ، فضحكت - كما ضحك المعري - من تراحم الاضداد في هذه الشخصيات المتناقضة في صفاتها ، المتباينة في زمانها ، المتباعدة في مكانها ... اين عترة الفلحاء ، شاعر الفرسان وفارس الشعراء في الجاهلية ، من الخساء النواحة الثكلى في جاهليتها واسلامها !! وكيف اجتمع ابو العتاهية ، داعية الزهاد ، مع ابي نؤاس ، داعية الفساد !! واين نضع ابن ابي ربيعة امير المحبات وحيب الاميرات ، ذلك الذي سلب المرأة عقلها ، من مجنون ليل الذي سلبته المرأة عقله !! وكيف اجتمع المتنبى ، الذي قتل الطموح الجامع ، بالطغرائي الذي قتل الطموح المغلف بالحذر الشديد وبالاحتراس المتناهي !! وهذا ابن هانيء الاندلسي ، وقد صهر نفسه وشعره في بوتقة العقيدة المذهبية ، ما الذي يجمعه - في كتاب - بابن الفارض ، وقد طلق المذاهب وانصرف الى الله وحده !! بل أين يكون موقع المعري ، الذي يأتى بالعقل وحده ، بين هؤلاء جميعا !! ان الحياة - ايها القارئ الكريم - شاءت - في كثير من الاحيان - ان يكون المسجد بجانب الكنيسة وان تكون هذه بجانب الحانة ... والمائدة السخية تجمع صنوف الاطعمة على تباين مذاقها ، وتووع نكهتها ، وتخالف طعمها ... والروضة الغناء تحفل بألوان الزهر ، وأشكال الورد ، وضروب الاريح ... والمؤلف اقتطف من كل روض زهرة ، وارتشف من كل ينبوع قطرة ... وكذلك هذا الكتاب ..

توطئة

ان تراثنا القومي في عالم الادب زاخر بالامجاد ، حافل بالمفاخر ، له صفحة بيضاء خالدة في جبين الدهر خلود هذه الامة التي شرفها ما جاء في القرآن الكريم : « كنتم خير امة اخرجت للناس » .

وكان للشعر القدح المعلن في اظهار عبقرية هذه الامة المجيدة خلال مختلف الاجيال والعصور . ولقد خلد التاريخ أسماء للشعراء العرب سبقي مسطرة في سجل الخلود ما دام الفرقدان .

ولقد تناول الشعر العربي مختلف الاغراض الشعرية كالغزير والحماسة والمدح والرثاء والهجاء والنسيب وكذلك تطرق الى المسائل العقلية كالحكمة والفلسفة والامثال والزهد والتصوف وغير ذلك .

وان معظم الشعراء تطرقوا باشعارهم الى جميع تلك الاغراض أو معظمها . ولكن هناك بعض الشعراء الذين اقتصروا على أحد تلك الاغراض ، أو استهدفوا صفة خاصة غرضا معينا تميز به شعرهم .

فإذا ذكر عنزة فأول ما يتبادر الى ذهن السامع أشعاره الحماسية التي تغني بها في الشجاعة والبسالة ووصف بها مقارعة الفرسان في سوح الضرب والبطان .

وإذا ذكر عمر بن ابي ربيعة ذكر معه الغزل والنسيب .

وإذا ذكر أبو نؤاس ذكر معه المجون والخمريات .

وكذلك الحال مع ابي العتاهية الذي كان الزهد أهم غرض من أغراضه الشعرية ، والمتنبي الذي كان الفخر والكبرياء الصفة الملازمة لشعره ، والمعري الذي وجه شعره وجهة عقلية فلسفية .

هذا وما يجدر التنويه به ان الدراسات الادبية حسب المقاييس الحديثة لم تعد تكتفي بالمعاني اللغوية والصور البيانية والاسلوب ، بل تجاوزتها الى منهج عريض تضمن عاملين متفاعلين : البيئة والاديب . فالبيئة تشمل جميع المؤثرات الطبيعية والسياسية والاجتماعية والعلمية والفنية التي تحيط بالاديب فتؤثر في اتجاهه الفكري وفي أسلوبه في تبين ذلك الاتجاه . ومن بعد ذا يجب على الدارس ان يلم بسيرة الاديب وحياته وخلقته والعوامل المؤثرة في طريقته في الادب ومنهجه في التفكير وأسلوبه في النظم والنثر . ولقد اخترت في هذه الدراسات اثني عشر علماً من شعراء العربية الذين يشار اليهم بالبنان والذين يمثلون مختلف الاغراض الشعرية اصدق تمثيل وهم :

عترة العبسي - في الحماسة

الخنساء - في الرثاء

عمر بن ابي ربيعة - في الغزل

قيس بن الملوح - في العشق

أبو نؤاس - في الخمریات والمجون

أبو العتاهية - في الزهد

المعري - في الفلسفة

المتنبىء - في الفخر والكبرياء

ابن هانيء الاندلسي - في المدح

الطغرائي - في الحكم والامثال

ابن خفاجة - في الوصف

ابن الفارض - في التصوف

واني اذ اقدم هذا الكتاب الى القراء الكرام استهدف ان اعرض بحوثا ودراسات تحليلية عن كل شاعر من الشعراء آنفي الذكر ، وان اقدم نخبة مختارة من أشعار كل منهم في الغرض الذي تميز به شعره ، لكي تكون مجموعة سهّل على الدارسين تتبع دراساتهم .

والله من وراء القصد .

عطاء بكري

المقدمة

العرب

منشؤهم وموطنهم ولغتهم

العرب قوم منحدرين من سلالة سامية ، استوطنوا شبه الجزيرة العربية منذ اقدم الازمان . اذ ترجع التقاليد والقصص المتواترة نشأة الامة العربية الى عهد سام بن نوح . اذ ان يعرب بن قحطان ، كما تقول تلك الروايات ، الذي هو الحفيد من الظهر الرابع لسام قد أسس مملكته في بلاد اليمن ، كما ان أخاه جرهم بن قحطان كان قد اسس مملكته في الحجاز . ولما ان جلب ابراهيم الخليل زوجته هاجر وابنها اسماعيل ليعدهما عن زوجته المفضلة سارة ، تركهما في بطاح مكة حيث تقيم قبيلة جرهم . فعطف هؤلاء على اسماعيل وامه واستضافوهما فترى الطفل بين ظهرانيهم . وعندما كبر وبلغ مبلغ الرجال تزوج ابنة احد امراء قبيلة جرهم . فكانت ذريته من عدنان قد سيطرت على القسم الشمالي من بلاد العرب ، فأنحدرت القبائل العربية في تلك المنطقة منها . لهذا فقد سمي سكان اليمن وما جاورها القحطانيين أو العرب العاربة ، واطلق على اولئك الذين يزعم انهم انحدروا من صلب اسماعيل اسم العدنانيين أو العرب المستعربة .

ولقد قسمت القبائل العربية الى قحطانية وعدنانية . واليكم أسماء بعضها على سبيل المثال لا الحصر .

القبائل القحطانية مقسمة الى فخذين : كهلان وحمير . ثم تفرع من كهلان فروع كثيرة أهمها : طي وجزام وهمدان ومنحج والازد ومن هؤلاء الاوس والخزرج .

- واما حمير فاشهر قبائلها : قضاة و كلب و تنوخ و جهينة و عذرة •
- كما يقسم النسابون العدنانيين الى فريقين أيضا : ربيعة و مضر •
- و اشهر قبائل ربيعة : أسد و وائل و من هؤلاء قبيلتا بكر و تغلب •

و اما مضر فاشهر قبائلها : (١) قيس عيلان و تتسب اليها هوازن و سليم و غطفان و الى هذه الاخيرة تتسب عبس و ذبيان (٢) تميم (٣) هذيل (٤) كنانة و منها قریش •

الا ان هذه الانساب غير مبنية على أساس رصين من البحث العلمي الدقيق ، و انها مثار جدل و نقد شديدين •

و لم يكن العرب و حدهم ينسبون الجماعات البشرية الى الانحدار من صلب أب واحد ، بل شاركهم في ذلك العبرانيون و غيرهم من الاقوام السامية ، و في التوراة شواهد كثيرة على ذلك •

فعلى افتراض صحة قصة اسماعيل و تزوجه بأمة جرحمية ، فان بلاد العرب لم تكن خالية من السكان آنشد لكي يزعم بان السكان جميعا أصبحوا من نسله • و ان نسل شخص واحد مهما بلغ عدد اولاده و ذريته من الكثرة لا بد ان يذوبوا في الخضم الواسع من المجتمعات المحيطة بهم • فنسب العرب جميعا - عدا القحطانيين - الى اسماعيل امر يثير الشك و الانكار •

و لكن ما لا ريب فيه ان القبائل العربية كانت موجودة منذ أقدم العصور و كانت تقطن بلاد العرب • و لقد وجد مخطوط في نبطيه يشير الى انجازات ما دعى ب « ملك العرب » • و لقد وجد في التوراة ما يشير الى العرب باسم قيدار •

و ان هؤلاء العرب كانوا مشتركين بلغة واحدة أو بلهجات متقاربة • و لكن اللغة العربية لم تكن في أصلها كما كانت عليه لغة قریش عند ظهور

الرسالة المحمدية ، بل انها تطورت تطورا كبيرا بمرور الزمان . فاللغة الحميرية القديمة كانت تختلف اختلافا جوهريا عن لغة قريش ولو انها تتفق معها بالاصول . وانها قد انحدرت من أصل سامي اشتركت به معها جميع اللغات السامية الاخرى كالاكدية والكلدانية والآرامية والفينيقية والكنعانية والعبرية والحبشية .

ولم يقتصر حال التطور والتغير على اللغة العربية ، بل شاركها به لغات عديدة . فاللغة الفرنسية ما هي الا اللغة اللاتينية بعد ان تحورت وتطورت ، وكذلك الايطالية والاسبانية وغيرهما . واللغة الانكليزية هي لغة جرمانية الاصل ولكنها تطورت مبتعدة عن اصلها ومستمدة من مصادر أخرى كاللاتينية والفرنسية والاغريقية وغيرها . واللغة العبرية الحديثة تختلف اختلافا بينا عن اللغة العبرية القديمة . واللغة اليونانية المعاصرة بعيدة كل البعد عن لغة الاغريق الكلاسيكية . والامثلة على ذلك متعددة .

وان أهم العوامل التي قربت بين اللهجات العربية ووحدها قبل الاسلام هي المجامع الادبية التي كانت تعقد بصورة دورية كسوق عكاظ ومجنة وذو المجاز وغيرها حيث كان الاعراب يهرعون من كل حذب وصوب لتأدية فرائض الحج والتزود بالسلع وكان الشعراء يتبارون بنتاج قرائحهم من قصائد عصماء .

وأهم تلك الاسواق سوق عكاظ الذي كان يعقد في موقع متوسط بين الطائف ومكة في المدة المحصورة بين أول ذي القعدة والعشرين منه في كل عام . فكان يفد اليه سراة القوم وسادات العرب وامراء البيان لاداء فریضة الحج والمتاجرة والمباراة بالاشعار . وكان أكثر الناس يحضرون الاسواق المعقودة في نواحيهم ما عدا سوق عكاظ فانه كان السوق الذي تتوافد اليه سادات العرب وزعماء الشعر من جميع القبائل ومن مختلف الاقطار والاقاليم . خاصة لانه كان يقام في الاشهر الحرم حيث كانت

تؤدي مناسك الحج •

كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة العرب لانها كانت محطاً للقوافل ومحجاً للقبائل على اختلاف نحلها •

ولكن لماذا سادت لغة مضر غيرها من سائر اللغات ؟ السبب واضح وهو تغلب لغة القوم الذين يحملون الزعامة الفكرية والدينية والمالية • فمضر ، وقريش على وجه التخصيص ، كانت تحمل لواء الزعامة الفكرية ولها مكائنها السامية ومنزلتها الرفيعة بين القبائل العربية ، فمنها سدنة الكعبة وحفظة الآلهة التي كان العرب يدينون لها بالولاء ويمحضونها للعبادة ، ومنها التجار الذين كان العرب يقصدونهم من كل حدب وصوب للتسوق منهم والتزود مما لديهم من سلع كانت تنهل عليهم من الشمال ومن الجنوب •

فمكة كانت قبلة العرب يؤمنونها من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر ليقضوا فيها مناسكهم ويشترروا منها حاجياتهم • وكانت مركزاً فكرياً وثقافياً يلتقى فيها رجال الفكر والادب من كل حدب وصوب ، فيتبارون بالشعر والادب في سوق عكاظها • وكان هناك محكمون ذوو منزلة رفيعة في عالم الادب اتفق الجميع على الاعتماد عليهم والثقة بهم فكانوا يحكمون لمن وضع بيانه وفصح لسانه •

وبالإضافة الى ذلك فان مناخ مكة الطيب نسيباً بمقارنته بقساوة وصرامة مناخ الصحارى في بقية أنحاء الجزيرة العربية ، وقربها من الطائف ، تلك الحديقة الغناء في وسط تلك البوادي القاحلة الجرداء التي لا يرى فيها غير كئيبان الرمال التي لا أول لها ولا آخر قد جعلها مقصداً لاشراف العرب وساداتهم ورجال الفكر والبيان فيهم يؤمنونها للاستمتاع بطبيعتها البهية •

ومما جعل مكة مركز جذب لقبائل البادية ، بالإضافة الى اهميتها

الدينية ، حالتها الحضارية • اذ كانت هي والمدينة تعبران المدينتين الوحيدتين اللتين لهما مميزات الحضارة والحياة المدنية خارج بلاد اليمن • وللمدن في كل مكان وزمان الزعامة الفكرية على ابناء الاقاليم • لذا كانت مكة للعرب عاصمتهم الفكرية والدينية ، يجلبونها ويقدمونها ويحذون حذوها •

ثم ان قريشا بسبب بسطة عيشهم وتوسط موقع بلدتهم استحوذوا على زمام التجارة • فكانت قوافلهم الموقرة تجوب الآفاق متوجهة في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى بلاد الشام • وبذا كانوا يستفيدون من جراء أسفارهم علما وفهما وخبرة بأمور الحياة • فكان لهم المجال فسيحاً لان يختلطوا بالناس من مختلف اللغات والعقائد والاجناس ، وان يختبروا مختلف اللهجات العربية فينتقوا أحسنها وأعذبها لفظا وبلغها أسلوبا وأوسعها مادة لا غناء لغتهم بها ، لذا فقد آثرها الشعراء وحذا حذوها البلغاء والادباء •

ذكر صاحب العقد الفريد ان معاوية قال يوما لجلسائه : أي الناس افصح ؟ فاجابه رجل : انهم ، يا أمير المؤمنين ، قوم قد ارتفعوا عن رتبة العراق وتيسروا عن كشكشة بكر وتيامنوا عن فثفشة تغلب • ليس منهم غمغمة قضاة ولا طمطممانية حمير • قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش •

حياتهم الاجتماعية والفكرية

العرب ينقسمون من حيث طريقة معيشتهم الى قسمين : (١) الحضري (٢) البدو •

كان الاولون ، خاصة في اليمن والحجاز وأطراف العراق والشام ، يقطنون المدن ويمتهنون مهنا حضارية كالزراعة والتجارة وبعض الصناعات الحرفية • وكان هؤلاء قد استوطنوا الوديان الخصبة المنبثة هنا وهناك فأسسوا الممالك وشيدوا المدن والقلاع وحرثوا الاراضي وزرعوها حقولا

ومساتين • وكانوا يشتغلون بالتجارة فينقلون السلع التي تأتيهم من الهند
وأفريقيا كالتوابل والعطور والذهب وغيرها بالإضافة إلى منتجاتهم المحلية
بواسطة السفن والقوافل إلى ديار الشام ومنها إلى بقية أنحاء الإمبراطورية
الرومانية في أوروبا وشمالي أفريقيا • وكذلك ينقلون منتجات هذه البلاد إلى
الهند وأواسط أفريقيا وشرقها •

أما البدو فقد كانوا مستوطنين الصحراء متخذين من الخيام مساكن ،
ومن رعى الأنعام حرفة ، ومن الغزو صناعة ومهنة • فكان هؤلاء يجوبون
الصحراء بحثاً عن بشر يستقون من مائها أو عشب يرعون به ماشيتهم أو
واحة يستظلون بظلها الوارف القليل من لهب أشعة الشمس المحرقة •
ولما كانت الآبار والواحات قليلة فظالما اندلعت نيران حروب طاحنة بين
القبائل أهرقت من جرائها الدماء وازهقت الأرواح • وكانت كل حرب
تجلب معها بذور الثارات مما جعل تاريخ البلاد العربية سلسلة لا انقطاع
لها من الحروب الدامية والغزوات •

إن نواة الحياة الاجتماعية عند البدو هي الأسرة • وكل مجموعة
أسر تقطن حياً واحداً تكون عشيرة على رأسها شيخ أو أمير • وكل مجموعة
عشائر تشكل قبيلة يرأسها رئيس أو شيخ المشايخ •

ولو أن العادة الجارية أن تكون المشيخة منحصرة في أسرة معينة ،
إلا أن نظام الحكم ليس وراثياً بل يتبع إرادة جمهور أفراد القبيلة ، فإن
راقهم شيخهم أبقوه ، والا عزلوه واستبدلوا به غيره • ويشترط في الشيخ
أن يكون ذا شخصية قوية متصفاً بالحكمة والرشاد والحكمة • فهو الذي
يحكم ويوجه ويعاقب المذنبين ويحل المشاكل بين أفراد القبيلة وبينهم وبين
القبائل الأخرى • وهو الذي يختار بين السلم والحرب • وإن جميع العشائر
التي ترتبط برباط النسب تنضوي تحت لواء شيخ مشايخها وتأنم بأوامره
وتسير خلفه في حالات الطوارئ • وعند نشوب الحروب والغزوات •

وإن أفراد القبيلة متكافلون متضامنون ، وهم يد واحدة على من

سواهم ، ينصرون أخاهم ظلماً أو مظلوماً .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
فاذا اقترب أحد أفراد القبيلة جناية تحملت عباها قبيلته وإذا غنم غنيمة
فهي مشاعة بينهم .

وان حياة الصحراء القاسية وما يصحبها من كفاح عنيف في سبيل
العيش قد قوت مراس العرب وعززت شكيمتهم ، فكانوا يتدربون مند
الصغر على البسالة والفروسية والأقدام واقتحام معامع الحروب وتحمس
المشاق . كما ان تلك الحياة القاسية قد خلقت في نفوسهم بعض العادات
الكريمة والطباع الحميدة كالكرم والمروءة والشهامة والوفاء وحسن الضيافة
وايواء اللاجئين وحماية المستجير .

ومما يدل على حيوية هذه الأمة ما حققته من انتصارات باهرة
وقتوحات عظيمة جعلت دولتها بعد الاسلام تفوق الامبراطورية الرومانية في
اوج عزها جسامه ، اذ امتدت حدودها من فرنسا غربا حتى الهند والصين
شرقا بل لقد كان للعرب أثر ثقافي في بلاد لم تخضع لحكمهم المباشر كالملايو
واندونيسيا والفلبين ، فصهروا العديد من الاقوام وجعلوها تعرب عقيدة
ولغة بل واثولوجيا أيضا .

ولم تقتصر حيوية هذه الأمة على الحروب والفتوحات بل تعدتها الى
الكثير من مميزات الحياة الحضارية والفكرية . فقد استوعبت وهضمت كل
مناحي الحياة الحضارية من ادارية وسياسية وثقافية . فحملت مشعل الادب
والعلم والفلسفة عاليا امدا طويلا فشمع نوره على العالم العربي ، فهو بهذا
مدين لها الى حد كبير .

والعربي فوق هذا وذاك يمتلك حساً مرهفاً وحسرةً ثابتةً وخيالاً
واسعاً ، تلك الصفات التي تفاعلت ولغته الغنية بالمعاني الرائعة والمفردات
الجمّة والمترادفات الغزيرة والمنسجمة مع الاوزان الموسيقية مما ساعد على
وفرة الانتاج الادبي وخاصة في حقل الشعر .

الشعر العربي

خصائصه وأغراضه

ان الشعر من نتاج هذه الطبيعة الباهرة المحيطة بالانسان ، تلك الطبيعة الساحرة ببديع خلقتها ، بصفاء سمائها وخضرة تربتها ، برقراق مائها وتغريد حمامها ، كل تلك العوامل تفاعلت في نفس الانسان مع عواطفه وانفعالاته ، مع ملكة الشعور بالحق والجمال عنده ، فاندفع الى التغني ببدايع الوجود فظهر الشعر والغناء مظهرين للشعور المنبعث عن الوجدان .

الشعر من الفنون الجميلة ، والكلام لا يكون شعرا الا اذا كان صادرا عن الطبع ومتصلا بهذا البهاء من جمال الفن وروعة التخيل . قال القاضي الجرجاني : « الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والروية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه » .

الشعر يتفق مع النثر في كونه فنا كلاميا يصور العقل والعاطفة ويتفق عن الخيال ويعبر عما في الفكر والشعور . ولكن الشعر بعد ذلك يمتاز عن النثر بخصائص منها الصورة الوزنية والقافية ذات الروى ، ومنها اللغة الممتازة في دقتها ، في اختيار مفرداتها ، في حسن سبك عباراتها .

ثم يمتاز الشعر بان العاطفة عنصره الاساسي والجمال هدفه ومنطقه . لذا يعد الشعر اصفى أنواع الادب العاطفي وأكثرها اتساقا مع الفنون الجميلة . وهذه العاطفة تحتاج الى الخيال ليصورها ويعرضها الى نفوس القراء .

فالشعر ، والحالة هذه ، عنصران : اولهما العاطفة المسندة بفكرة وثانيهما وسيلة ابراز تلك العاطفة والفكرة وهي خصب الخيال واللغة

الموزونة المقفاة • فتعريف الشعر اذن هو الكلام الموزون المقفى الذي يصور العاطفة ويعبر عن الصور المؤثرة البليغة • وقد عرفه ابن رشيقي بقوله : « البنية من أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية • فهذا هو حد الشعر لان من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر لعدم الصنعة والبنية » • فلا يكفى النظم ان يكون شعرا بمجرد انه موزون مقفى ، بل يجب ان تكون الفاظه منتقاة من حيث الرقة والجمال ومعناه ساميا صادرا عن الخيال والشعور • ولقد قيل : « ان الشعر تعبير فني حسي للعقل الانساني • وهنا تعطى للشاعر صفة الرسام أو المصور اللذين من واجبهما تجسيم المجردات وابراز المثل العليا ، وليس له عون على ذلك الا فطرته الطبيعية التي ابرز بها هذه الصورة المعنوية في أشكال مادية نكاد نلمسها وسكب على تلك الأشكال المادية من روحه لغة موسيقية تزيدها بهجة ورواء » كما جاء في دائرة المعارف البريطانية •

أنواع الشعر

الشعر على أنواع عديدة أهمها ما يلي :

- | | |
|----------|-------------------------------|
| Lyric | (١) الشعر الوجداني أو الغنائي |
| Epic | (٢) الشعر القصصي |
| Dramatic | (٣) الشعر التمثيلي |

فالشعر الغنائي هو استمداد من القلب وتعبير عن الشعور • ولما كان هذا النوع من الشعر تعبيرا مباشرا عن العواطف الشخصية يجد فيه الشاعر متفنا عما يكنه قلبه من آلام وأشجان ، من حب وغرام ، من كره وبغضاء ، من فخر وكبرياء ، من آراء سامية عميقة شغلت باله • لهذا فهذا النوع من الشعر يعد اصفى صورة للشعر وابدعه خيالا وأقواء تأثيرا في النفوس • والشعر القصصي هو فن روائي موضوعي يتناول الشاعر فيه الأحداث

التاريخية والوقائع الحربية والامجاد القومية فينظمها ملاحم شعرية
كالاياذة لهوميروس والشاهنامه للفردوسي ومهابهارتا للمهنود .

أما الشعر التمثيلي فهو نظم وقائع وحوادث يتصور فيه الشاعر
الاشخاص الذين جرت على أيديهم تلك الوقائع والاحداث فينطقهم بما
يناسب كلا منهم من أقوال وينسب اليهم ما يلائمهم من أفعال . ولعل هذا
النوع من الشعر اسمى واشق الانواع جميعا لانه يجمع بين الفن القصصي
والفن الغنائي ويؤلف بينهما .

ان مزاوله الشعر القصصي والتمثيلي تقتضي الروية وعمق التفكير ،
والعرب أهل بديهة وارتجال تقصهم ملكة التحليل والتعليل لذا لم ينم
عندهم الشعر القصصي والشعر التمثيلي بالاضافة الى عامل آخر هو ضيق
افق الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية في الجزيرة العربية . لهذا فقد
اقتصر الشعر العربي على الشعر الغنائي الوجداني الذي يصف المشاعر
والاحساسات النفسية الذاتية . فزخرت بحور الشعر العربي بالفخر
والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف والتغني بالامجاد
والبطولات .

الشعر في بلاد العرب

كان الشعر أقدم الأثار الادبية عهدا وان ما وصلنا منه لا يزيد في
القدم عن المائة والخمسين عاما قبل البعثة النبوية . ولم يصلنا منه الا
الاشعار المختارة التي بقيت محفوظة في صدور الرواة أو مدونة لاهميتها
البالغة . وقد اجمع الباحثون على ان الشعر العربي موغل في القدم وقد
ضاع منه الكثير لان الاعتماد في حفظه كان على الرواية وهذه تتعرض الى
النسيان والفقدان . قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالته
العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » .

شاعرية العرب

العرب كثيرهم من الاقوام تأثروا بالطبيعة ، اذ لهم حس ولهم عاطفة ، وبين جنباتهم نفوس تحن الى الجمال . فكانت انعكاسات تلك الاناشيد الطبيعية المتمثلة في صدادح الطيور ونوح الحمام وصفير الرياح وصفاء السماء على أوتار قلوبهم تظهر بمقطعات شعرية موزونة تجيش عما في صدورهم من فرح أو ألم ، من حب أو بغض ، من طمع أو زهد ، من ايمان أو كفر .

والعرب كما قال فيهم أحمد حسن الزيات : « اشعر الساميين فطرة ، وبلغفهم على الشعر قدرة ، لاتساع لغتهم للقول ، وملاءمة بيتهم للخيال ، وصفاء قريحتهم ، وسذاجة معيشتهم ، وقوة عصبيتهم ، وكمال حريتهم ، وخلو جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل ، ويعوق الذهن عن التفكير . فهم بين الصحراء والسماء في فضاء من اللانهاية ، يملأ الذهن والنفس روعة وخيالا وجلالا . وهم فوق ذلك ذوو نفوس شاعرة ، وطباع ناثرة ، يستغزهم الرغب والرهب ، ويزدهيهم الطرب والغضب ، فلم يتركوا شيئا يجول في النفس أو يقع تحت الحس الا نظموه . فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم ، وسجل وقائعهم وسيرهم ، وشاهد صوابهم وخطأهم ، ومادة حوارهم وسمرهم . . . فلا بدع اذا كان الشاعر يغويهم ويرشدهم ، والبيت الواحد من الشعر يقيمهم ويقعدهم ؛ والامثلة في التاريخ مستفيضة على تأثير الشعر في نفوسهم ، ومنزلة الشاعر في قلوبهم » .

تطور الشعر العربي

قلنا ان الشعر العربي انحصر في دائرة الشعر الغنائي الذي يصور العواطف الشخصية ويعتمد على الخيال التفسيري ويعبر عما يحتلج في نفس الشاعر من انفعالات . وان الاغراض التي تطرق اليها الشعر العربي متعددة

حسب تلك العواطف والانفعالات النفسية التي تفاعلت في نفس الشاعر مع المؤثرات الخارجية . وهذه الاغراض هي : الحماسة ، والمدح ، والرثاء ، والنسيب ، والغزل ، والهجاء ، والفخر ، والمجون ، والزهد ، والوصف ، والحكمة وغير ذلك .

ولقد تطور أسلوب الشعر العربي نتيجة تطور المجتمعات العربية في مختلف العهود والعصور . والادب كما نعهده مرآة صافية تعكس المستوى الفكري والعاطفي والذوقي للمجتمع الذي قيل فيه . فالشعر الجاهلي له مميزاته الخاصة في أسلوبه ولفظه وتركيبه وتشبيهاته تختلف عن تلك التي في الشعر العباسي أو الاندلسي . فلكل مجتمع من هذه المجتمعات بيئته الخاصة التي تختلف عن تلك التي للمجتمعات الاخرى والتي لها مؤثراتها الخاصة التي تؤثر في الانتاج الادبي منهجا وأسلوبا ومادة .

واليكم أمثلة في الوصف . قال امرؤ القيس واصفا الليل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بانواع الهموم ليلتي
فقلت له لما تمطى بصلبه واردف اعجازا وناء بكللك
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الاصبح منك بأمنل
فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت بيدل

وقال حندج المري من العصر الاموي واصفا ليل (صول) :

في ليل (صول) تنامى العرض والطول
كأنما ليله بالليل موصول
لا فارق الصبح كفى ان ظفرت به
وان بدت غرة منه وتحجيل
لساهر طال في صول تلممه
كأنه حية بالسوط مقتول

متى ارى الصبح قد لاحت مخايله
والليل قد مزقت عنه السراويل

ليل تجير ما ينحط في جهة
كأنه فوق متن الارض مشكول

نجومه ركذ ليست بزائله
كانما هن في الجو القناديل

ما اقدر الله ان يدني على شحط
من داره (الحزن) ممن داره (صول)

الله يطوي بساط الارض بينهما
حتى يرى الربع منه وهو مأهول

وقال ابن الرومي العباسي وهو يصف غروب الشمس :

وقد رنقت شمس الاصيل ونفضت
على الافق الغربي ورساً مززعزعا

وودعت الدنيا لتقضى نحبها
وشول باقي عمرها فتشعشعا

ولاحظت النوار وهي مريضة
وقد وضعت خدا الى الارض أضرعاً

كما لاحظت عواده عين مدنف
توجع من اوصابه ما توجعاً

وظلّت عيون النور تخضل بالندى
كما اغرورقت عين الشجيّ لتدعماً

يرا عينها صورا اليها روايا
ويلحظن الحاظا من الشجو خُشعا

ويئن اغضاء الفراق عليهما
كأنهما خلا صفا تودعا

وقد ضربت في خضرة الروض صفرة
من الشمس فاخضر اخضرارا مشعما

واذكى نسيم الروض ريعان ظله
وغنى معنى الطير فيه وجعا

وقال ابن خفاجة الاندلسي في وصف ليل حالك الظلام يثير في
النفس الرهبة والخيالات المرعبة :

ومفازة لا نجم في ظلماتها
يسرى ولا فلك بها دوار

تلهب الشعري بها وكأنها
في كف زنجى الدجى دينار

قد لفتني فيها الظلام وطاف بي
ذئب يلثم مع الدجى زوار

طراق سادات الديار مساور
خال انباء السرى غدار

يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا
في فروة قد مسها اقشعرار

فعثوت في ظلماء لم تقدح بها
الا لمقتته وبأسى نار

ورفقت في خلع على من الدجى
عقدت لها من انجم ازوار
والليل يقصر خطوه ولربما
طالت ليالي الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق
فيها ومن خط الهلال عذار

الشعر الجاهلي

ان خشونة العيش وطبيعة المناخ والبيئة وصرامة الحياة في مجاهل الصحارى القفراء والبادي المحملة الجرداء وسذاجة البداوة طبعت الشعر الجاهلي بخصائص يتميز بها ، منها الصدق في تصوير العواطف وقلة الزخرفة في الكلام وعدم التكلف في الاداء وعدم المبالغة في المدح والوصف والثناء . كما انه يمتاز بمتانة التركيب ووفرة الغريب من الالفاظ .

ونظرة عامة في الشعر الجاهلي تدلنا على ان معانيه غير غزيرة وموضوعاته غير متنوعة وسياق الكلام فيه مفكك مضطرب . تحشد غالبا فيه جميع الاغراض في القصيدة الواحدة ، اذ كان يتقصه الابداع ويعوزه الابتكار . فكانت معظم القصائد تبدأ بالنسيب والوقوف عند الديار المهجورة والطلول الموحشة والبكاء على الاحبة . ثم يأتي بعد ذلك وصف الناقة أو الفرس ، ثم يتبع كل ذلك الموضوع الذي انشئت القصيدة من أجله ، فاما مدح لامير ، أو تغن بامجاد القبيلة ، أو هجاء لعدو ، أو رثاء لراحل فقيد ، أو افتخار بموقعة انتصر فيها الشاعر ثم وصف لشجاعته واقدامه واستبساله بالقتال الخ .

الا ان هناك ، والحق يقال ، بعض الشعراء الجاهليين الذين حادوا عن هذه القاعدة فظهر في شعرهم الابتكار وظهرت لهم مناح خاصة وشخصية واضحة كزهير بن ابي سلمى وامية بن ابي الصلت والخنساء .

هذا وان الشعر الجاهلي على نقصه في الخيال وفي التويع والابتكار يعطينا مثلا حسنا عن مهارة في التعبير وحسن في البيان .

وان حياة العرب الاجتماعية في العهد الجاهلي المبينة على اسس من النعرات القبلية ، وما رافقها من تمسك كل قبيلة بالعصية ، وما كان يجري

بين القبائل من حروب وغزوات مستمرة ، كل ذلك جعل من الشعراء أصحاب المقام السامي في قبائلهم . فهم الذين يحمون ذمار قبائلهم ويشيدون بمفاخرها وامجادها ، وهم الذين يثيرون نيران الحروب أو يطفئونها . فكانت القبائل لهذا تتباهى بشعرائها وتفاخر بهم وتمحضهم المكانة اللائقة بهم .

هذا وان الكثير مما روى من الشعر الجاهلي يشك بصحته ، لان الشعر لم يدون الا في أوائل القرن الثاني للهجرة مما جعل مجالا واسعا للتبديل والتحرير والاختلاق . وما روى عن عبث حماد الراوية وخلف الاحمر بالشعر مساغ لهذا الظن . لذا فان اختيار الصحيح منها يحتاج الى الكثير من العناية والتمحيص . ولعل القصائد التي جمعها أبو زيد القرشي في جمهرة اشعار العرب اصحها رواية واصدقها تشيلا للاسلوب والمنهاج الجاهليين . وان ابعد هذه القصائد مدى في الرواية واوفرها حفظا من الحفظ والعناية المعلقة أو المذهبات السبع التي كانت معلقة على الكعبة وهي لامرى . القيس وزهير بن ابي سلمى وطرفة بن العبد ولييد بن ربيعة وعنترة بن شداد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة .

اما انكار الشعر الجاهلي برمته كما فعل الدكتور طه حسين فغير وارد . والبراهين التي اوردها لاثبات ذلك غير قوية . اذ انه استند على اختلاف اللهجات لدى القبائل العربية في العصر الجاهلي واتخذها حجة لانكار ذلك الشعر كله اذ كيف تنظم تلك القصائد بلغة فريش من شعراء ينتمون الى مختلف القبائل مع تباين لهجاتها ؟ فلا بد اذن يكون ذلك الشعر اسلاميا ومنحولا الى الجاهليين ، كما ادعى .

نعم كان هناك بعض الاختلاف في اللهجات ولكن ذلك لم يكن من السعة والشمول بحيث يبرر ذلك الانكار خاصة وان شقة ذلك الاختلاف أخذت تنقلص وتضعف شيئا فشيئا قبيل الاسلام كما شرحناه في بحثنا عن

العرب ولغتهم •

وان بعض المفردات المختلفة الدالة على معنى واحد والمستعملة لدى القبائل المختلفة والتي كانت مصدر الاختلاف في اللهجات قد جمعت وجعلت مترادفات في اللغة العربية الموحدة مما زاد في غنى هذه اللغة ويمكن الشعراء من ان ينظموا القصائد الطويلة مع التزام الروى والقافية ، ويمكن الكتاب من اختيار الكلمات القوية للمواقف القوية والكلمات اللينة للمواقف اللينة .

لاشك هنالك العديد من القصائد المنحولة والمقتعلة المنسوبة الى العهد الجاهلي وما هي منه ، مما يقضى التروى بجمع صحيحها ونبت تلك التي لم تستند روايتها على سند رصين . ولكن المبالغة بانكار كل ما هو جاهلي من شعر أو نثر أمر يستوجب التأمل والتروى . خاصة وان للشعر الجاهلي أسلوبه الخاص الذي يتميز به عن غيره . فمن المستبعد جدا ان يكون كله مصطنعا في العصور الاسلامية ومنسوبا الى شعراء الجاهلية . وان ما هو منحول حقا يختلف عادة باسلوبه وتركيبه عن الشعر الجاهلي الحقيقي .

هذا بالاضافة الى وجود تواتر كبير لدى ثقة الرواة عن قسم كبير من الأشعار التي تسب الى العهد الجاهلي .

وعلى ذكر الطلول والديار والتشبيب بالاحباب نورد الامثلة التالية •
بدأ بما جاء بمستهل قصيدة امرئ القيس المعلقة :

فما نبك من ذكرى حبيب ومنزل

يسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوصح فالقراة لم يعف رسمها

لما نسجتها من جنوب وشمأل

وقوفا بها صجبي على مطيهم
يقولون لا تهلك اسي وتجمل

وقال طرفة بن العبد في مطلع معلقته :

لخولة اطلال ببرقة نهد
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقال عنترة العبسي في مطلع معلقته أيضا :

هل غادر الشعراء من متردم
ام هل عرفت الدار بعد بوهم

يا دار عبلة بالجواء تكلمي

وعسى صاحبا دار عبلة واسلمي

ولقد قال الجاهليون الشعر في مختلف أغراضه • قالوا في الحماسة
وفي الفخر وفي المدح وفي الرثاء وفي الهجاء وفي الحكم وفي الزهد ، وقالوا
في الغزل والنسيب •

واليكم قول عنترة في الحماسة :

والخيل تعلم والفوارس اتني

فرقت جمعهم بضربة فيعسل

والخيل ساهمة ابوجوه كانما

تسقى فوارسها نقيع الحنظل

ولقد ابت على الطوى واظله

حتى انال به كريم المأكول

وقال امية بن ابي الصلت في الزهد :

طل عيش وان نعاون دهرنا
متهى امره الى ان يزولا

هتني كنت قبل ما قد بدا لي
في رؤوس الجبال ارعى الوعولا

جعل الموت نصب عينك واحذر
غولة الدهر ، ان للدهر غولا

وقال حاتم الطائي في مدح الكرم :

اما وى ان المال غاد ورائح
ويبقى من امال الاحاديث والذكر

اما وى اما مانع فمبين
واما عطاء لا ينهنه الزجر

اما وى ان يصبح صداي بعمرة
من الارض لا ماء لدي ولا خمر

تري ان ما انفتحت لم يك صريري
وان يدي مما بخلت به صرر

اما وى ان المال اما بذنته
فأولاه شكر وآخره ذكر

الشعر الاموي

قامت خلافة الامويين والامة العربية منقسمة على نفسها • فساسوا
الناس بالعصية ، والهوهم بالتفريق • فاشتدت الخصومات السياسية التي
أدت الى عاصفة من الهجاء بين جرير والفرزدق وغيرهما ، كما سلطوا
حياة اللهو والترف على شعراء الحجاز لكي تلهيهم عن الانغماس في
السياسة • فاعتكف هؤلاء على اللهو والغناء ، واتجهوا نحو الغزل ووصف
الغواني والتشبيب بربات الجمال • وقد قصر مثل هؤلاء الشعراء شاعريتهم
على الغزل وحده من بين فنون الشعر كعمر بن ابي ربيعة وقيس بن الملوح
وجميل بثينة وكثير عزة وقيس بن ذريح وغيرهم • فاقصرت اشعارهم على
الغزل ، والغزل وحده • وهم في هذا يختلفون عن شعراء الجاهلية الذين
لم يتطرقوا الى الغزل الا في مطالع قصائدهم •

قال جميل بن معمر في معشوقته بثينة :

وما زلتُمُ يا بثن حتى لو اتني
من الشوق استبكي الحمام بكى ليا
اذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها
دعاء حبيب كنت انت دعائها
وما زادني النأى المفرق بعدكم
سُلوًا ولا طول التلاقي تقالبا
ولا زادني الواشون الا صباة
ولا كثرة الناهين الا تماديًا

تمد خفت أن القى المنية بفتة
وفي النفس حاجات اليك كما هي

وقال قيس بن ذريح :

فإن يحجبوها أو يحل دوزن وصلها مقالة واش أو وعيد امير
فلم يمنعوا عيني من دائم البكا ولم يذهبوها ما قد اجن ضميري
أما سوق المدح فقد كانت رائجة ، غناها الخلفاء بعطاياهم الجسيمة
وعبانهم الكبيرة . وقد بلغ غرام الخلفاء بالمدح ان أرادوا جعله وقفا عليهم .
فلم يرضوا عن شاعر مدح غيرهم حتى من كان من أعوانهم أو من اقرب
المقربين اليهم .

قيل ان جريرا مدح الحجاج وملاً الارض بالثناء عليه . فأراد الحجاج
ان يحسن الى جرير فأرسله مع ابنه محمد الى عبدالملك . ولما وصلا
دمشق وصارا في مجلس الخليفة قدمه محمد بن الحجاج الى عبدالملك
قائلاً : هذا يا أمير المؤمنين ابن الخطفي . فقال الخليفة : هو مادح الحجاج ؟
فأجاب جرير : بل ومادحك يا أمير المؤمنين فأنذن لي بالانشاد . قال
الخليفة : هات ما قلت في الحجاج ، فقال جرير :

صبرت النفس يا ابن أبي عقيل
محافظة فكيف ترى الثوابا

• لو لم يرض ربك لم ينزل
مع النصر الملائكة الغضابا

إذا سمر الخليفة نار حرب
رأى الحجاج اتقها شهابا

قال عبدالملك : صدقت ، ثم هات ... فأنشده :

طربت لعهد هيجته المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل
الى ان قال :

ولولا أمير المؤمنين ، وانه
امال وعدل للبرية فاصل

وسط يد الحجاج بالسيف لم يكن
سيل جهاد واستيح الحلائل

اذا خاف درءاً من عدو رمى به
شديد القوى والنزع في القوس نابل

خليفة عدل ثبت الله ملكه
على راسيات لم تزلها الزلازل

فما فرغ جرير من تلاوة قصيدته حتى أخذ الشرر يتطاير من عيني
عبد الملك . فقال لجرير : اجلس . فجلس . وبادر الشعراء بالقاء قصائدهم
في مدح الخليفة ، واستمر ذلك ثمانية أيام ، وفي اليوم التاسع وزعت الجوائز
عليهم جميعا الا جرير ، فتوسل محمد بن الحجاج الى الخليفة ان يسمع
من جرير فاذن . وعندئذ اندفع جرير باشاد قصيدته التي مطلعها :

اصحو بل فؤادك غير صاح عشية هم صجك بالرواح

الى ان قال :

اغثني ، يا فداك ابي وأمي
سبب منك ، انك ذو ارتياح

فانني قد رأيت علي حقا
زيارتي الخليفة وامتداحي

سأشكر ان رددت علي ريشي
 واثبت القوادم في جناحي
 الستم خير من ركب المطايا
 واندى العالمين بطون راح
 وقوم قد سموت لهم فدانوا
 بدهم في مملدة رداح
 ابحت حمى تهامة بعد نجد
 وما شيء حميت بمسباح
 لكم شم الجبال من الرواسي
 واعظم سيل معتلج البطاح
 فطرب الخليفة ، ثم امر له بمائة ناقة وثمانية من العيد .

واما الهجاء فقد اتجه ، في العهد الاموي ، وجهة تختلف عنها في
 الشعر الجاهلي . اذ ان الشاعر في الجاهلية كان اذا هجا لم يفحش في
 القول أو يذكر العورات ، وكانت معانيه بسيطة لا تعدى التعبير بانعدام
 الفضل أو خمول الذكر أو النكوص عن مواقف الشجاعة . ولما جاء العصر
 الاموي استغل الحكام العصبيات القبلية والسياسية فالبوا الشعراء الهجائيين
 على بعضهم ، فاعلنوها حربا ضروسا لا هوادة فيها فيما بينهم ، لم تعرف
 الجاهلية لها مثيلا .

قال الطرماح يهجو بني تميم :

تميم بطرق اللؤم اهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت
 ولو ان برغونا على ظهر قملة يكر² على صفى تميم لولت

وقال الاخطل :

وكنت اذا لقيت عبيد تيمم وتيمما ، قلت : ايهما العبيد ؟
لئيم العالمين يسود تيمما وسيدهم ، وان كرهوا ، مسود
أصبح الشعر ، في العهد الاموي ، من عدد الحرب للاحزاب يظهر
به المساوىء والمخازي ، ويؤلبون ويهددون . وكان معظم شعراء العصر
الى جانب بني امية ، منهم الاخطل وجريير والاعشى والنابغة الشيباني
وغيرهم . الا ان الكميث بن زيد وابا الاسود الدؤلي والنعمان بن بشير
كانوا من أنصار العلويين .

فقال عمران بن حطان في مدح بن ملجم الذي قتل أمير المؤمنين
علياً بن ابي طالب ، وكان هذا الشاعر مغالياً بالباطل ضد علي :

لله در المرادي الذي سفكت
كفاه مهجة شر الخلق اسانا
امسى عشية غشاه بضربته
مما جناه من الأثام عريانا
يا ضربة من كريم ما اراد بها
الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
انني لافكر فيه ثم احسبه
أوفى البرية عند الله ميزانا

وقال الكميث بن زيد يعيب على بني امية جورهم ويدعو الله ان تدول
دولتهم ، وتزول أركان حكمهم ، ويعود السلطان الى بني هاشم :

فقل لبني امية حيث حلوا وان خفت المهند والقطيعا

اجع الله من اشبعوه واشبع من بجورككم أجيعا
بمرضي السياسة هاشمي يكون حيا لامته ربيعا

وقال الاخطل يهجو الانصار :

واذا نسبت ابن الفريعة خلته
كالجحش بين حمارة وحمار

لعن الاله من اليهود عصابة
بالجزع بين صليصل وصرار

قوم اذا هدر العصير رأيتهم
حمرا عيونهم من المسطار

خلوا المكارم لستم من اهلها
وخذوا مساحيكم بني النجار

ذهبت قريش بالمفاخر كلها
واللؤم تحت عمائم الانصار

ولم يقتصر الهجاء على الاغراض السياسية ، بل تعداها الى العلاقات
الشخصية والقبلية بين الشعراء ، فأخذوا يتهاجون تهاجيا مرا لاذعا باقذع
الالفاظ وأفحش العبارات ، وصاروا يتكلمون من بعضهم ويظهرون بعضهم
البعض بمظهر يدعو الى الهزء والسخرية .

قال الفرزدق :

لقد عشت لثام بني فقيم على انامل الصفن الحسود
وما نهضت فقيم للمعالي بزند في الفخار ولا عديد
وقال في كليب :

فيا عجبا حتى كليب تسبني كأن اباه نهشل ومجاشع

وقال جرير في هجو نمير :

نفض الطرف ، انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقال في الفرزدق ، وفي البيت ما فيه من سخرية لاذعة :

زعم الفرزدق ان سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

هذا وان الشعر ، في هذا العصر ، لم يخرج عن دائرة الشعر الجاهلي في طريقته ونسجه الا ان جمال الحضارة قد أضفى عليه حلاوة في اللفظ وطلاوة في الاسلوب وجزالة في التركيب وسلاسة في التعبير .

قالت ليلى الاخيلية ترثي توبة :

لعمرك ما بالموت عار على الفتى

اذا لم تصبه في الحياة المعابر

وما احد حي وان عاش سالما

باخلد ممن غيبته المقابر

فلا الحي مما احدث الدهر معتب

ولا الميت ان لم يصبر الحي ناشر

وكل جديد أو شباب الى بلى

وكل امرئ يوما الى الموت صائر

فلا يبعدنك الله يا توب هالكا

اذا الحرب ان دارت عليك الدوائر

قالت لا انفك ابكيك ما دعت

على فنن ورقاء أو طار طائر

وقال الفرزدق يصف ذئبا صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده :

واطلس عمال وما كان صاحباً
دعوت لناري موهنا فاتاني
فلما اتى قلت ادن دونك اتني
وايالك في زادي لمشتركان
فبت أقد الزاد بيني وبينه
على ضوء نار مرة ودخان
وقلت له لما تكثر ضاحكا
وقا سيبي من يدي بمكان
تعر فان عاهدتني لا تحونتي
نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وانت امرؤ يا ذئب والغدر كتما
اخين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلمس القرى
رماك بسهم او شبة سنان

الشعر العباسي

تميز الشعر العباسي بخصائص خاصة كانت نتيجة للتطور الذي طرأ على الحياة الفكرية والاجتماعية في هذا العصر الذي هو العصر الذهبي في التاريخ الاسلامي ، بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان حدا قصبا ونضج فيه المستوى العقلي وزهت الآداب وازدهرت العلوم والفنون . وكان الخلفاء والوزراء والامراء من أكبر المشجعين لتلك الحركة الفكرية العنيفة وخاصة في عهد الرشيد والمأمون .

ولقد بلغت رقعة الدولة العباسية حدا عظيما من الاتساع ، وأصبحت بغداد عاصمة لامبراطورية مترامية الاطراف ثابتة الاركان ، وكان يجبي اليها الخراج من أقصى الامصار وادناها ، فكانت تدفق الثروات عليها وتتهال كالمنى . وبالإضافة الى ذلك فقد كانت بغداد مركزا تجاريا عظيما ، لذا فقد اتسمت حياتها في ذلك العهد بالترف والرخاء ، فعمت الخيرات ، وعاش الخاصة من الناس في بجموحة من العيش الرغيد .

ولا بدع ان تتفق قرائح الشعراء في بيئة مترفة مترفة مثل هذه ، اذ كانت الهبات والعطايا تنهال عليهم دون حساب ، وهم يمدحون الخلفاء والملوك والوزراء وينادونهم فيدخلون الى قلوبهم المتعة والطرب في حفلات السمر .

ولقد ظهر من نتيجة حياة الترف والرفاهية في العصر العباسي مما لم يكن شبيه في العصور التي سبقته خصائص جديدة في الحياة الاجتماعية : منها (١) كثرة الجوارى والغلمان ورواج سوق الرقيق ، حتى لقد كانت تصرف الاموال الطائلة لتعليم اولئك الجوارى والغلمان وتثقيف عقولهم وتدريبهم على الموسيقى والغناء ومختلف الفنون ، (٢) مجالس الطرب

والشراب التي عمت وانتشرت ، وكان يؤمها الشعراء والادباء والشباب ، فيقضون ليالي صاخبة عابثة بين الكاس والطاس وعلى أنغام الموسيقى وتغريد المغنيات . (٣) كثرة الحدائق والبساتين والمنزهات ، حيث الزهور اليانعة ، والخضرة المرعة ، والغصون المتشابكة فوق السواقي والنهيرات التي يجري فيها الماء رقراقا نмира صافيا . وهناك تجتمع الخمرة والخضرة والماء والوجوه الحسان . (٤) القصور المنيفة والقلاع الحصينة والبنيات الجميلة الخاصة بسكنى رؤساء القوم وحریمهم وجواریهم حيث الاحواض والتافورات وما يحيط بها من حدائق وجينات ، كانت مصدر الهام لكثير من الشعراء الذين نظموا القصائد في وصفها والاشادة بمحاسنها وجمالها ، (٥) التألق في الفنون الحضريّة من ملابس ورياش ومفروشات ، والتفنن بالطعام ومختلف الحلويات ، وصنع الآلات الموسيقية ، وما الى ذلك من أسباب الحضارة مما كان يعكسه الشعر في ذلك العصر ، (٦) انتشار المدارس والعلوم ونشاط حركة التأليف والترجمة من اللغات اليونانية والفارسية والهندية ، خاصة في الطب والفلسفة وعلم الفلك والرياضيات والجغرافيا وغيرها ، (٧) الامتراج الذي حدث بين القوميات المختلفة التي اهدت بهدى الاسلام واستطلت بظل الخلافة الاسلامية ، فقد انصهرت معظم تلك القوميات في بودة الاسلام ، وكان من نتاج تلك التفاعلات الاساسية لعقريات مختلف الامم والاقوام التي تألفت منها الدولة الاسلامية ان ظهرت حضارة جديدة ، وأسلوب أدبي جديد في الشعر والنثر .

وإذا اتسم الادب القديم بمسائه التعبير ، وصحة الاداء ، وقوة التركيب ، وقلة الزخرفة ، فإن الادب العباسي له مزية المعنى ، وسعة الخيال ، واتساق الفكر . قال أبو الفتح عثمان بن جنى : « المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الالفاظ » .

ولما كان الشاعر يعكس في شعره ما يرى وما يحس فلا ريب ان

الشاعر الحضري قد تكدست في فكره مرثيات ومشاهدات وأحاسيس لم يعرفها البدوي .

وبالإضافة الى ذلك فانه كان للمدنية أثر كبير في رقة حاشية الكلام ،
وجزالة اللفظ واناقته ، وعدوية التعبير ورقته ، وحلاوة التركيب
وسلاسته . فعنى الشعراء بالاكثار من التشبيه والاستعارة ، والتفنن في
المعاني ، والتوفر على البديع اللفظي ، والتوسع في المصطلحات اللفظية .

وكان من اثر الحضارة الجديدة ان تغيرت أغراض الشعر ، ولكن
لم تمتح الاغراض القديمة عن آخرها ، بل استحدثت أغراض جديدة .
اما الاغراض القديمة فقد حدث فيها ما جعلها ذات طابع غير طابعها في
العصر الذي قبله . فدخل على الكثير من الاغراض القديمة كالمديح والهجاء
والغزل بالمؤنث والوصف والفخر والسياسة والزهد صفة الغلو والمبالغة .

ومن الاغراض التي جدت واستحدثت في هذا العصر هي : (١) الفحش
في الهجاء وقذف الاعراض والامعان في البذاءة . وكان ذلك من اثر الحياة
الحضارية التي أدت الى كثرة الفجور وتعدد المثالب فكان ذلك مادة
للهجاء .

(٢) وصف الخمر والمجون وهو نتاج الحياة المترفة المترفة التي
سادت في العصر العباسي . وهذه الحياة المترفة قادت الى الاندفاع بحماس
نحو اللهو والمجون والغناء وكرع جامات الخمر مترعة . وقد كان بعض
شعراء هذا العهد مولعين بالخمر الى حد العبادة ، فوصفوه وصف العاشق
لمعشوقه ، ونزهوه تنزيه العابد لمعبوده . كما قال أبو نؤاس :

غرد الديك الصدوح فاسقني طاب الصبوح
واسقني حتى تراني حسنا عندي القبيح
قهوة تذكر نوحا حين شاد الفلك نوح

نحن نخفيها ويأبى طيب ريح فتفوح
فكان القوم نهى بينهم مسك ذريح

(٢) الغزل بالمذكر - وقد ظهر هذا النوع من الغزل منذ أوائل العهد العباسي ، وكان اول من اجترأ على القول فيه حماد عجرد ، ووالبة ابن الجباب ، وأبو نؤاس ، والحسين بن الضحاك . كان هذا الغزل وليد حياة العبت والمجون التي انتشرت في هذا العهد وكثرة بيوت الشراب حيث كان السقاة من الغلمان المرذوخين الذين كانوا يتشبهون بالنساء في المظهر وفي اللباس والحركات ، فمجد الشعراء وهم في نشوة سكرهم جمال هؤلاء المرذوخين ، وشدوا بذكر محاسنهم ومفاتنهم وغلوا بذلك حتى انهم صاروا اذا وصفوا غاية جعلوا الصفات للمذكر ، وكان أبو نؤاس فارس الميدان في هذا المضمار من الشعر ، واليكم احدى مقطوعاته :

يا بدعة في مثال يجوز حد الصفات
الوجه بدر تمام بعين ظبي فلاة
والقد قد غلام والغنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو مؤنث الخلووات
زها علي بهدغ مزرفن الحلقات
من فوق خد اسيل يضيء في الظلمات

(٤) الحكمة والزهد - وهذا الاتجاه ظهر كرد فعل لحياة العبت والمجون وخلق العذار . وكان على رأس الشعراء الزهاد أبو العتاهية الذي حمل لواء الفضيلة ودعا اليها ، مرغبا في العمل الصالح ، ومذكرا بالموت ، ومرهبا مما بعده ، وحاضا على الزهد في الدنيا . ومن شعره في ذكر الموت :

خانك الطرف الطموح ايها القلب الجموح
لدواعي الخير والشر دنو و دنو

هل لطلوب بذنب توبة منه نوح
كيف اصلاح قلوب انما هن قروح

واسترسل في القصيدة حتى قال :

يصير المرء يوما جسدا ما فيه روح
بين عيني كل حي علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والموت يغدو ويروح

(٥) التفنن في الوصف - وهو ناتج عن سعة الخيال المنبثقة عن تعدد مظاهر المتع والجمال ، وكثرة الاشياء التي تستحق الوصف فتؤثر في الوجدان . فلقد وصف الشعراء الورود والحدائق والبساتين ، وصفوا الطيور المفردة والريم الشرود ، وصفوا الطبيعة المبهجة والحياة الرائقة ، وصفوا مجالس الشراب حيث القصف والجواري الحسان الفاتنات ، وصفوا القصور المنيفة والحدائق الغناء ، وصفوا النرجس والاقاح ، ولم يدعوا شاردة أو واردة الا وتغنوا بمفاتها ونظموا القصيد اشادة بمحاسنها .

قال أبو نؤاس واصفا مجلس شراب :-

ودار ندامي عطلوها وأدلجوا بها اثر منهم جديد ودارس
مسابح من جر الزقاق على الثرى واضغات ريحان جنى ويابس

وقال أحمد بن يونس الكاتب يفضل الورد :-

يا من يشبه نرجسا بنواظر دعج تبه ان فهمك راقد
ان القياس (لمن يصح قياسه) بين العيون وبينه متباعده
والورد اشبه بالخدود حكاية فعلام تجحد فضله يا جاحد

وقال البحرري يصف بركة المتوكل :-

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والأنسات اذا لاحت مغايبها

بحسبها انها من فضل ربتها
تعد واحدة والبحر ثانيها
وقال منها :-

كانما الغضة البيضاء سائلة
من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا ابدت لها جبكا
مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس احيانا يضحكها
وريق الغيث احيانا يباكيها
اذا النجوم تراءت في جوانبها
ليلا حسبت سماء ركبت فيها

الشعر الاندلسي

لقد وجد العرب في الاندلس ما لم يجدوه في أقطارهم الاخرى من نواحي الطبيعة المتعددة الصور ، والمناظر المتنوعة ، والأجواء المتغيرة ، فقد ثارت غزارة الامطار ، ولطافة الجو واعتداله من الأسباب التي البست تلك البلاد حلة سندسية قشبية ، فانتشرت السهول المرعة الخضراء ، والجبال الشم المطرزة بأبهى ألوان الورود ، والوديان المعطرة بأجمل الأزهار نراهية ، وجرت الأنهار الروية في كل مكان ، وجادت الارض المنتبة المعطاء عليهم بالغللات ووافر الخيرات ، حتى ظهرت على الاندلسيين معالم الغنى وفاحش الثراء ، فبنوا القصور المنيفة والدور العالية ، واعتنوا بتنظيم الحدائق ، واكثروا من الاحواض والحمامات ، وقد عرفوا بالنظافة حتى قيل انهم اشد الناس عناية بالنظافة في ما يلبسون وما يفرشون . وقد دخل الاندلس ابن حوقل النصيبي في المائة الرابعة للهجرة فقال فيها : - « تغب المياه الجارية ، والشجر ، والتمر ، والرخص ، والسعة في الاموال ، من الرقيق الفاخر ، والخصب الظاهر ، الى اسباب التملك الفاشية فيها ، ولما هي به من أسباب رغد العيش ، وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهينهم . وارباب صناعتهم ، لقله مؤوتتهم ، وصلاح معاشهم » .

وقال لسان الدين بن الخطيب : « خص الله تعالى بلاد الاندلس من الربيع وغدق السقيا ، ولذاذة الآقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، بما حرمه الكثير مما سواها من البلدان » . وقال أحمد بن محمد الرازي : « بلد الاندلس هو عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصب الجناب ، منبجس الأنهار الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معقول الهواء ، ربيعه وخريفه وشتاؤه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، وسطة من الحال ، تصل فواكهه اكثر

الازمنة ، وتدوم متلاحقة غير مفقودة •

فلا غرو ان يشدو شعراؤها بمحاسنها ويصفوا مفاتها من ربي
مشرقة ، ووديان منبسطة ، وأنهار متدفقة ، وحقول سنديية ، وبساتين
نضرة ، كما قال أبو الفضل القيرواني في وادي عذراء :-

رياض تعشقها سندس توتت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدى ربا لها نظرة فتت من نظر
وكل مكان بها جنّة وكل طريق اليها سقر

وقال ابن سفر المريني :-

في أرض اندلس تلتدُ نعاء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش منتفع ولا يقوم بحق الانس صباء
واين يعدل عن ارض يحض بها على المدامة امواه وافياء
وكيف لا تبهج الاصدار رؤيتها وكل روض بها في الوشى صنعاء
انهارها فضة والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصاء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرا ولا انتشار لآلى الطل انداء
وانما ارج الند استير بها في ماء ورد قطابت منه ارجاء
واين يبلغ منها ما اصنفه وكيف يحوى الذي حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض حين بدت فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقا ابحر خفقت وجدا بها اذ تبدت وهي حسناء
لذلك يبسم فيها الزهر من طرب والظير يشدو وللانحصان اصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض فهي الرياض وكل الارض صحراء

وقال ابن خفاجة الاندلسي :-

يا اهل اندلس لله دركم
ماء وظل وانهار واشجار

ما جنة الخلد الا في دياركم' ولو تخيرت هذى كنت اختار

* * *

اضف الى ذلك ما اجتمع لدى اهل الاندلس من خفة الروح ،
والظرف ، وحب الفكاهة والتندر ، والآبال على الموسيقى والغناء ،
والانغماس في اللهو والمرح ، والانغمار في كرع جامات الخمر وتعاطي
المسكرات ... كيف لا ، وان الكروم في بلادهم كثيرة ، ومزارعها منبثة
في كل مكان .

كل ذلك أدى الى صفاء أذهانهم ، وسمو وجدانهم ، وعذوبة بيانهم ؛
فانعكس باشعارهم التي تسم بالعذوبة والصفاء وصدق الوجدان ، وبالمعاني
المبتكرة والتعابير الرشيقة والالفاظ الانيقة والذوق النقي السليم والخيال
الرائق الرفيع . وقد استمدوا من فكر الافرنج وأديبهم ما مزجوه بالفكر
العربي وأديبه ، فنشأ من اخصارهما أدب رائع بديع .

* * *

قال شعراء الاندلس في مختلف الأغراض التي قال فيها الشعراء
المشاركة ، فقالوا في المدح ، والرثاء ، والحماسة ، والهجاء ، وفي الغزل
والنسيب ، وفي الخمريات والمجون ، وفي الزهد والحكم ، وقالوا في الوصف
فابدعوا ايما ابداع .

وانهم اذا لم يتعدوا كثيرا عن المشاركة في أغراض الشعر ومعانيه ،
فانهم قد اخترعوا أوزانا مستحدثة للشعر أهمها ما يسمى بالموشحات ،
وقد دعاهم الى ذلك حب الابتكار والميل الى الجمال ، فمزجوا بين أوزان
مختلفة وقواف متعددة في قصيدة واحدة . وان هذا النوع من الشعر يتسق
مع الالحن لما فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ .

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته ، قال : « اما اهل الاندلس فلما

كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناخيه وفنونه ، وبلغ التمييز فيه الغاية ،
استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ، ينظمونه اسماطا اسماطا ،
واغصانا اغصانا ، يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد
منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الاغصان وأوزانها متاليا فيما
بعد ، الى آخر القطعة ، واكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات

وقد استظرف الناس ، الخاصة منهم والعامه ، هذا النوع من الشعر ،
وكلفوا به لسهولة تناوله ، وظرافة اسلوبه ، وحلاوة تعابيره .

ومن تلك الموشحات قول عبادة القزاز :-

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما اتم ما اوضحا ما اورقا ما انم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

ومنها موشحة لابن زمرك ، جاء في مقدمتها :-

في كؤوس الثغر من ذاك اللبس راحة الارواح
وتفشى الروض مسكى النفس عاطر الارواح
وكسا الارواح وشيا مذهبا يبهج الشمس
عسجد قد حل من فوق الربا يبهج النفسا
فاتخذ للهو فيه مركبا تلحق الانسا

* * *

ومنها موشحة ابن سهل التي جاء فيها :-

هل درى ظبي الحمى ان قد حمى قلب صب حله من مكنس
فهو في حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بدورا اطلعت يوم النوى غردا تسلك في نهج الفرر

ما لقلبي في الهوى ذنب سوى منكم الحسن ومن عيني النظر
اجتني اللذات مكلوم الجوى والتناذي من حبيبي بالفكر

ولقد عارضها لسان الدين بن الخطيب بموشحته التي جاء في مطلعها :-

جارك الغيث اذا الغيث همى يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما في الكرى او خلسة المختلس
اذ يقود الدهر اشتات المنى ينقل الخطو على ما يرسم
زمررا بين مرادى وثنا مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى فثغور الزهر منه تبسم

الكهانة في شعر عنيزة العباسي

ان للمناخ والبيئة الطبيعية اثرا كبيرا في تكوين اخلاق الناس وطباعهم ،
وفي تنظيم حياتهم الاجتماعية وأساليبهم المعاشية .

وبلاد العرب في العهد الجاهلي لم تكن تصلح للزراعة ، الا في الزاوية
الجنوبية الغربية منها ، ولم تلائم الحياة الحضرية . فهي قاحلة قفراء ، ومن
الجفاف بجيت قلما يوجد فيها الغيث ، فأرضها اما جبال صخرية جرداء أو تلال
رملية موحشة ، تتخللها بعض الآبار والواحات المنبثة هنا وهناك . لذا كان
سكانها على حالة من البداوة ، يعيشون تحت الخيام ، ولا مهنة لهم سوى
رعي الابل والانعام ، يتغذون بلبنها ولحومها ، ويكتسبون بصوفها ووبرها .
وكانوا يتنقلون من محل الى آخر وراء العشب والكلأ ، فالفوا حياة الطمن
والتجوال متبعين مواقع القطر تحت أشعة الشمس المحرقة . وهذا ما جعلهم
يتصفون بمتانة الخلق والقابلية على تحمل المشاق .

واذا حبست السماء جودها عنهم ، وامحلت ارضهم ، انطلق بعضهم
على بعض بالاغارة والغزو ، فسفك الدماء ، وتؤخذ السبايا والاسلاب .
وقد قيل ان « يد كل بدوي موجهة ضد كل من الآخرين ، ويد كل من
هؤلاء موجهة ضده » . وكان من اثر ذلك ان فسدت القلوب واستمرت
الحروب وانعدم الامن ورسخت فيهم روح الانتقام والاخذ بالتأر .

وكان نظامهم الاجتماعي مؤسسا على القبيلة . فكل خيمة تمثل اسرة ،
ومجموع الاسر في مضرب للخيام يمثل عشيرة أو فخذاً ، وعدة عشائر أو

انخاذ تعبير نفسها منحدره من أصل واحد وذات دم واحد تشكل قبيلة •
وكل أفراد القبيلة يخضعون الى سلطة رئيس هو شيخ القبيلة وزعيمها •
وليست للبدوي ملكية خاصة سوى خيمته ونيابه والادوات اللازمة
لمعيشته وافراد أسرته • وما عدا ذلك كالارض والماء والزرع وما شابه ذلك
كلها تحت الملكية العامة للقبيلة •

وطالما أدت صعوبة الحياة والمنافسة على بشر أو واحة أو قطعة أرض
معشبة الى حدوث صدام وصراع دمويين بين تلك القبائل • وان قوانين
الصحراء القاسية الصارمة اقتضت ان يكون الاعراب دائماً على غاية الاهبة
والحذر والاستعداد للدفاع عن انفسهم وممتلكاتهم • لذا تقصد تصفوا
بالشجاعة ، وحذقوا صناعة الحرب ، ومهروا في استعمال الصارم البتار
والرمح السمهري • فبرز في تاريخ العرب القديم الكثيرون ممن خلد
التاريخ ذكرهم في البأس والشجاعة وحمى الدمار ، ومنهم شاعرنا عنتره
العبيسي •

وبالاضافة الى ما تقدم لقد اقتضت ضرورات الحياة القاسية في الصحراء
تقوية العصبية القبلية • وكان شعار كل واحد من الاعراب : « احمر احاك
ظالماً أو مظلوما » ، اذ كان أفراد القبيلة الواحدة متكافلين متضامنين ، والقبيلة
مسؤولة تجاه القبائل الاخرى عن أي جرم يقترفه أحد أفرادها ضد أي
فرد من أفراد تلك القبائل • وكان الثأر القانون الرئيسي الذي ينظم علاقات
المجتمعات البدوية ، فلا يغسل الدم المسفوك الا الدم المسفوك ، وكل دم
يسفك يؤدي الى المزيد من الرغبة بالثأر • وهكذا فان تاريخ العرب في
الجاهلية سلسلة متصلة الحلقات من الحروب والغزوات التي دام بعضها
مددا طويلة كحرب البسوس بين قبيلتي تغلب وبكر التي استمرت أربعين
عاما وحرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان التي بلا فيها عنتره
العبيسي أحسن بلاء •

وكانت كل قبيلة تفأخر القبائل الأخرى بإبطالها وفوارسها ، وكان كل شاعر ينظم قلائد من القصيد التي تشيد بمفاخر قبيلته والاطناب بأصحاب الشجاعة والفروسية من أبنائها ليقوى مركزها بين بقية القبائل . ومثل هذا الشاعر كان مدعاة فخر تلك القبيلة واعتزازها .

نعم كانت الفروسية وقوة المراس صفة من الصفات الأصيلة عند العرب التي شدا بذكرها الشعراء ومجدوا ذكرها بأشعارهم الخالدة خلود الفرقدين . وفي غمرة اصطلاء العرب بيران الحروب ، وغشيانهم معامع الوغى كان يتفجر من نفوسهم شعر الحماسة بليغا هدارا ، وتتجاوب مع اصداثه الحان الفخر وملاحم النصر .

قيلت أشعار الحماسة في وصف البطولات ، وتصوير الحروب الطاحنة حينما تشتبك فيها سفار السيوف واسنة الرماح ، وامتداح بسالة الشجعان وذم خور الجبان ؛ كل ذلك استنفرازا للحمية ، وإثارة الحماس للاستبسال بالقتال .

وكان عنترة بن شداد العبسي فارس هذا الميدان وزعيمه الذي لا يقعق له بالشنان . انه جمع بين البطولة والفروسية وبين الشعاعرية وسعة الخيال . فكان عنترة مثلا صادقا من أمثلة الفتوة وعلمنا شامخا من أعلام البطولة والقوة بالإضافة الى كونه شاعرا فحلا موهوبا امتاز شعره بجزالة اللفظ ومثانة الاسلوب وسناء التركيب .

كان قرما عارما يقتحم سوح الوغى فيدير رحاها ، ويشن الهجمات والغارات على أعداء قومه فيسيل الدماء أنهارا ويطيح رؤوس الأبطال وهو مرتخص في سبيل مجده ومجد قومه كل غال ونفيس . انه حمى ذمار قبيلته وصان حوزة ديارها ، فكان لاسمه دوي اصاخ له سمع الزمان .

وكفاه فخرا وشرفا ان الرسول محمدا كان بوده ان يراه لو كان

حيا • فقد روى عمر بن شبة ، قال : حدثنا ابن عائشة ، قال : انشد النبي
صلى الله عليه وسلم قول عنترة :

ولقد آبى على الطوى واظله حتى انال به كسريم المأكل

ثم قال : « ما وصف لي أعرابي قط فاجبت ان أراه الا عنترة » •

ومما قيل عن مبلغ حزمه وعزمه واقدامه أن قال له قائل : « انت
اشجع الناس واشدهم ؟ » فاجابه : « لا » • قال السائل : « فيماذا شاع لك
هذا في الناس ؟ » قال : « كنت اقدم اذا رأيت الاقدام عزما ، واحجم اذا
رأيت الاحجام حزما ، ولا ادخل موضعا لا أرى منه مخرجا ، وكنت انازل
الضعيف الجبان فاضربه الضربة القاضية يطير لها قلب الشجاع ، فاتى
عليه فأنتله » •

ولد شاعرنا في الربيع الاول من القرن السادس الميلادي من أب كان
من سادات قومه ومن أم سوداء كانت امة حبشية • فكان عنترة هجينا لم
يستلحقه أبوه به أو يعترف ببنته ، على عادة العرب الذين لم يكونوا
يعترفون بابن الامة ما لم يظهر من البطولة والفروسية والمواهب ما يعزز
مركزه بين أفراد أسرته وقبيلته • فذاق عنترة مرارة الحرمان ومهانة
الدار ، طريدا بين العبيد والرعاة •

وكانت سمية زوجة ابيه تدس له عند ابيه وتحولك له من المكائد
ما يجعله عرضة للعقاب الصارم والعذاب المؤلم • ولقد قال بذلك شعرا
يصور فيه مأساته في صباه :

امن سمية دمع العين مذروف لو ان ذا منك قبل اليوم معروف
تجللتني اذ أهوى العصا قبلي كأنها صنم يعتاد معكوف
العبد عبدكم والمال مالكم فهل عذابك عني اليوم مصروف

تسى بلائي اذا ما غارة لحفت تخر منها الطوالات السرايف^(١)
يخرجن منها وقد بلت رحائلها^(٢) بالماء يركضها الشم الغطاريف^(٣)
قدأطعن الطعنة النجلاء عن عرض تصفر كف اخيها وهو منزوف^(٤)

ولكنه لم يمر طويل زمن حتى وجد أبوه نفسه مضطرا الى الاعتراف
بعترة ، والى الفخر بتصحيح نسبه اليه . وذلك ان قبيلة طيء اغارت على
بني عيس ترد تارا لها عندها ، وكان عترة مع قومه في حومة النزال ، الا
انه كان متقاعسا عن الاشتراك الفعلي في المعركة . فاشتد الخطب على عيس
حتى كادت تسلب أموالهم وخيراتهم وتدور عليهم الدوائر . فصاح بعترة
أبوه : « كُرَّ يا عترة » . فقال عترة : « العبد لا يحسن الكر ، انما يحسن
الحلاب والصر » .

فقال له أبوه : « كر وانت حر » . فهجم عترة على الاعداء وابلى
في ميدان الوغى خير بلاء ، فما زال في موقف الطعان والنزال يكر ويفر
على الاشواوس الابطال حتى شئت شملهم وانقد قومه من عار الهزيمة وذل
الانكسار . فاستلحقه أبوه به ، واعترف ببنوته ، واحتفلت القبيلة به مكرمة
فيه فارسها الفذ وبطلها المغوار وحامي عربنها والذائد عن حياضها .

كان عترة ، بالاضافة الى شجاعته وفروسيته ، ابا لا يقبل الضيم ،
وفيا جوادا ذا مروءة ونجدة . فكان عترة اذا استبى في غزواته احدى
الحرائر دفع اليها مهرها وتزوجها على غير عادة العرب الذين يعتبرون
السيبة من الاماء . كما قال :

-
- (١) السرايف جمع سرعوف : كل خفيف طويل يريد بها الخيل .
(٢) الرحائل جعل رحاله : وهي السرج .
(٣) الغطاريف جمع غطريف : وهو الشاب وهو أيضا السرى
الشريف .
(٤) المنزوف : الذي نزفت دماؤه .

ما استمت انتى نفسها في موطن حتى اوقى مهرها مولاها
وكان حافظا للحرمان وراعيا للجوار وربا بنفسه عن مواطن
الشبهات فقال :

اغشى فتاة الحي عند حليلها واذا غزا في الجيش لا اغشاها
واغض طرفي ان بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها
وكان اذا مست كبرياؤه ، فخر بشجاعته وحسن بلائه وطيب
شمائله ، كما قال :

اني امرؤ من خير عبس منصباً شطري واحمي سائري بالمنصل
واذا الكبيسة احجمت وتلاحظت الفيت خيرا من معمم ومخول

فهو يفخر بطيب ارومته من ابيه ، واما من جهة امه فله السيف
البار الذي يحمي به نفسه من تلك الهنة ، وهو في المعامع عندما يتور انقع
وينعقد الغبار تراه باقدامه وبسالته خيرا من ذوي الاعمام والاخوال .

وكان البعض يعيبه بالسواد . فقال مدافعا عن لونه وواصفا اياه بأحسن
الاصناف ، ومشيدا بما هو عليه من سجايا نبيلة وخلائق سامية تقوض
ما يلصقونه به من هتات ومعائب يتوهمونها . قال :-

وان أك أسودا فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عني كبعد الارض عن جو السماء
وقال :

تعبّرني العدا بسواد جلدي وبيض خصائلي تمحو السواد
سلي يا عبل قومك عن فعالي ومن حضر الواقعة والطرادا

وإذا كان اولئك البعض يعيونه بسواد جلده بقصد الانارة والايذاء
نهل نسوا سود نعالهم وخبث طواياهم ، كما قال :
يعييون لوني بالسواد وانما فعالمو بالخبث اسود من جلدي
وقال :

لئن يعيوا سوادي فهو لي نسب يوم النزال اذا ما فاتني النسب
ولقد افرط في دفاعه عن السواد حينما وصف امه مفاخرها بسوادها
واجدا في صفاتها ميزات تستدعي الاطراء والمديح لا عيوباً تستوجب القدح
والاستكار . قال :

وانا ابن سوداء الجين كأنها ضيع ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامه والشعر منها مثل حب الغفل
والنفر من تحت اللثام كأنه شرق تالألأ في الظلام المسدل
كما انه افتخر باخواله السود قائلاً :

منهم ابي حقا فهم لي والد والام من حام فهم اخوالي
وانه يفاخر اولئك الذين عابوه ولكنهم قصروا عن همته ، وفتروا عن
مجاراته في سجاياه وفضائل نفسه وفضاحة شعره . اذ انه سيخرسهم
بفضاحته ويكلم بلاغة الفصحاء . كما قال :

ما ساءني لوني واسم زبيبة اذ قصرت عن همتي أعدائي
فلئن بقيت لاصنعن عجائباً ولايكمن بلاغة الفصحاء
وقد جاء في شعر عنترة ما يعكس صفاته الطيبة وخصاله الحميدة وعفته
وانعدام الطمع في المغائم عنده ، كما قال :

هلا سألت القوم يا ابنة مالك ان كنت جاهلة بما لم تعلمي
ينبتك من شهد الواقعة انني اغشى الوغى وأعف عند المعتم
ولقد كان حبه العنيف لابنة عمه عبلة مصدر الهام وينبوع محبة •
فقد كانت صورتها مرتسمة في مخيلته وهو ينظم الشعر فيدع ايما ابداع ،
ومرتسمة في مخيلته وهو يكر على الفرسان فيزداد جرأة واقداما •
كما قال :

ولقد ذكرتك والسيوف نواهل منى وببيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقييل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم
فما اشد هذه العاطفة النبيلة والحب الصافي السليم الذي جعله وهو
يقارع الابطال في ساحة الوغى يود تقييل سيوف أعدائه التي تقطر من
دمه لانه تخيلها كبارق ثغر عبلة حبيته المفضلة •

وكانت قصة حبه العنيف وشاعريته المبدعة ورسالته في الحروب قد
اثارت عواطف الجماهير فكانت معينا لا ينضب للرواة والقصاصين لم
يضاهها سوى قصة قيس بن الملوّح مع ليلاه العامرية •

ولقد كانت هذه الاثارة لعواطف الجماهير والرواة والشعراء قد
تسببت في ما اصاب شعر عنترة من تصحيف وتحريف وزيادة كبيرة حتى
أصبح من الصعوبة بمكان استخلاص الصحيح من المنحول • ولكن هنالك
مصادر لشعره تعتبر معتمدة لا يتطرق اليها الشك وهي كتاب شعراء
النصرانية وروايات الاصمعي والبطلبيوسي وابي عمرو بن العلاء والمفضل
الضبي وابي سعيد السكري وغيرها •

ويعتبر عنترة من شعراء المعلقات ، وله ديوان شعر كبير يحتوي على
اشعاره التي دخل اليها الكثير من القصائد المنحولة والمنسوبة •

ولقد اتسم شعره بالرفقة والوضوح مع بلاغة التعبير ومثانة الأسلوب
 خلافاً للمسمة التي يتصف بها الشعر الجاهلي من ضخامة الألفاظ وخشونة
 المعاني ووعورة الوصف والبكاء على الأطلال ووصف النوق والجمال .
 أما أغراضه الشعرية فلا تتعدى النسب والفخر والحماسة . وكان
 هذا الغرض الأخير أهم الأغراض التي نظم فيها وأجاد . جاء في العمدة
 لابن رشيقي ، حكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة ، قال : « كفاك من
 الشعراء أربعة : زهير إذا رغب ، والنايف إذا رهب ، والاعشى إذا
 طرب ، وعترة إذا كلب » . وشعر عترة مليء بذكر الحرب حتى قال
 فيه الأصمعي : « ذهب أمية بن أبي الصلت في شعره بعامة ذكر الآخرة ،
 وعترة بعامة ذكر الحرب » .

وأهم قصائده طويلته المسماة بالمذهبة ، وهي معلقته التي جاء في
 مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم^(٥) أم هل عرفت الدار بعد توهم
 يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا ، دار عبلة ، واسلمي
 وما زال عترة يخاطب عبلة ويعاتبها ويصف شعوره بشأن رجلها
 وتركها الدار تعي من كانت تملؤه زهوا ونورا :

دار لأنسة غضيض طرفها طوع العناق لذيدة المتبسم
 فوفقت فيها ناقتي وكأنها فدَنَ لاقضى حاجة المتلوم
 وتحل عبلة بالجواء واهلنا بالحرزِ فالصمان فالمتلثم^(٦)
 ثم قال في الفخر :-

(٥) بمعنى هل ابقى الشعراء معنى الا وقد سبقوا اليه .
 (٦) الحزن والصمان والمتلثم : أسماء أمكنة .

اتنى على بما علمت فأنى سهل مخالفتي اذا لم اظلم
فاذا ظلمت فان ظلمي باسل مر مذاقنه كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامة بعدما ركذ الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات اسرة قرنت بأزهر^(٧) في الشمال مقدم^(٨)

ثم انتقل الى وصف مكارمه وطيب شمائله وانه عندما يشرب يستهلك
ماله ولكن عرضه مصون غير مكلوم . قال :

فاذا شربت فأنى مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحوت فما اقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

ثم يصف بأسه وبلاءه وهو يتصيد الفرسان ، قال :

ومدجج كره الكماء نزاله لا ممعن هربا ولا مستسلم
جادت يداي له بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقووم
برحبية الفرغين^(٩) يهدى جرسها^(١٠) بالليل معتس^(١١) الذئاب الضرم^(١٢)
فشككت بالرمح الاصم نيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركه ، جزر السباع ينشئه ما بين قلّة رأسه والمعصم

ثم يصف عترة حالة مبارزه الذي فغر فاه لغير تبسم بل دهشة
وذعرا :

لما رأني قد نزلت اريده ابدى نواجذه لغير تبسم
فطعنته بالرمح ثم علوته بمهند صافي الحديدة مخنم

(٧) الازهر : الابريق .

(٨) مقدم : مسدود فمه .

(٩) الفرغ : الفتحة التي يخرج منها الدم .

(١٠) الجرس : الصوت .

(١١) معتس : قاصد القنص .

(١٢) الضرم : الجياح .

عهدي به مد النهار كأنما
بطل كأن ثيابه في سرحة
خُصِبَ البنان ورأسه بالعظم
يحدى نعال السبت^(١٣) ليس بتوأم

ويصف نفسه انه دائما قلب الهجوم وطلبة الفرسان :-

اذ يتقون بي الاسنة لم أحم^(١٤)
ولقد هممت بغارة في ليلة
لما سمعت نداء مرّة قد علا
ومعلم يسعون تحت لوائهم
أيقنت ان سيكون عند لقائهم
لما رأيت القوم اقبل جمعهم
عنها ولكني تضايق مقدمي^(١٥)
سوداء حالكة كلون الادلم^(١٦)
وابنى ربيعة في الغبار الاقم
والموت تحت لواء آل محلم
ضرب يطير عن الفراخ الجثم
يتدامرون^(١٧) كررت غير مذمم

ثم يصف نفسه وهو في غمرة النضال انه قطب الرحي والغارس
المغوار الذي توجه اليه النداءات لانقاذ الموقف :

يدعون عترة والرماح كأنها
أشطان شر في لبان الادهم
ثم اخذ يصف جواده وما كان يلاقه من هول القتال وتعرضه لطنن
الرماح وشج السيوف ، فائخن بالجراح حتى لكأنه اغتسل بالدماء
المهدورة منه :-

ما زلت ارميهم بغرة وجهه
فازور من وقع القنا بلبانه
لو كان يدري ما المحاورة اشكى
ولكان ، لو علم الكلام ، مكلمي
ولبانه حتى تسربل بالدم
وشكا الي بعبرة وتحمحم

- (١٣) نعال السبت : المدبوغة بالقرظ .
(١٤) لم احم : لم اجبن .
(١٥) تضايق مقدمي : تضايق طريقي .
(١٦) الادلم : شديد السواد .
(١٧) يتدامرون : يبحث البعض البعض الآخر .

والخيل تتحمم الغبار عوايسا من بين شيطمة واجرد شيطم^(١٨)
 ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس : ويك عنتر أقدم
 ذُلُّ ركابي حيث شئت مشايعي قلبي واحفززه بامر مبرم
 وهو يخشى الموت لسبب واحد وهو خوفه من ان يوافيه قبل ان
 يثار من اولئك الذين يصابونه العداة وينالونه بالسنة وقاح وخاصة ابني
 ضمضم المريان :

ولقد خشيت بان اموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
 الشاتمي عرضي ولم اشتمهما والناذرين اذا لقيتهما دمي
 ان يفعلا فلقد تركت اباهما جزر^(١٩) السباع وكل نسر قشعم^(٢٠)
 ولعنتره قصائد في الحماسة سارت بذكرها الركبان ، منها قصيدته
 الحائية التي قالها في اغارته على بني ضبة وتميم :

طربت وهاجتك الغباء السوارح
 غداة غدت منها سنيح وبارح^(٢١)
 تغالت بي الاشواق حتى كأنما
 بزندين في جوفي من الوجد فادح
 وقد كنت تخفي حب سمراء حقة
 فحج لان منها بالذي أنت بائح
 لعمري لقد اعذرت لو تعذرني
 وخشنت صدرا جيبه لك ناصح^(٢٢)

-
- (١٨) الشيطم : الطويل الجسم • الاجرد : قصير الشعر •
 (١٩) جزر : جمع جزرة أي الفريسة •
 (٢٠) القشعم : النسر الكبير •
 (٢١) السنيح : القادم • البارح : الذاهب •
 (٢٢) الجيب : القلب •

اعاذل كم من يوم حرب شهدته
 له منظر بادي النواجذ كالح
 فلم ار حياً صابروا مثل صبرنا
 ولا كافحوا مثل الذين تكافح
 اذا شئت لاقاني كمي^(٢٣) مدجج
 على اعوجي^(٢٤) بالطعان مسامح
 نزاحف زحفا او نلاقي كتيبة
 تطاعتنا او يذعر السرح صائح
 فلما التقينا بالجفار تصصعوا^(٢٥)
 وردت على اعقابهن المسالح^(٢٦)
 وسارت رجال نحو اخرى عليهم الـ
 حديد كما تمشي الجمال الدوالج^(٢٧)
 اذا ما مشوا في السابغات حسبتهن
 سيولا وقد جاشت^(٢٨) بهن الاباطح
 فاشرعت رايات وتحت ظلالها
 من القوم ابناء الحروب الججاجج^(٢٩)

(٢٣) الكمي : المدجج بالسلاح .

(٢٤) الاعوجي : الحصان الاصيل .

(٢٥) تصصع : ذل .

(٢٦) المسالح جمع مسلحة : وهم قوم ذور سلاح .

(٢٧) الدوالج : المثقلة بالحمل .

(٢٨) جاشت : تدفقت .

(٢٩) الججاجج : السادة السمحاء الكرماء .

ودرونا كما دارت على قطبها الرحي
 ودارت على هام الرجال الصفائح (٣٠)
 بهاجرة (٣١) حتى تغيب نورها
 وأقبل ليل يقبض الطرف سائح
 تدعى بنو عبس بكل مهند
 حسام يزيل الهام والصف جانح (٣٢)
 وكل رديني (٣٣) كأن سنانه
 شهاب بدا في ظلمة الليل واضح
 فخلوا لنا عوذ النساء (٣٤) وجبوا (٣٥)
 عبايد (٣٦) منهم مستقيم وجامح
 وكل كعاب (٣٧) خدلة الساق (٣٨) فحمة
 لها منصب في آل ضبة طامح
 تركنا ضرارا بين عان مكبل
 وبين قتيل غاب عنه النوائح

-
- (٣٠) الصفائح : السيوف
 - (٣١) الهاجرة : نصف النهار ظهرا
 - (٣٢) جانح : متشابك
 - (٣٣) الرديني : الرمح
 - (٣٤) عوذ النساء : المرضعات
 - (٣٥) جبب : فر وهرب
 - (٣٦) عبايد : متفرقين شذر مذر
 - (٣٧) الكعاب : الناهد الثديين
 - (٣٨) الخدلة : الممتلئة الساقين

وعمرنا وجباننا تركنا بقفرة
تعودهما فيها الضباع الكوالح^(٣٩)

يجرّزَنَ هاما فلقَّتْها رماخنا
تزيل منهن اللحى والمسائح

وقال في يوم عراعر • وهي معركة جرت بين بني عيس وبني كلب
على ماء يقال له عراعر فاتصر بنو عيس ، فقال عترة :

ألا هل اتاهنا ان يوم عراعر
شفى سقما لو كانت النفس تشفى

فجئنا على عيياء ما جمعوا لنا
بارعن لا خل ولا متكشف

تأروا بنا اذ يمدرون حياضهم
على ظهر مقصى من الامر محصف

وما نذروا حتى غشينا بيوتهم
بغية موت سبل الودق مزعف^(٤٠)

فظلنا نكر المشرفية^(٤١) فيهم
وخرصان^(٤٢) لدن السمهي المثقف

عالتنا في كل يوم كرهية
بأسيافنا والقرح لم يتقرف

(٣٩) الكوالح : العابسة المكشرة •

(٤٠) الودق المزعف : المطر المهلك الذي لا يبقى ولا يذر •

(٤١) المشرفية : السيوف •

(٤٢) الخرصان : الرماح •

ايننا فلا نعطي السواد عدونا
 قياما باعضاد السراء (٤٣) المعطف
 بكل هتوف عجبها رضوية (٤٤)
 وسهم كسير الحميري المؤنف
 فان يك عز في قضاة ثابت
 فان لنا بالرححان واسقف (٤٥)
 كتاب شها فوق كل كتيبة
 لواء كظل الطائر المتصرف
 وغادرن مسعودا كأن بنحره
 شقيقة برّد من يمان مقوّف
 وقال في موقعة حربية جرت بين بني عيس وبني تميم فانهزمت
 بنو عيس ، الا ان غترة صمد كالطود ، فلبى بنو عيس نداه ، فكروا
 على أعدائهم ودحروهم :-
 طال الثواء على رسوم المنزل
 بين اللكيك وبين ذات الحرمل
 فوقفست في عرصاتنا متحيرا
 اسل الديار كفعل من لم يذهل

(٤٣) السراء : شجر تتخذ منه القسي .

(٤٤) هتوف : مصوته . العجس : مقبض القوس . رضوية نسبة
 الى رضوى جبل في المدينة .

(٤٥) الرححان : جبل بين عكاظ وعرفات . اسقف موقع في البادية .

لعبت بها الأنواء بعد انيسها
 والرامسات وكل جون مسبل^(٤٦)
 افمن بكاه حمامة في أيكة
 ذرفت دموءك فوق ظهر المحمل
 كالدر او فضض الجمان^(٤٧) تقطعت
 منه عقائد سلكه لم يوصل
 لما سمعت دعاء مرة اذ دعا
 ودعاء عبس في الوغى ومحلل
 ناديت عبسا فاستجابوا بالقنا
 وبكل ايض صارم لم ينجل
 حتى استباحوا آل عوف عنوة
 بالمشرفي وبالوشيج الذبَل^(٤٨)
 اني امرؤ من خير عبس منصبا
 شطري واحمي سائري بالمنصل
 ان يلحقوا أكرر وان يستلحموا
 أشدد وان يُلْفَوا بضنك انزل
 حين النزول يكون غاية مثلنا
 ويفر كل مضلل مستوهل^(٤٩)

-
- (٤٦) الرامسات : الرياح المغبرة • الجون : السحاب المتكاثف • مسبل : ممطر •
 - (٤٧) فضض الجمان : فتت اللؤلؤ •
 - (٤٨) المشرفي : السيف • الوشيج : الرمح • الذبل : الضامرة •
 - (٤٩) المستوهل : الضعيف الجبان •

ولقد أبيتُ على الطوى وأظله
حتى انال به كريم المأكَل
وإذا الكتيبة احجمت وتلاحقت
ألفيت خيرا من معيمٍ ومُخَوِّل
والخيل تعلم والفوارس اتسي
فرقت جمعهم بطفنة فيصل
اذ لا ابادر في المضيق فوارسي
ولا أوكل بالرعيل الاول
ولقد غدوت امام راية غالب
يوم الهياج وما غدوت بأعزل
بكرت تخوفني الختوفُ كأنني
اصبحت عن غرض الختوف بمعزل
فاجبتها ان المنيّة منهلٌ
لا بد ان أُسقى بكأس المنهل
فأقنى حياك لا ابا لك واعلمي
أنني امرؤٌ سأموت ان لم اقل
ان المنيّة لو تمثّل مُثَلتٌ
مثلى اذا نزلوا بضعك المنزل
والخيلُ ساهمةٌ الوجوه كأنما
تسقى فوارسها تبيع الخنظل
وإذا حملت على الكريهة لم اقل
بعد الكريهة ليتني لم افعل

لقد تمثلت في هذه القصيدة صفة الأبطال الأشاوس وهي انعدام
الرهبة من الموت ومقاومة الحتوف بقوة وصلابة اذ ان المنيّة منهل يسقى
منها كل انسان ، فالمرء مصيره المحقق الموت ان قتل او لم يقتل ، فالاجدر
به ان يؤدي واجبه تجاه مجتمعه برحابة صدر وقوة جنان •

وقال ايضا : -

عجبت عبيّلةً من فتيّ متبدّل
عاري الاشاجع^(٥٠) شاحبٍ كالمُتصل
شعثٍ المفارقٍ منهُجٍ سرّباله
لم يدّهن حوْلاً ولم يترجّل
لا يكتسى الا الحديدَ اذا اكسى
وكذاك كل مغاورٍ مستبسل
قد طالما لبس الحديد فانتما
صدأ الحديد بجلده لم يُغسل
فضاحكت عجباً وقالت يا فتي
لا خيرَ فيكَ كأنها لم تحفل
فعبجت منها حين زالت عنها
عن ماجدٍ طلقَ اليدين شمردل^(٥١)
لا تهرمني يا عيّلٍ وراجعي
في البصيرة نظرة المتأمل

(٥٠) عاري الاشاجع : قليل اللحم •

(٥١) الشمردل : الطويل •

فلرُبَّ أُمَّلَحٍ مِنْكَ دَلَا فاعلمي
 واقفراً في الدنيا لعين المجتلي
 وصلت جبالي بالذي انا أهله
 من ودها وانا رخي المطول
 يا عبل كم من غمرة باشرتها
 بالنفس ما كادت لعمرك تجلي
 فيها لوامع لو شهدت زهاها
 لسلوت بعد تخضب وتكحل
 اما تريني قد نحلت ومن يكن
 غرضاً لاطراف الاسنة ينحل
 فلرب ابلج مثل بعلك بادن
 ضخم على ظهر الجواد مهيل^(٥٢)
 غادرته متعفرا اوصاله
 والقوم بين مَجْرَحٍ ومجدل
 فيهم اخو ثقة يضارب نازلا
 بالمشرفي وفارس لم ينزل
 ورماحنا تكف التجيع صدورها
 وسيوفنا تخلي الرقاب فتختلي
 والهام تَنَدُرُ بالصعيد كأنما
 تلقى السيوف بها رؤوس الحنظل

(٥٢) المهيل : الثقل الملول .

ولقد لقيت الموت يوم لقيته
 متسربلا والسيف لم يتسربل
 فرأيتنا ما بيننا من حاجز
 إلا المجنون^(٥٣) ونصل ايض مفصل
 ذكر أشق به الجمجم في الوغى
 واقول لا تقطع يمين الصيقل^(٥٤)
 ولأرب مشعلة وزعت رعاها
 بمقلص نهد المراكل هيكل
 سلس المعذر^(٥٥) لا حق اقرايه^(٥٥)
 متقلب عبثا بفأس المسحل^(٥٦)
 نهد القطاة كأنها من صخرة
 ملساء يغشاها المسيل بمحفل
 وكان هاديه اذا استقبلته
 جذع أذيل^(٥٦) وكان غير مذلل
 وكان مخرج روحه في وجهه
 سربان كانا موالجين لجيل^(٥٧)

(٥٣) الصيقل : من يصقل السيوف ويشحذها .

(٥٤) المعذر : مكان اللجام .

(٥٥) لاحق اقرايه : ضامر البطن .

(٥٦) المسحل : اللجام .

(٥٧) السربان : مغارتان تحت الارض . المولج : حجر . الجيلال :

الضبع .

وكان متيه اذا جردته
ونزعت عنه الجلّ متا ايل

وله حوافر موقق تركيها
صم النسور كأنها من جندل

وله عيب ذو سيب ساغ
مثل الرداء على الغنى المفضل

لسن الغنان الى القتال فعينه
قبلاء شاخنة كعين الأحول

وكان مشيته اذا نهته
بالنكل مشية شارب مستعجل

فعليه اقتحم الهياج تقحما
فيها وانقض انقراض الاجدل^(٥٨)

وقال في يوم جيلة وفيه قتل لقيط بن زراره
ارى لي كل يوم مع زمانني

عابا في البعاد وفي التداني
يريد مذنتي ويدور حولي

بجيش النابيات اذا رآني
كأنني قد كبرت وشاب رأسي

وقل تجلدي ووهي جناني
الا يا دهر يومي مثل أمسي

واعظم هية لمن التقاني

(٥٨) الاجدل : الصقر .

ومكروب كشفت الكرب عنه
 بضربة فصل لما دعاني
 دعاني دعوة والخيل تجري
 فما ادري أباسي أم كئاني
 فلم أمسك بسمعي اذ دعاني
 ولكن قد ابان له لساني
 ففرقت المواكب عنه فهرا
 بطعن يسبق البرق اليماني
 وما لبيته الا وسيفي
 ورمحي في الوغى فرسا رهان
 وكان اجابتي اياه أني
 عطفت عليه موار الغنان
 باسمر من رماح الخط لادن
 وابيض صارم ذكر يمان
 وقرن قد تركت لدى مكرًا
 عليه سبائباً كالأرجوان^(٥٩)
 تركت الطير عاكفة عليه
 كما تردي الى العرس البواني
 وتمنعهن ان يأكلن منه
 حياة يد ورجل تركضان

(٥٩) السبائب : الجدائل أو خصائل الشعر المخضبة بالدم .

فما او هي مراسم الحرب ركني
ولكن ما تقدم من زمان

وما دانت شخص الموت الا
كما يدنو الشجاع من الجبان

وقد علمت بنو عيس بن باني
أهش اذا دعيت الى الطعام

وان الموت طوع يدي اذا ما
وصلت بنانها بالهندوانسي

ونعم فوارس الهجاء قومي
اذا علقوا الاغنة بالبنان

هم قتلوا لقيطا وابن حجر
واردوا حاجبا وابني أبان

وقال في يوم الفروق حينما هزم بنو عيس بني سعد وقتل عنزة معاوية

بن نزال جد الاخف :-

ألا قاتل الله الطلول البواليا	وقاتل ذكراك السنين الخواليا
وقولك للشيء الذي لا تاله	اذا ما حلا في العين يا ليت ذا ليا
ونحن منعنا بالفروق نساءنا	نُطِرَفَ عنها مشعلات غواشيا
حلفنا لهم والخيـل تردى بنا معا	نزايـلهم حتى يهـروا العواليا
عوالى زرقا من رماح رُدَيْنَةٍ	هرير الكلاب يتقن الافاعيا
الم تعلموا ان الاسنة احرزت	بقتيـسا لو أن للدهر باقيا
أينا أبيتا ان نضب لثاتكم	على مرشفات كالقضاء عواطيا

وقلت لمن قد أخطر الموت نفسه ألا من لأمر حازم قد بدا ليا
وقلت لهم ردوا المغيرة عن هوى سوابقها وأقبلوها النواصيا
وانا نقود الخيل تحكي رؤوسها رؤوس نساء لا يجدن فواليا (٦٠)
تعالوا الى ما تعلمون فانتى ارى الدهر لا ينجى من الموت ناجيا

وقال يتوعد النعمان بن المنذر مفاخرًا بقومه :

لا يحمل الحقد من تعلقو به الرتب
ولا ينال العلا من طبعه الغضب
ومن يكن عبد قوم لا يخالفهم
إذا جفوه ويسترضى إذا عتبوا
قد كنت فيما مضى أرعى جمالهم
واليوم أحمى حماهم كلما نكبوا
لله درُّ بني عبسٍ لقد نسلوا
من الأكارم ما قد تسل العرب
لئن يعيبوا سواذي فهو لي نسب
يوم النزال إذا ما فاتني النسب
ان كنت تعلم يا نعمان أن يدي
قصيرة عنك فلايام تنقلب
اليوم تعلم يا نعمان اى قسى
يلقى اخاك الذي قد عرَّه العُصَبُ

(٦٠) الفوالى : الماشطات * : ١١٧

ان الافاعي وان لانت ملامسها
 عند التقلب في اناها العطب
 قتي يخوض غمار الحرب مبسما
 ويشنى وسان الرمح مختضب
 ان سل صارمه سالت مضاربه
 واشرق الجو واشقت له الحجب
 والخييل تشهد لي اني اكفكها
 والظعن مثل شرار النار ينتهب
 اذا التقيت الاعادي يوم معركة
 تركت جمعهم المغرور ينتهب
 لي النفوس وللطير اللحوم ولد
 وحش العظام وللخيالة السلب
 لا ابعده الله عن عيني غطارفة
 انسا اذا نزلوا جنا اذا ركبوا
 اسود غاب ولكن لا نيوب لهم
 الا الاسنة والهندية القضب
 تعدو بهم اعوجيات مضمرة
 مثل السراحين في اعناقها القيب^(٦١)
 ما زلت القسي صدور الخيل مندقها
 بالظعن حتى يضح السرج واللبيب

(٦١) السراحين جمع سرحان : الذئب • القيب : اللجام الثقيل •

فَالْعُمَىٰ لَوْ كَانَ فِي أَجْفَانِهِمْ نَظَرُوا
وَالخُرْسُ لَوْ كَانَ فِي أَفْوَاهِهِمْ خُطْبُوا
وَالنَّقَعُ يَوْمَ طَرَادِ الْخَيْلِ يَشْهَدُ لِي
وَالضَّرْبُ وَالطَّعْنُ وَالْأَقْلَامُ وَالْكَتَبُ

الرشاء في شعر الخنساء

ان الخنساء تمثل بحق في شعرها الرثاء ، لأنه مادة شعرها ، وقلمها وجدت لها منظومة تخرج عن نطاق الرثاء ، وانها ان مدحت تمدح اولئك الذين تربيهم ، فهي غالبا ما تبدأ قصائدها بالبكاء والنواح ثم تتحول الى مدح المرثى واطراء شمائله .

اسمها الحقيقي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية . وكان ابوها وآلها من سادات بني سليم من مضر . وكان أبوها ذا مكانة مرموقة في جزيرة العرب مما دعا النعمان الى اختياره ضمن سادات العرب العشرة الذين اوفدهم الى كسرى انوشروان لكي يظهروا له فضل العرب .

كانت بارعة الجمال ، وافرة الادب ، ولقبت بالخنساء لجمال انفها ، لان الخنس كان يعتبر من جمال الانف عند العرب آنثى . ولقد لقب بهذا اللقب اربع من سيدات العرب في الجاهلية الا انهن لم يبلغن مبلغ تماضر من خلود الذكر ، وذبوع الصيت .

نبئت اذن تماضر في دوحة الشرف ، وترعرعت في روضة الفضل ، فنشأت وهي ذات ادب جم ، وعقل وافر ، وخلق نبيل .

وكان لها اخوان : صخر ، و معاوية - وكانا اجمل فارسين في العرب - كان ابوهما يأخذ بيديهما في الموسم ويقول : « انا ابو خيرى مضر ، فمن انكر فليغير » فلم ينكر عليه احد . ثم استطرد قائلاً : « من اتى بمثلهما اخوين من قبلي ، فله حكمه » ، فأقرت له العرب بذلك .

فألف كرم محتد تلك العائلة وطيب ارومتها بين قلوب اعضائها ،
وكانوا يتبادلون الحب والاعجاب ، لذا فكانت تماضر تباهي بقومها ، وتعتر
بألها اعتراضا تمثله القصيدة الرائعة التالية التي قالتها في سباق بين ابها
واخيها صخر ، وقد قيل لها : لئن مدحت احدهما هجوت الآخر • قالت
تصف صخرًا وقد ارادت مساواته بابيها مع مراعاة حق الوالد :

جاري ابيه ، فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة الحضر
حتى اذا نزت القلوب وقد لزلت هناك العذرة بالعدر
وعلا هتاف الناس : ايهما ؟ قال المجيب ، هناك : لا ادري
برزت صحيفة وجه والده ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى ان يساويه لولا جلال السن والكبر
وهما كأنهما وقد برزا صقران قد حطتا على وكر

وقيل للخساء : صفي لنا اخويك صخرًا ومعاوية • فقالت : كان صخر
جنة الزمان الاغبر وذعاف الخميس الاحمر • وكان معاوية القائل الفاعل •
قيل لها : فايهما كان اسنى وافخر ؟

قالت : اما صخر فحر الشتاء ، واما معاوية فبرد الهواء •
قيل لها : فايهما اوجع وافجع ؟

قالت : اما صخر فجمر الكبد ، واما معاوية فسقام الجمد • وانشدت :

اسدان محمرا المخالب نجدة بحران في الزمن الغضوب الانمر
قمران في النادي رفيعا محتد في المجد فرعا سوّدد متخير

* * *

ولقد خطبها دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بني جشم فردته
وآثرت الزواج في قومها • ويروى للخساء قولها عن حادث خطبة دريد
لها ورغبة اخيها معاوية لتزويجها منه ، ورفضها ذلك الزواج في الوقت

الذي كان فيه اخوها صخر غالبا في غزاة له :

يبادرني حُميدةُ كل يوم فما يولى معاوية بن عمرو
لئن لم أوت من نفسي نصيبا لقد أودى الزمان اذن بصخر
اتكرهني ، هُبِلتَ ، على دريد وقد أحرمت سيد آل بدر
معاذ الله ينكحني جبركي قصير الشبر من جشم بن بكر
يرى مجدا ومكرمة أتاها اذا عشي الصديق جريم نمر
ولو اصبحت في جشم هديا اذن اصبحت في دنس وفقير

ولم يمض وقت طويل حتى كان موضوع دريد وتماضر قصة الموسم
وحديث القاصي والداني في طول الجزيرة العربية وعرضها ، فكانت
هوازن في جانب وهي معتزة بسيدها وشاعرها الذي كان اشبه بأسطورة في
فروسته وشجاعته ، وتكر ان ترده فناة من العرب . وبنو سليم ، في الجانب
الآخر ، وهي ترى في تماضر ، وهي بنت سيدها ، خير سادات العرب ،
كفوا لأن ترد أي سيد ، كائنا من كان .

* * *

واخيرا كان رواحة بن عبدالعزيز السلمي هو الموعود بشرف الزواج
منها . فلم تجد في الحياة الزوجية معه السعادة المرجوة . اذ كان مولعا
بالمقامرة متلافا ، طالما شكته الى اخيها صخر .

ولقد آتت اخاها صخرا يوما وشكت اليه حالها ، فما كان من صخر
الا ان شطر ماله شطرين اعطاها خيرهما .

فرجعت بالمال الى زوجها فاتلقه قبل ان يتم العام ، وعادت تماضر
الى صخر ، فشاطرها ماله واعطاها خير الشطرين .

وتكررت المساة ، حتى اذا كانت الرابعة وهم صخر بأن يشاطر
اخته ماله ، اعترضته زوجته فعدلته قائلة : « ان زوجها مقامر ، وهذا

ما لا يقوم له شيء ، فان كان لا بد من صلتها فاعطها أخس مالك ، فانما هو
متلف ، والخيار فيه والشرار سيان » .

فكان جواب صخر أن قال :

والله لا امنحها شرارها وهي حصان قد كفتني عارها
ولو هلكت مزقت خمارها واتخذت من شعر صدارها

ثم شطر ماله فاعطى اخته افضل الشطرين . ولم يدر صخر انه
يعمله وقوله قد اقل كاهل تماضر بحمل ثقيل ، وفرض عليها ان تمزق
خمارها من بعده ، وتتخذ من شعر صدارها حتى مماتها ، وتملاً الدنيا
نواحا وعويلا .

كانت تماضر مع زوجها الثاني ، المسمى « مرداس بن ابي عامر
السلمي » الملقب بالفيض لسخائه ، اسعد حالا من زوجها الاول . ومع ذلك
فلم يسمع عن الخساء اي نشاط في عالم الشعر طيلة حياتها الزوجية التي
انتهت بمرثية جادت بها على زوجها الثاني عند وفاته ، فظفر منها ما لم يظفر
به احد قط غير اخويها . وهي التي ضنت على بنيتها الاربعة بيت واحد
من الشعر تؤنبهم ، حينما قتلوا جميعا في وقعة القادسية .

وهذه هي مرثيتها لزوجها مرداس السلمي ، وهي المرثية الوحيدة
التي قيلت في غير اخويها : -

ولما رأيت البدر اظلم كاسفا
رنينا وما يغنى الرنين وقد أتى
لقد خاز مرداسا على الناس قاتله
وقلن : ألا هل من شفاء يناله
وفضل مرداسا على الناس حلمه
وأن كل واد يكره الناس هبطه
ارن شواذ بطنه وسوائله
بموتك من نحو القرية حامله
ولو عاده كتابه وحلائله
وقد منع الشفاء من هوانله
وان كل هم همه فهو فاعله
هَبَّطْتَ وماءٍ منهل انت ناهله

تركت به ليلا طويلا ومنزلا تعادى على ظهر الطريق عواسله^(١)
وسبى كآرام الصريم تركته خلال الديار مستكينا عواطله^(٢)
وعدت اليهم بعد بؤس بأنعم فكلمهم تُعْنَى به وتواصله
متى ما توازن ماجدا يعتدل به كما عدل الميزان بالكف راطله
وتبدو في هذه القصيدة ملامح مبكرة من مرثي الخساء وهي نفتقر
الى قوة العاطفة ، والى الشعور بعنف المصاب .

ولقد كانت الخساء في اول امرها تقول البيت او البيتين حتى مقتل
اخويها الذي أثار فيها طبيعة الشعر ونمى روحها الشاعرية ، فنظمت في
رثائها قصائد تعد من اروع قصائد الرثاء واجودها .

ولولا ان مرداسا مات قبل ان تُرَوِّعَ تماضر بفقد اخويها ، لما ظفر
منها بكلمة واحدة لأنها نذرت الا تحزن على احد من بعد صخر ، والا
ترثى ميتا بعده .

* * *

جاء مقتل اخيها معاوية اول صدمة للخساء هز كيانه ، ففجعت به ؟
وكان الذين قتلوه آل غطفان من بني مرة . فاشتد بها الجزع ، وغمرها
الاسى ، واشتدت :-

الا ما عينك أم مالها لقد أخضل الدمع سربالها^(٣)
ابعد ابن عمرو من آل الشريم جد حلت به الارض ائقالها ؟

(١) تعادى : تتبارى بالعدو . عواسل جمع عاسلة : وهي اثى
الذئب .

(٢) الآرام : الغزلان البيض . الصريم : موضع تكثر فيه الطباء .
عواطل : نساء غير متزينات بحلى .

(٣) أخضل : بلل . السربال : قميص كناية عن الجفن الذي يستر
العين كما يستر القميص الجسد .

فأليت آسى على هالك واسأل باكية ، مالها ؟
لعمري ابيك لنعم الفتى تحش به الحرب اجذالها

* * *

فان تكّ « مرة » اودت به فقد كان يكثر قتالها
فخرّ الشوامخ من قلته وزلزلت الارض زلزالها
وزال الكواكب من فقده وجلت الشمس اجلالها
وداهية جرها جارم تبين الحواضن احمالها
وقالت فيه :-

يا عين ابكى فارسا حسن الطعان على الفرس
ذا مرة ومهابة بنا تؤلمه اختليس

..

نعم الفتى عند الوغى حين التصايح في الغلس
فلا بكينك سييدا فصل الخطاب اذا التبس
من ذا يقوم مقامه بعد ابن امى اذ رُمس
او من يعود بحلمه عند التنازع في الشكس^(٤)
غيث العشيّة كلها : الغائرين ومن جلس^(٥)

وقالت فيه الايات التالية التي يظهر فيها الحزن والاسى بكل
وضوح ، فيهب وجدان السامع رنينها المثير الذي تجعله « الهاء الساكنة »
شبيها بالنواح والعيويل :-

(٤) الشكس : صعوبة الخلق .

(٥) الغائرون : الذاهبون الى الغارة . من جلس : من قعد عن الغارة .

ألا لا ارى في الناس مثل معاوية
 اذا طرقت احدى الليالي بدهيه
 بدهيه يصفي الكلاب حسيها
 وتخرج من سر النجى علانيه
 الا لا ارى كالفارس الورد فارسا
 اذا ما علمه جرأة وعلايه
 وكان لزاز الحرب عند شوبها
 اذا شممت عن ساقها وهي ذاكه^(٦)
 بلينا وما تبلى تعار وما ترى
 على حدث الايام الا كما هي^(٧)
 فاقسمت لا ينفك دمعي وعولتي
 عليك بحزن ما دعى الله داعيه

وقالت فيه ايضا :-

يا عين جودي بالدمو ع المستهلات السواجم^(٨)
 فيضا كما انخرق الجما ن وجمال في سلك النواظم
 وابكى معاوية الفتى وابن الخضارمة القماقم^(٩)
 والحازم الباني العلا في الشاهقات من الدعائم

(٦) لزاز الحرب : ملازمها وملاحقها .

(٧) تعار : اسم جبل .

(٨) المستهلات السواجم : المتدفق منها الدمع .

(٩) الخضارمة جمع خضرم : السيد الجواد . القماقم : السيد الكثير

الاحسان .

تلقي الجزيل عطاؤه عند الحقائق غير نادم
اسقى الاله ضريحه من صوب دائمة الرهائم (١٠)



ولم تكامل شاعرية الخساء الا بعد وفاة اخيها الحبيب صخر ، وهو
في نظرها زين العشيرة ، واولهم حلما وجودا وشجاعة وجمالا ، وكان
واخاه معاوية على ما روى « ابو عبيدة » اجمل رجلين في العرب في زمنهما .
ولنا ان تصور محنة الخساء في فقد صخر بعد معاوية . فلقد فقدت
بفقدته سعادتها ، واسودت الدنيا بعينها ، وانطفأ نورها ، وخمد للأؤها ،
فلم تعد تجد فيها غير البؤس والشقاء . فانفجرت نواحا على صخر ،
وملأت الدنيا قصائد تراثيه فيها . ولم يظفر احد بالمراثي قدر ما ظفر به
صخر من مراثي الخساء اذ تقدر بنحو سبعين مرثية ، لا تكاد واحدة
منها تخلو من ذكر اسمه ، فكأنما كانت تجد في ترديد اسمه راحة لها .
وكانت اولى قصائدها في رثاء صخر ، وهو اعز عزيز لديها ، تلك
التي قالتها عندما نعى الناعي ذلك النبا المفجع ، فوفقت نائحة ملتاعة :-

ابنت صخر تلکم الباكية لا باكي الليلة الا هيه
اودي ابو حسان واحسرتا وكان صخر ملك العاليه
ويلاي ! ما أرحم ويلاً له اذا رفع الصوت الندى الناعيه
كذبت بالحق وقد رابسي حتى علت ابيات الواعيه
بالسيد الحلو الامين الذي يعصمنا في السنة العاديه
الى ان قالت :-

(١٠) الرهائم جمع رهمة : وهي المطر الخفيف المستمر .

لا خير في عيش وان سرنا والدمر لا تبقى له باقية
كل امرئ سرّاً به اهله سوف يرى يوماً على ناحيه
وقالت فيه لما جاءها خبر وفاته ، وتشتف من هذه الايات اللهفة
الحادة والحزن العميم ، فكأنها صرخات قلب مقطوع ، وانات صدر موجع
مكلموم :

يا عين جوذي بالدموع الغزار
وابكى على اروع حامي الذمار^{١١}

فرع من القوم كريم الجدا
انما منهم كل محض التجار

اقول لما جاءني هلكته
وصرح الناس بنجوى السرار

أخى ! إِمّا تَكُ ودعتا
و حال من دونك بعد المزار

✱

اهلي فداء للذي غودرت
اعظمه تلمع بين الخبار^(١١)

صريع ارماح ومشحوذة
كالبرق يلمعن خلال الديار

من كان يوماً باكباً سيداً
فليكنه بالعبرات الحرار

(١١) الخبار : الارض الرخوة .

ولتبكّه الخيل اذا غودرت
بساحة الموت غداة العثار
وليبكّه كل اخي كربة
ضقت عليه ساحة المستجار
ريبع هلاكٍ وماوى ندى
حين يخاف الناس فحط القطار
أسقى بلادا ضمنت قبره
صوب مرايبع الغيوث السوار
حلفت بالبيت وزواره
اذ يعملون العيس نحو الجمار
لا اجزع الدهر على هالك
بعدك ما حنت هوادى العثار
يا لوعة بانث تباريحها
تقدح في قلبي شجى كالشرار
ابدى لي الجفوة من بعده
من كان من ذى رحيم او جوار
ان يك هذا الدهر اودى به
وصار مسحا لمجاري القطار
فكل حي صائر للبلوى
وكل جبل مرة لاندثار
وقالت في صخر ، وهي تفجع والتراب يحثى على محاسنه وعلى
غضارة وجهه :-

يا صخر ، من لحوادث الدهر
أم من يسهل راكب الوعر

كنت المفرج ما ينوب ، فقد
اصبحت لا تحلى ولا تمرى

يُحشى التراب على محاسنه
وعلى غضارة وجهه النضر

وقالت ، وقد هد قواها صوت الناعي فاخرجها عن طورها ، فتمنت
لو اطبقت السماء على الارض ، فمات كل من عليها من حاف وناعل :

ألا ليت امي لم تلدني سوية
وكنت ترابا بين ايدي القوابل

وخرت على الارض السماء فطبقت^و
ومات جميعا كل حاف وناعل

غداة غدا ناع لصخر فراغني
واورثني حزنا طويل البلابل

فقلت له : ماذا تقول ؟ فقال لي
نعت ابن عمرو ، ائكلته هوايل

فاصبحت لا التذ بعدك نعمة
حياتي ولا ابكي لدعوة تاكل

فشان المنايا بالاقارب بعده
لَتُعَلِّلْ عليهم علة بعد ناهل

وتسود الدنيا في عيني تماضر ، ويلوح لها الكون كالبحر السواد ،
وتحس كل من في الكون يشاركها في البكاء والتحيب ، اذ تقول :-

يا عين جودي بالدموع
على القسي القمر الاغر
ايض ابلج وجهه
كالشمس في خير البشر
والشمس كاسفة لمهلكه
وما اتسق القمر
والانس تبكي ولهأ
والجن تسعد من سمر
والوحش تبكي شجوها
لما اتى عنه الخبر
الميدرة الفياض يحمل
عن عشيرته الكبير
يعطى الجزيل ولا يمن
وليس شيمته العسر
ويلي عليه ويلية
اصبحت حصني منكسر

وانشدت القصيدة التالية ، وهي تصور شدة جزعها وشجنها ،
وتصف ندب النوادب ونواح النائح اللائي يشاركها حزنها على فقد
اخي الندى والخير والشيم الصوالح :-

يا عين جودي بالدموع المستهلات السوافح^(١٢)
فيضا كما فاضت غروب المترعات من النواضح

(١٢) الدموع المستهلات السوافح : الدموع السائلة المنهملة .

وابكى لصخر اذ نوى بين الضريحة والصفائح (١٣)
 رسا لدى جدث تذيع بربه هوج النوافح
 السيد الجججاج وابن السادة الشم الججاج (١٤)
 الحامل الثقل المهم من الملمات الفوادح
 الجابر العظم الكسير من المهاصر والمناح (١٥)
 الواهب المثة الهجان من الخنازيد السوابح (١٦)
 الغافر الذنب العظيم لذى القرابة والمالح
 بعمد منه وحلم حين يغى الحلم راجح
 ذاك الذي كتبا به نشفى المراض من الجوانح
 ويرد بادرة العدو ونخوة الشنف المكاشح (١٧)
 فصابنا ريب الزمان فالتنا منه بنطح
 فكأنما أمَّ الزمان نحورنا بمدى الذبائح
 فساؤنا يندبن نوحا بعد هادية النوائح
 يحزن بعد كرى العيون حين والهمة قوامح (١٨)
 شعنت سواحب لاينين اذا ونى ليل النوائح
 يندبن فقد أخى الندى والخير والشيم الصوالح

(١٣) الضريحة : القبر • الصفائح : حجارة رقيقة لتسقيف القبور •

(١٤) الجججاج : السيد المسارع الى المكارم •

(١٥) المهاصر : المفترس • المناح : المعطاء •

(١٦) الخنازيد : الابل الطويلة • السوابح : السائرة بسرعة وكانها

تسبح •

(١٧) الشنف : المفيض • المكاشح : المعادى •

(١٨) القوامح جمع قامحة : وهي الناقة التي ترفع رأسها عند شرب

الماء ، وتمتنع عن الشرب ربا •

والجود والأيدي الطوال المستفيضات السوامح
فالآن نحن ومن سوانا مثل اسنان القوارح
وقالت تصور جزع بني عمرو على الفقيد وتصف كيف بلت
دموعهم لحاهم :

بكت عيني وعاودها قذاها بعوار فما تقضى كراها^(١٩)
على صخر واي فتى كصخر اذا ما الناب لم ترام طلاها^(٢٠)
لئن جزعت بنو عمرو عليه لقد رزئت بنو عمرو فتاها
له كف يشد بها وكف تُحَلِّبُ ما يجف ثرى نداها
تسرى الشم الججاج من سليم يبلُ ندى مدامعها لحاها
على رجل كريم الخيم اضحى بطن حفيرة صخب صداها^(٢١)
ليبك الخير سخرا من معدٍ ذوو احلامها وذوو نهاها^(٢٢)
وقالت ايضا :-

مرهت عيني فعيني بعد صخر عطفه^(٢٣)
فدموع العين مني فوق خدي وكفه^(٢٤)
طرفت حنْدُرُ عيني بعيكِ ذرفه^(٢٥)
ان نفسي بعد صخر بالبردى معترفه

-
- (١٩) القذى : ما وقع في العين من قشه وغيرها • العوار : الرمذ •
(٢٠) الناب : الناقة • ترام : تعطف على • طلاها : ولدها •
(٢١) الخيم : الطبيعة والسجية •
(٢٢) الحلم والنهى : العقل •
(٢٣) مرهت : خلعت من الكحل • عطفه : مشفقه •
(٢٤) وكفه : جاريه وسائلة •
(٢٥) حندر العين : حدقة العين •

وبها من صخر شيء" ليس يُحكى بالصفه
وبنفسه لهموم" فهي حرى اسفه
وبذكرى صخر نفسي كل يوم كلفه

لقد كانت الخنساء الشادية الحزينة ، والغريدة الباكية ، فالحزن
مصدر الهامها ، وفقداء اخاها الاعز أس² بلائها . وكانت جل قصائدها
تتمص نواحا لتلك الحادثة التي تركت في نفسها اعظم الاثر .

ولقد ظفرت الخنساء بتقدير النقاد ، ولا تزال حتى اليوم موضع
الغاية والتقدير . فلقد حضرت سوق عكاظ وقارعت فحول الشعراء وامراء
البيان ، فلمست آثار مجدها .

ولقد جاءت الموسم يوما ، وقد جلس « النابغة الذبياني » للحكم بين
الشعراء ، فانشدته بعض قصائدها في رثاء اخيها صخر . وكان قد سبقها
في تلاوة ما لديهم الكثير من الشعراء منهم الاعشى وحسان بن ثابت . فقال
لها النابغة : والله لولا ان ابا بصير (الاعشى) سبقك فانشدني آفا ، لقلت
انك اشعر من بالموسم . ففضب حسان من قوله . وهذا الحكم الصادر من
عميد الشعراء الذي اختاره العرب ليكون حكما بين الشعراء في مكة لجدير
بأن يكسب الخنساء منزلة رفيعة في عالم الشعر في العهد الجاهلي .

ويروى ان عبدالمك بن مروان سأل الشعبي في مجلس له : اي نساء
الجاهلية اشعر ؟ فقال الشعبي : الخنساء . فسأله عبدالمك : ولم فضلتها على
غيرها ؟ قال : لقولها :-

وقائلة والناس قد فات خطوها
لتدركه : يالهف نفسي على صخر
الا نكلت ام الذين غدوا به
الى القبر ، ماذا يحملون الى القبر !

وذكروا ان جريرا سئل : من اشعر الناس ؟

قال : انا ، لولا الخنساء .

فسألوه : بم فضلتك ؟

اجاب : بقولها :

ان الزمان وما تنفى عجائبه

ابقى لنا ذنبا واستوصل الراس

ابقى لنا كل مجهول وفجعا

بالحالمين فهم هام وأرماس^(٢٦)

ان الجديدين في طول اختلافهما

لا يفسدان ، ولكن يفسد الناس

وكان بشار يقول : كل اشعار النساء تسم بالضعف والانوثة .

ف قيل له : وما قولك بالخنساء ؟

قال : لا . . . تلك فاقت الفحول من الرجال .

وحدثوا ان « المفضل الضبي » دعى يوما الى مجلس المهدي ،

فسأله الخليفة : يا مفضل ، ما افخر بيت قالته العرب ؟

اجاب الضبي : قول الخنساء :

وان صخرًا لتأتّم الهداة به

كأنه علم في رأسه نار

فاستوى الخليفة جالسا واوما الى شخص كان في المجلس ، وقال

(٢٦) الهام : الجثث . الارماس : القبور .

للضبي : قد قلت لهذا ما قلت ، فأبى علي ...

قال الضبي : الصواب معك يا أمير المؤمنين ...

ولقد ظلت الخنساء على مر الدهور والعصور متبوءة منزلة رفيعة في عالم الشعر ، ومكاتها بين فحول الشعراء مرموقة .



والخنساء تعتبر من طبقة المخضرمين من الشعراء الذين عاصروا

• الجاهلية والاسلام

فلما فاض نور الاسلام على ارجاء الجزيرة العربية ، ونادى البشير بانباتق دين جديد يحمل تحت رايته الخفاقة الخير والصلاح جاءت الخنساء مع قومها بني سليم في السنة الثامنة للهجرة فبايعت الرسول بيعة النبوة ، فاستشدها شعرها في صخر ، فاشدته وهو يصغي اليها ويستزيدها قائلاً :
هيه يا خنساس ..

ولم يلمها الرسول الكريم او يزرها على استمرارها على حال

• الجاهلية بالرغم من ان في الاسلام سلوة عمن فقدت .

وقد جاءت الخنساء مرة الى ام المؤمنين عائشة وقد وصلت من العمر عتياً ، وهي تدب من الكبر على عصا . فاستقبلتها عائشة بحفاوة وتكريم وقالت لها :

- اخناس !

فاجبتها الشيخة الكريمة :

- لييك يا ام المؤمنين ...

قالت :

- اتلبسين الصدر ، وقد نهى الاسلام عنه ؟ قبض رسول الله فما
لبست هذا •

فخفضت الخساء رأسها وتنهدت وهي تجيب •

- لم اعلم بنهيه !

فكفت عائشة عن لومها وسألتها :

- ما الذي بلغ بك ما ارى ؟

اجابت وهي تشهق بدمعها :

- موت اخي صخر •

ثم انتت تقص عليها ما كان من كريم صناعه وطيب شمائله ، وتحديثها
عن قصة « الصدر » الذي لبسته منذ مات ، مصداقا لقوله فيها :

ولو هلكت مزقت خمارها واتخذت من شعر صدرها

ولست الحزينة صدرها ، ثم رفعت رأسها الى ام المؤمنين قائلة :

- « والله لا اخلف ظنه ، ولا اكذب قوله ما حييت ! فان يكن الاسلام

قد نهى عن مثل هذا ، فرحمة الله واسعة ! » •

ولقد شاهدها يوما امير المؤمنين عمر بن الخطاب في البيت الحرام

وهي تطوف في صدرها الفاجع ، مقرحة الجفنين ، حليقة الشعر ، لا تكف

عن النواح ولطم الخدود ، وقد علقت نعل صخر في خمارها • فاراد امير

المؤمنين ان يخفف من بلوائها وان يأخذها بالصبر فوعظها • فقالت : اني

رزئت فارسا لم يرزأ احد مثله •

فقال : ان في الناس من هو اعظم مرزومة منك ، وان الذي تصنعين

ليس من الاسلام ، فالاسلام لا يجيز لطم الوجه وكشف الرأس ، وان

الذين تبكين هلكوا في الجاهلية وهم حشو جهنم •

قالت : ذلك ادعى لحزني ، واني كنت ابكيهما من النار ، فاليوم
ابكيهما من النار .

ثم انشدت :

أريقى من دموعك او أفيقي وصبرا ، ان أطقت ، ولن تطيقي
وقولي ان خير بني سليم وفارسهم بهجاء العقيق
واني والبكا من بعد صخر كسالكة سوى قصد الطريق
فلا وأبك ما سليت صدري بفاحشة آتت ولا عقوق
ولكني وجدت الصبر خيرا من النعلين والرأس الحليق
ألا هل ترجعن لنا الليالي وایام لنا بلوى الشقيق
الا يا لهف نفسي بعد عيش لنا بندي المخبم والمضيق

الى آخر القصيدة

فلما سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انشادها تأثر لحالها تأثرا
بليغا وقال :

« دعوها . فانها لا تزال حزينه ابدًا ! »

نعم لقد اقسمت الخساء ان لا تنزع عنها ثوب الحداد ابدًا ، وان
لا ترثي من بعد صخر احدا . ومثل الخساء لا تحث بقسم . فلم ترث
اولادها الاربعة الذين لا قوا حتفهم جميعا في وقعة القادسية ، والذين قضت
ليلة كاملة قبل رحيلهم توصيهم بالصبر والاقدام على الجهاد ، وتغريهم
بمجد الاستشهاد ، قائلة : -

« يا بني انكم اسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، وانكم
لبنو اب واحد وام واحدة ، ما خنت اباكم ، ولا فضحت اخوالكم ،
ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم . وقد تعلمون ما اعد الله تعالى
للمؤمنين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين . واعلموا ان الدار الآخرة

خير من الدار القانية • يقول الله عز وجل : « يا ايها الذين آمنوا اصبروا
وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ... فاذا رأيتم الحرب قد
شمرت عن ساقها ، فمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها
تظفروا بالغمم والكرامة في دار الخلد والمقامة » •

فقاتل اباؤها في المعركة وابلوا بلاء حسنا حتى استشهدوا جميعا ،
ولما وصلها نعيم ، قالت : « الحمد لله الذي شرفني بموتهم ، وارجو ان
يجمعني بهم في مستقر رحمته » •

فأعطاه عمر ارزاق اولادها طيلة حياته •



واليكم بعض مختارات من قصائدها في رثاء صخر • وهذه القصيدة
التي انشدتها التابعة الذبياني في سوق عكاظ ففضلها على جميع من حضر
السوق من الشعراء الا الاعشى :-

قذى بعينك أم بالعين عُوَّار
أم ذرَّفت اذ خلت من اهلها الدار
كأن عيني لذكراه اذا خطر
فيضٌ يسيل على الخدين مدرار
تبكي لصخر هي العبرى وقد ولت
ودونه من جديد الترب استار
تبكي خناس فما تفك ما عمرت
لها عليه رنينٌ وهي مفتار^(٢٧)

(٢٧) المفتار : المقصر •

تبكي خناس على صخر وحق لها
اذ رايها الدهر ، ان الدهر ضرار
لا بد من مية في صرفها عبر
والدهر في صرفه حول واطوار
قد كان فيكم ابو عمرو يسودكم
نعم المعمر للداعين نصار
صلب النجيزة وهاب اذا منعوا
وفي الحروب جريء الصدر مهصار (٢٨)
وان صخرا لوالينا وسيدنا
وان صخرا اذا تشتمو لنحار
وان صخرا لمقدام اذا ركبوا
وان صخرا اذا جاعوا لعقار
وان صخرا لتاتم الهداة به
كأنه علم في رأسه نار
جلد ، جميل الحيا ، كامل ، ورع
وللحروب غداة الروع مسعار
حمل الوية ، هباط اودية
شهاد أندية ، للجيش جرار
نحار راغية ، ملجاء طاغية
فكاك عانية ، للعظم جبار

(٢٨) النجيزة : الطبيعة • المهصار : الذي يدق الاعناق •

فقلت لما رأيت الدهر ليس له
معاتب وحده يسدى ويسار

لقد نعى ابن نهيك لي اخا ثقة
كأنت تُرَجِّمُ عنه قبل اخبار

فبت ساهرة للنجم ارقبه
حتى اتى دون غور النجم استار

لم تره جارة يمشي بساقتها
لريبة حين يخلى بيته الجار

ولا تراه وما في البيت يأكله
لكنه بارز بالصحن مهمار^(٢٩)

ومطعم القوم شحما عند مسغهم
وفي الجدوب كريم الجد ميسار^(٣٠)

قد كان خالصتي من كل ذي نسب
فقد اصيب فما للعيش اوطار

مثل الرُدَيْنِي لم تفد شيبته
كأنه تحت طي البُرد اسوار

جهم المحيا تضيء الليل صورته
أباؤه من طوال السمك احرار^(٣١)

(٢٩) المهمار : الكثير الكرم والجود .

(٣٠) ميسار : ذو غنى ويسار .

(٣١) جهم المحيا : عابس الوجه . السمك : القامة .

مُورَثَ المجد ميمون نقيته
 ضخم الدسيعة في العزاء مغوار
 فرع لفرع كريم غير مؤتسب
 جلد المريرة عند الجمع فخار^(٣٢)
 في جوف لحد مقيم" قد تضمنه
 في رسمه مقمطرات واحجار^(٣٣)
 طلق اليدين لفعل الخير ذو فجر
 ضخم الدسيعة بالخيرات أمار^(٣٤)
 ليكه مقتر" افنى حريته
 دهر" وحالفه بؤس واقار
 ورفقة حار حاديهم بهلكه
 كأن ظلمتها في الطخية العار^(٣٥)
 لا يمنع القوم ان سالوه خلغته
 ولا يجاوزه بالليل مرّار
 وقالت ايضا في رثاء صخر :-
 اعني هلا تبكيان على صخر
 بدمع حثيث لا بكى ولا نزر^(٣٦)

(٣٢) مؤتسب : المخلوط النسب • المريرة : ابرام الرأى •

(٣٣) المقمطرات : صغار الحجر والعظام •

(٣٤) ذو فجر : المتفجر بالمعروف • الدسيعة : العطاء •

(٣٥) الطخية : الغيم الرقيق الذي يخفى النجوم •

(٣٦) الحثيث : الغزير • بكى • ونزر : القليل •

وتستفرغان الدمع او تذرِيَانِه
على ذى الندى والجود والسيد الغمر

✽

وقائلة والنعمش قد فات خطوها
لتدركه : يا لهف نفسي على صخر

الا تكلت أم الذين مشوا به
الى القبر ، ماذا يحملون الى القبر !

وماذا يوارى القبر تحت ترابه
من الخير ، يا بؤس الحوادث والدمر

ومر الحزم في العزاء والجود والندى
غداة يرى حلف اليسارة والعسر

لقد كان في كل الامور مهذبا
جليل الايادي ، لا يُنْهِنُهُ بِالزَجْر

وان تلقه في الشرب لا تلق فاحشا
ولا ناكسا عقد السرائر والصبر

فلا يُبْعَدَنَّ قَبْرَ تَضَمَّنَ شَخْصَه
وجاد عليه كلُّ واكفة القطر

وقالت فيه :

ما بال عينك منها دمعا سرب
اراعها حزن^{٣٧} ام عاها طرب^(٣٧)

(٣٧) سرب : سائل . عاها : زارها . طرب : حزن .

ام ذكر صخر بُعِيدَ النوم هيجها
 فالدمع منها عليه الدهر ينسكب
 يا لهف نفسي على صخر اذا وكبت
 خيل لخيّل تنادي نم تضطرب
 قد كان حصنا شديد الركن ممتعا
 ليثا اذا نزل الفتيان أو ركبوا
 اغر ، ازهر ، مثل البدر صورته
 صاف ، عتيق ، فما في وجهه ندب
 يا فارس الخيل اذ شدت رحائلها
 ومطعم الجوع الهلكي اذا سغبوا
 كم من ضرائك هلاك وارملة
 حلوا لديك فزال عنهم الكرب
 سقيا لقبرك من قبر ولا برحت
 جود الرواعد تسقيه وتحتل^(٣٨)
 ماذا تضمن من جود ومن كرم
 ومن خلائق ما فيهن مقتضب
 وقالت تجيب اولئك الذين نصحوها بالتصبر والسلوان :-
 ضاقت بي الارض وانقضت مخارمها
 حتى تخاشعت الاعلام والييد
 وقائلين تعزى عن تذكرد ،
 فالصبر ! ليس لأمر الله مردود

(٣٨) الجود : الغيث • الرواعد : السحاب المرعد • (٧٧)

يا صخر قد كنت بدرا يستضاء به
فقد نوى يوم مت المجد والجود
فاليوم امسيت لا يرجوك ذو أمل
لما هلكت وحوض الموت مورود
وربّ تغر مهول خضت غمرته
بالمقربات عليها القية الصيد
نصبت للقوم فيه فصل اعينهم
مثل الشهاب وهي منهم عباديد (٣٥)

وقالت :

يا عين جودي بدمع منك مدرار
جهد العويل كماء الجدول الجاري
وابكى اخاك ولا تسي شمائله
وابكى اخاك شجاعا غير خوار
وابكى اخاك لايتام وارملة
وابكى اخاك لحق الضيف والجار
جم فواضله تدي انامله
كالبدر يجلو ولا يخفى على الساري
رواد عارية فكاك عانية
كضيغم باسل للقرن هصار
جواب اودية حمال الوية
سمح الدين جواد غير مقتار

(٣٩) وهي : ضعف . العباديد : الفرق من الناس .

وقالت :-

يا عين ابكى على صخر لأشجان
وهاجنس في ضمير القلب خزان
انني ذكرت ندى صخر فهيجني
ذكر الحبيب على سقم واحزان
فابكى اخاك لايتام أضر بهم
ريب الزمان ، وكل الضر يغشاني
وابكى المعمم زين القائدين اذا
كان الرماح لديهم خَلَجَ اشطان
وابن الشريد فلم تبلغ ارومته
عند الفخار لقرم" غير مهجان" (٤٠)
لو كان للدهر مال عند ملده
لكان للدهر صخر" مال فيان
أبى الهزيمة آت بالعزيمة متلاف
الكريمة ، لا نكس" ولا وان" (٤١)
حامي الحقيقة بسال الوديقة معتاق
الوسيقة ، جلد" غير ثنيان" (٤٢)

(٤٠) الارومة : الحسب والاصل . مهجان : لثيم .

(٤١) الهزيمة : الظلم . الكريمة : خيار المال . النكس : الجبان .
الواني : الضعيف .

(٤٢) بسال الوديقة : الذي يحمي الدمار . معتاق الوسيقة : من
اعتق عبدة او اسيرة . ثنيان : من لا عقل له ولا رأى .

طلاع مرقبة ، مناع مغلقة
وراد مشربة قطاع اقران

شهاد أندية حمال الوية
قطاع اودية سرحان قيعان

يحمى الصحاب اذا جد الضراب
ويكفى القائلين اذا ما ليل الهاني

ويترك القرن مصفرا انامله
كأن في ريطيه نضح أرقان

بعطيك ما لا تكاد النفس تسلمه
من التلاد وهوب غير منان

وقالت في صخر ، وهي تحاول التوفيق بين قلبها المفجوع وبين ايمانها

الجديد :

كل يوم ينال منا شريفا	مالذا الموت لا ينزال مخيفا
الا المهذب الغطريفيا (٤٣)	مولعا بالسراة منا ، فما يأخذ
فتنال الشريف والمشروفا	فلو ان المنون تعدل فينا
وأن لا نسومه تسويفا	كان في الحق أن يعود لنا الموت
لألفيته نقيما عفيفا	ايها الموت لو تجافيت عن صخر
فيما ويبذل المعروفا	عاش خمسين حجة ينكر المنكر
وسقى قبره الربيع خريفنا	رحمة الله والسلام عليه

ولقد اقسمت الخساء ان تهدي قصيدة لصخر في كل مجمع ، حيث

تقول :

(٤٣) الغطريف : السيد .

واقسمت لا انفك اهدى قصيدة لصخر أخي المفضل في كل مجمع
فدتك سليم : كهلها وغلماها وجدعَ منها كل انف وسمع
وقالت ترثي اخويها صخرا و معاوية ، وهي من القصائد التي قيلت
بعد الاسلام :

ارى الدهر افنى معشري وبنى ابي فامسيت عبري لا يجف بكائيا
ايا صخر هل يعنى البكاء او الاسى على ميت بالقبر اصبح ناويا
فلا يبعدن الله صخرا وعهده ولا يبعدن الله ربي معاويا
ولا يبعدن الله صخرا ، فانه اخو الجود ، يبنى للفعال العواليا
سأبكيهما والله ماحن واله وما اثبت الله الجبال الرواسيا
سقى الله ارضا اصبحت قد حوتهما من المستهلات السحاب الغواديا

وقد ذكرها صباح الديك صخرا ، فانشدت :-

الا ايها الديك المنادي بسحرة هلم كذا اخبرك ما قد بدا ليا
بدا لي اني قد رزئت بفتية بقية قوم اورثوني المباكيا
فلما سمعت النائحان ينحنه تعزيت واستيقنت أن لا أخا ليا
كصخر بن عمرو خير من قد علمته وكيف أرحم العيش؟ ضل ضالبا!
وما لي لا ابكي على من لو انه تقدم يومي قبله لبكى ليا
وان تمس في قيس وزيد وعامر وغسان لم تسمع له الدهر لاحيا

وقالت :-

اعنى جودا ولا تجمدا الا تبكيان لصخر الندى !
الا تبكيان الجريء الجميل الا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العماد ساد عشيرته امردا

إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
فقال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مُصْعِداً
يكلفه القوم ما عا لهم وإن كان أصغرهم مولداً
تسرى المجد يهوى إلى بيته يرى أفضل الكسب أن يحمداً
وإن ذكر المجد أفضيه تَأَزَّرَ بالمجد ثم ارتدى

وقالت ، وهي تبرر شدة حزنها وتستحسن طول بكائها على أخيها
صخر :

الا يا صخر إن ابكيت عيني لقد اضحككتي دهرا طويلا
بكيتك في نساء معولات وكنت أحق من أبدى العويلا
دفعت بك الجليل وانت حي فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
إذا فبح البكاء على قبيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وقالت في صخر ، وهي من غرر قصائدها؛ وهي تسم بحلاوة اللفظ ،
ورشاقة الروى ، وجزالة التركيب :-

يؤرقني التذكر حين امسي فأصبح قد بليت بفراط نكس (٤٤)
على صخر ، وإي فسي كصخر ليوم كرهية وطعان جلس
ولللخصم الألد إذا تعدى ليأخذ حق مظلوم بقس
فلم أر مثله رزءاً لجن ولم أر مثله رزءاً لانس
أشد على صروف الدهر أيذا وافصل في الخطوب بغير لبس
وضيف طارق أو مستجير يروء قلبه من كل جرس (٤٥)
فاكرمه وأمنه فأمسي خليا باله من كل بؤس

(٤٤) النكس : عود المرض بعد الشفاء .

(٤٥) الجرس : الصوت الخفي .

يذكرني طلوع الشمس صخرا
ولولا كثرة الباكين حولي
ولكن لا ازال ارى عجولا
أراها والهها تبكي اخاها
وما يكون مثل اخي ولكن
فلا والله لا انساك حتى
فقد ودعت يوم فراق صخر
فيا لهفي عليه ولهف امي ،

واذكره لكل غروب شمس
على اخوانهم لقتلت نفسي
وباكية توح ليوم نحس
عشية رزئه أو غب أمس
أعزى النفس عنه بالتأسي
افارق مهجتي ويشق رمسي
ابي حسان لذاتي وانسي
أصبح في الضريح وفيه يمسي ؟

الفضل

في سفر عمر بن أبي ربيعة

عمر بن أبي ربيعة ، ويكنى ابا الخطاب ، وابوه عبدالله بن ربيعة من اعيان قريش وساداتها . كان ذا تجارة كبيرة وذا ثراء عظيم ، وقد بلغ من غناه ان كانت قريش تكسو الكعبة من مالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، لذا فقد اطلق عليه لقب « العِدْل » . فاريده بذلك انه وحده يعادلهم جميعا .

عينه النبي محمد (ص) عاملا على الجند ومخالفها في اليمن وبقي فيها حتى خلافة عثمان .

وقد ولد لعبدالله ولد ليلة قتل عمر بن الخطاب ، فسماه عمر .
لذا فقد قيل : « اي حق رفع ... واي باطل وضع ؟! » .

نشأ شاعرا ناضجا في بيت بلغ من الغنى والجاه العريض ذروته ، فترعرع وهو يتقلب في بحبوحة من العيش الرغيد يحف به الخدم والحشم والدايات ، يسكن القصور التي تضم بين جدرانها وسائل الترف كاملة ، ويلبس البرود اليمانية الغالية ، ويمتطي العتاق من الخيل وقد زينت بانواع الحلى من الفضة والذهب ، ويسير في كوكبة من عبيده واتباعه .

وكان عمر فتى وسيم الطلعة جميل المحيا ، يرجل لفته ، ويتعطر بانفس العطور . لذا فلم يكن له عمل سوى اغتراف جامات اللهو والمتعة وكرعها مترعة ، خصوصا وكانت بيثة الحجاز والمدينة خاصة مليئة بالترف

وجامعة اسباب الموهو من جمال وغناء وغزل وفكاهة • وكان مطمح انظار
الغانيات اللواتي كن يشتقن اليه قبل اشتياقه اليهن ، ويعجبين به قبل اعجابهن
بهن ، لهذا فقد اتجه اتجاها في غزله جعل من نفسه محورا لتلك المغامرات
كما قال :-

وقلت لها خذي حذرك	لقد ارسلت جاريتي
لزيب نولي عمرك	وقولي في ملاطفة
وقالت من بدأ امرك	فهزت رأسها عجبا
ن قد خبرتني خبرك	اهذا سحرك النسوا
وادرك حاجة هجرك	وقلن : اذا قضى وطرا

وكما قال :-

صباه ولم يكن ظهرا	صايب القلب وادكرا
صفاء لم يكن كدرا	لزيب اذ تجد لنا
لمولاة لها ظهرا	اليسيت بالتي قالت
اذا هو نحونا خطرا	أشيري بالسلام له

*

والغزل في الشعر الاموي على نوعين : العذري ، والاباحي • اما الغزل
العذري فقد حمل لواءه شعراء البداوة ، يعشق الرجل منهم امرأة بعينها
فتمتلك عليه نواحي نفسه وتسلبه له ، فتنفجر عواطفه المنتهبة
اشعارا في وصف حبيبته والتشبيب بها • وهذا الشعر يتسم بحرارة الوجدان
وطهارة اللسان والابتعاد عن ذكر خلوة او افحاش في وصف • وكان جميل
وقيس بن الملوح زعيمى هذه الطبقة ، فشد الاول بذكر بشنة وتعنى الثاني
باسم ليلي • واليكم مقطوعة لجميل ويلاحظ منها قناعته بالنظرة العجلى من
حبيبة قلبه مرة في العام ، ولا يمني نفسه باكثر من ذلك • قال :-
واني لأرضى من بشنة بالذي لو اصره الواشي لقرت بلابله

بلا ، وبألا استطيع وبالنسى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى واوائله



اما الغزل الاباحى في العهد الاموي ، وهو غزل الحضارة ، فقد حمل
رايته زعيم الغزلين عمر بن ابي ربيعة • فحياة الترف والنعيم التي عاشها ،
وخلو حياته من مشاغل الدنيا ، وغناه عن التكسب شعره جعلته ينغمس
حتى الذقن بحياة اللهو والمرح فنخضع للجمال ، وعبدالجمال ، ووقف
حياته للتعني بالجمال واصحابه ، واسر فؤاده كل جميل • (قيل) كان
عمر يساير عروة بن الزبير ويحادثه فقال له : واين زين المواكب ؟
(وعنى بذلك ابنه محمد بن عروة ، وكان يسمى بذلك لجماله) ، فقال
عروة : هو أمامك • فركض عمر يطلبه ، فقال له عروة : يا ابا الخطاب
أو لسنا اكفاء كراما لمحادثتك ومسايرتك ؟ فقال عمر : بلى بأبي انت وامى ،
ولكن :

انى امرؤ مولع بالحسن اتبعه لاحظ لي منه الا لذة النظر

(وقال) اسحاق ، حدثني مصعب بن عروة بن الزبير ، قال : خرجت
انا واخي عثمان الى مكة معتمرين ، فلما طفنا بالبيت مضينا الى الحجر
نصلى عنده ، فاذا شيخ قد فرّج بيني وبين أخي ، فوسعنا له ، فلما فضى
صلاته اقبل علينا فقال : من انتما ؟ فاخبرناه ، فرحب بنا وقال : يا ابني
أخي - اني امرؤ موكل بالجمال اتبعه ، وانى رأيكما فراقني حسنكما
وجمالكما ، فاستمتعا بشبابكما قبل ان تندما عليه ، ثم نهض وانصرف •
فسألنا عنه فاذا هو عمر بن ربيعة •

ولقد استباح عمر ومن هم من طبقته من الشعراء الغزلين الحضاريين
ما لم يستبحه اصحاب الغزل العذري • فالمتشبيب بها عندهم غير واحدة ،

بل عديدات • فللشاعر في كل يوم غزوة ، وفي كل يوم نزوة ، فيصف
مغامراته وخلواته بهن ، بل لقد يبرز محبوبته محبة ، ومعشوقته عاشقة ،
فهي تراسله وتستزيره وتحال لمصيره • ولم يكن العرب يعرفون هذا
النوع من الغزل سابقا ، لذا فقد حملوا عمر لواءه ، وجعلوه زعيم كل من
اتبع خطاه في هذا السبيل من الشعراء • وقد ساعده نسبه ونسبه وشبابه
وترفه على ان يقول في ذلك ما لم يجروا احد على قوله • فسلك مسلك
القصص : يصف النساء وتزاورهن واحاديثهن ومداعبة بعضهن البعض
الأخر • ويروى مجالسته اياهن ، واشباع نهم نفسه من محاسنهن
ومقاتتهن ، وارواء ظمأ روحه بمواصلتهن ومحادثتهن • فهو يتنقل من
الثريا بنت علي ، الى عائشة بنت طلحة ، الى سكينه ، فزينب ، ونعم ،
وفاطمة بنت عبدالمك ، ورملة ، ولبابه ، والرباب ، وهند ، واسماء • كل
ذلك بلفظ رشيق واسلوب عذب مبتكر ، فبهر الناس ، واولع به المغنون ،
وشغف به الندمان والقيان ، وهام اعجابا بشعره القتيان والشبان ، حتى
ضج الغاري والزهاد ، فقال ابن جرير : « ما دخل الغواني في خدورهن
اضر عليهن من شعر ابن ابي ربيعة • • • »

ويقال ان جريرا والفرزدق وغيرهما من فحول الشعراء لم يابها
في بادىء الامر بشعر ابن ابي ربيعة ، وقد يكون السبب ابتعاده عن الشعراء
ولم يكن له معهم حديث طويل ، وليس له بهم اجتماع في سوق او عند
امير ، انما كان مجلسه يضم المعجبين بشعره من المغنين ، والفتيان الناشئين
على نهجه في التدله بالجمال والغرام لربات الحجال • ولكن جريرا لما
سمع رائيته التي مطلعها :-

أمن آل نعم انت غداد فمبكر غداة غدام رائح فمهجور

اعجب بها كل الاعجاب وقال : « ما زال هذا القرشي يهذى حتى
قال الشاعر ! وقال الفرزدق في شعر عمر » هذا والله الذي ارادته الشعراء

فأخطأته وتعللت بوصف الاطلال والديار ! .. »

ولقد وصف مصعب بن عبدالله الزبيري شعر عمر بما يأتي :-

« راق عمر بن ابي ربيعة الناس ، وفاق نظراءه ، وبرعهم بسهولة
الشعر ، وشدة الأسر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، وصواب المصدر ،
والقصد للحاجة ، واستطراق الربع ، وانطراق القلب ، وحسن العراء ،
ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، واثبات الحجّة ، وطلاوة
الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ... وكان بعد هذا كله فصيحاً .
فمن سهولة شعره وشدة أسره قوله :-

فلما توافينا وسلمت اشرفت وجوه زهاها الحسن ان تقنعا
تبالهن بالعرفان لما رأيتني وقلن : امرؤ باغ أكل واوضعا
ومن حسن وصفه قوله :-

لها من الريم عيناه وستته وعزة السابق المختال اذ سهلا
ومن دقة معناه وصواب مصدره قوله :-

عوجا نحى الطلل المحولا والربع من اسماء والمنزلا
بسايع البوباة لم يعدّه تقادم العهد بان يؤهلا
ومن انطاقه القلب قوله :

قال لي عتيق مقالا فجرت مما يقول الدموع
قال لي اودع سلمى ودعها فأجاب القلب : لا أستطيع .. »

وقال مصعب : « ان لشعر عمر لموقعا في القلب ، ومخالطة للنفس
ليسا لغيره ، ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحرا » .

* * *

ويفهم مما تقدم ان عمر لم يتطرق الى ابواب الشعر الاخرى غير
 الغزل الا لما • وتكاد لا تجد في ديوانه اية قصيدة تخلو من الغزل
 بالنسوان والتشبيب بهن • • فلقد اقتصر شعره على غرض واحد هو
 النسيب ، كما اقتصر شعر قيس بن الملوح على الغزل بليلي • ولم يعرف
 العصر الاموي كله شاعرا اجاد بوصف المرأة جملة وتفصيلا كما فعل
 عمر بن ابي ربيعة ، ولم يخطئ • نُصِيبُ حين قال : « لعمر بن ابي ربيعة
 اوصفنا لربات الحجال » •

ولم يكن حب عمر عذريا ، بل كان حسيا ، وانه « يلتمس الحب
 في الارض لا في السماء » كما قال فيه عميد الادب العربي طه حسين •
 قال عمر في « الثريا » التي كان يتعشقها :-

ابرزوها مثل المهاة تهادي	بين خمس كواعب اتراب
وهي مكنونة تحير منها	في اديم الخدين ماء الشباب
دمية عند راهب ذي اجتهاد	صوروها في جانب المحراب
ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا	عدد النجم والحصى والتراب
أذكرتني من بهجة الشمس لما	طلعت من دجنة وسحاب
فارحنت من حسن خلق عميم	تهادي في مشيها كالجباب
نصبتني مجاجة المسك عقلي	فسلوها ماذا أحل اغصابي
قلدوها من القرنفل والدر	ر سخاباً واهأ له من سخاب

وقال في نعم :-

أمن آل نعم انت غاد فمبكر	غداة غدا ام رايح فمهجر
لحاجة نفس لم تقل في جوابها	فتبلغ عذرا ، والمقالة تعذر
اهيم الى نعم : فلا التمثل جامع	ولا الجبل موصول ، ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم - ان دنت - لك نافع	ولا نأها يسلي ، ولا انت تصبر

واحرى انت من نور نعم ، ومثلها
اذا زرت نعمة لم يزل ذو قرابة
عزيز عليه ان ألم بيتهما
الكنى اليها بالسلام فانه
بآية ما قالت غداة لقيتها
قفي فانظري - اسما - هل تعرفينه
اهذا الذي اطريت نعتا فلم اكن
نقالت : نعم لا شك غير لونه
لئن كان اياه لقد حال بعدنا
رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت
اخاسفر ، جواب ارض ، تقاذفت
قليل على ظهر المطية ظله
واعجبها من عيشها ظل غرفة
ووال كفاها كل شيء يهملها
وليلة ذى دوران جشمي السرى
فبت رقيبا للرفاق على شفا
اليهم مني يستمكن النوم منهم
وبات قلوصي بالعرء ورحلها
وبت اناجي النفس اين خباؤها
فدل عليها القلب ريبا عرفتها

نهى ذا النهى لو يرعوى او يفكر
لها كلما لاقيتها يتمر
يسر لي الشحنة ، والبغض يظهر
يشهر المامي بها وينكر
بمدفع اكان : أهذا المشهر ؟
اهذا المغيرى الذي كان يذكر ؟
وعيشك اساء الى يوم اقبير ؟
سرى الليل يحي نضه والتهجرج
عن العهد ، والانسان قد يتغير
فيضحى ، واما بالعشى فيخسر
به قنوات ؟ فهو أشعث أغبر
سوى ما نفى عنه الرداء المحبب
وريان ملتف الحدائق اخضر
فليست لشيء آخر الليل تسهر
وقد يجشم الهول المحب المغرر
احاذر منهم من يطوف وانظر
ولي مجلس ، لولا اللبانة ، او عر
لطارق ليل او لمن جاء معور^(١)
وكيف لما آتى من الامر مصدر ؟
لها ، وهوى النفس الذي كاد يظهر^(٢)

(١) القلوص : الناقة الشابة . المعور : مكشوف ظاهر .

(٢) الريا : الرائحة الطيبة .

فلما فقدت الصوت منهم واطفئت
وغاب قمير كنت اهوى غيوبه
وحفّض عني الصوت اقبلت مشية ال
نحييت اذ فاجأتها ، فتولت ،
وقالت وعضت بالبنان : فضحتني
اريتك اذ هنا عليك الم تخف
ذوالله ما ادري : اتعجيل حاجة
فقلت له : بل قاذني الشوق والهوى
نقالت وقد لانت وأفرّخ روعها :
فانت ابا الخطاب ، غير مدافع ،
فبت قرير العين ، اعطيت حاجتي
نيسا لك من ليل تقاصر طوله
ويا لك من ملهى هناك ومجلس
يجع ذكى المسك منها مقبل
تراه اذا ما افر عنه كأنه
وترنو بعينها الى كما رنا
فلما تقضى الليل الاقله
اشـرت بان الحي قد حان منهم

مصايح شبت بالعشاء وانور^(٣)
ورواح رعيان ، ونوم سمر
حباب ، وشخصى خشية الحي ازور
وكادت بمخفوض التحية تجهر
وانت امرؤ ميسور امرك اعسر
وقيت ، وحولي من عدوك حُصّر؟
سرت بك ام قد نام من كنت تحذر؟
الك ، وما نفس من الناس تشعر
كلاك بحفظ ربك المتكبر^(٤)
علي امير ما مكث مؤمّر
اقبل فاهها في الخلاء فاكسر
وما كان ليلى قبل ذلك يقصر
لنا لم يكدره علينا مكدر
نقى الثنايا ذو غروب مؤشر
حصى برد او اقحوان منور
الى ظلية وسط الجميلة جوذر^(٥)
وكادت توالي نجمه تنفور^(٦)
هبوب ، ولكن موعد منك عزور^(٧)

(٣) الانور : جمع نار .

(٤) افرخ روعها : زال خوفها .

(٥) ترنو : تنظر . الخميطة : الشجر الكثيف . الجوذر : ولد البقرة

الوحشية .

(٦) تنفور : تغيب .

(٧) عزور : موقع قرب مكة المكرمة .

فما راعني الا مناد : ترحلوا
 فلما رأته من قد تبته منهم
 نقلت : اباديهم ، فاما افوتهم
 نقلت : اتحقيقا لما قال كاشح
 فان كان ما لا بد منه فغيره
 أقصُ على احتسَى بدء حديثنا
 لعلهما ان تطلبنا لك مخرجنا
 فقامت كئيبا ليس في وجهها دم
 فقامت اليها حرتان عليهما
 فقالت لاختيها : اعينا على نفسي
 فاقبلتا ، فارتاعتا ، ثم قلنا :
 فقالت لها الصغرى : سأعطيه مطرفي
 يقوم نيمشي بيننا متكرا
 فكان مجتبي دون ان كنت اتقي
 فلما اجزنا ساحة الحي قلن لي :
 وقلن : أهذا دأبك الدهر سادرا ؟
 اذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
 وقل ايضا في هند :-

قل للمليحة قد أبلتني الذكر
 فالدمع كل صباح فيك يتسدر

(٨) الكاعب : الجارية التي كعب ثديها ونهد . المعصر : الجارية
 المراهقة .

فلت قلبي وفيه من تعلقكم
ما ليس عندي له عدل ولا خطر

اناق اذ بخلت هند وما بذلت
ما كنت آمله منها وانتظر

وقد حذرت النوى ني قرب دارهم
فعل صبري ولم ينفعني الحذر

قد قلت اذ لم تكن للقلب ناهية
عنها تسلي ، ولا للقلب مزدجر :

يا ليتني مت اذ لم ألق من كلفني
مفرحاً وشآني نحوها النظر^(٩)

وشاقي موقف بالمروتين لها
والشوق يحدثه للعاشق افكر

وقولها لفتاة غير فاحشة :
ارائح ممسياً أم باكر عمر ؟

الله جاز له اما اقام بنا
وفي الرحيل اذا ما ضمه السفر

نجت امشي ، ولم يغف الاولي سمروا
وصاحبي هندواني به أتر

فلم يرعها وقد نضت مجاسدها
الا سواد وراء البيت يستتر^(١٠)

(٩) الكلف : الحب . شآني غلبنني وقهرني .

(١٠) نضت : نزع . مجاسدها : قمصانها التي تلي الجسد .

فُلطمت وجهها واستبتهت معها
 بفضاء آنسة من شأنها الخضر
 ما باله حين يأتي ، اخت' ، منزلنا
 وقد رأى كثرة الاعداء اذ حضروا
 لَشِقْوَة من شقائي ، اخت' ، غفلنا
 وشؤم جدي ، وحين ساقه القدر (١١)
 قالت : اردت بذنا عمدا فضيحتنا
 وصرم حبل وتحفيق الذي ذكروا
 هلا دست رسولا منك يعلمني
 ولم تعجل الى ان يسقط القمر
 فقلت : داع دعا قلبي فأرقه
 ولا يتابعني فيكم فينزجر
 فبت أنسى عتيق الخمر خالطه
 شهد مشار' ومسك' خالص' ذفير'
 وعبرَ الهندِ والكافورَ خالطه
 قرنفل' فوق رقرارٍ له أشر
 فبت الثمها طورا ، ويمنعني
 اذا تمايل عنه البرد والخضر
 حتى اذا الليل ولتي قالتا زمرا
 قوما بعشكما قد نورَ السحر

(١١) الحين : الهلاك .

نقمت امشي ، وقامت وهي فائرة
كشارب الخمر بطنا مشيه السكر
يسجن خلفي ذبول الخز آونة
وناعم العصب كيلا يعرف الاثر
وقال ايضاً : -

راح صجبي ، ولم أحيّ النوارا
وقليل لو عرجوا ان تزارا
تم اما يسرون من آخر اللب
ل ، واما يعجلون ابتكارا (١٢)
ولقد قلت حضرة البين اذ جـ
مدّ رجيل^١ وخفت ان استظارا
لخليل^٢ يهوى هواناً موات^٣
كان لي عند مثلها نظارا (١٣)
يا خليل^٤ أربعن^٥ عليّ ، وعينا
ي من الحزن تهملان ابتدارا
ها هنا فاجس البعيرين^٦ ، واحذر
زائدات العيون ان تستارا
انسي زائر^٧ قريبة^٨ ، قد يعـ
لم^٩ ربي ان لا اطيق اصطبارا

(١٢) يعجلون ابتكارا : يسرون مبكرين .

(١٣) موات : مسعف ومساعد .

قال : ففعل ، لا يمنعك مكاني
من حديث تقضى به الاوطارا
والتمس ناصحاً قريباً من الور
د ، يحس الحديث والخبارا
نبعثا مجرباً ، ساكن الري
ح ، خفيفاً ، معاوداً ، بطارا
فأناها ، فقال : ميعادك السر
ح إذا الليل سدال الأستارا
فكمننا حتى إذا فقد الصو
ت دجاً المظلم البهيم فحازا^(١٤)
قلت لما بدت لصحبي : اني
ارتجى عندها لدينى يسارا
ثم اقبلت رافع الذيل اخفى ال
سوطه ، اخشى العيون والنظارا
فالتقينا فرحبت حين سلم
ت وكفت دمعاً من العين مارا^(١٥)
ثم قالت عند العتاب : رأينا
فيك عنا تجلدا وازورارا
قلت : كلا ، لاه ابن عمك ، بل خف
نا أمورا كنا بها اغمارا

(١٤) كمننا : استترنا .

(١٥) كفت : منعت وحبست . مار الدمع : اضطرب في العين .

فجعلنا الصدود ، لما خشينا
قالة الناس ، بيننا استارا
وركبنا حالا لئلا نكذب عنا
قول من كان بالبنان اشارا
واقصرت الحديث دون الذي قد
كان من قبل يعلم الاسرارا
ليس كالعهد اذ عهدت ، ولكن
اوقد الناس بالاخاديت نارا
ما ابالي ، اذا النوى قربتكم
فدنوتم ، من حل او كان سارا
فالمبالي اذا نأيت طـوال
واراهما ، اذا دنوت ، فصارا
فعرفت القبول منها لعذري
اذ رأيتي منها اريد اعتذارا
ثم قالت وسامحت بعد منع
وارتني كفاً تزين السوارا
فتاولتها فمالت كفضن
حركه ربح عليه فخارا
واذاقت بعد العلاج لذينا
كجنى النحل شاب صرفا عقارا
ثم كانت دون اللحاف لمثغو
في معنى بها صوب شيعارا

واشتكت شدة الأزار من البه
ر ، والقت عنها لدى الخمارا

حبذا رجعتها اليها يديها
في يدي درعها تحل الأزارا

ثم قالت وبان ضوء من الص
بح منيراً للناظرين انارا :

يا ابن عمي فدنك نفسي ؛ اني
اتقي كاشحا اذا قال جارا

وقال ايضا :-

الا يا هند قد زودت قلبي
جوى حزنٍ تضمه الضمير

اذا ما غبت كاد اليك قلبي ،
فدنك النفس ، من شوق يطير

يطول اليوم فيه لا اراكم
ويومي عند رؤيتكم قصير

وقد افرحت بالهجران قلبي
وهجرك ، فاعلمي ، امر كبير

فديتك اطلقني حلي وجودي
فان الله ذو عفو وغفور

كان عمر يعتبر المرأة انسانة كالرجل لها عواطفها ولها غرائزها
ولها انفعالاتها ، ويتصورها مكملة للرجل وان جنسها هو النصف الثاني
للمجتمعات البشرية . كان يقدر في المرأة انوثتها ويعبد جمالها ويشدو

بفتتها وبهائها • وكان كل شيء في حياة عمر وسيلة الى الاتصال بالمرأة
 ووصف محاسنها والتحدث اليها ، فهو عنده وسيلة من تلك الوسائل اذ
 ينتهز عمر الفرص في مواسم الحج للترين والظهور باجمل صورة ،
 فيلاقي قوائل الحجاج وهي في طريقها الى مكة وتلمس انساء ويتسهن
 حتى اذا وصلت القوائل الى مكة المكرمة كانت عند عمر معلومات وافية
 عن اولئك اللاتي يستهدف الحصول منهن على لقاء او حديث • وكان
 له رسل يبثهم او يبثهن هنا وهناك للاتصال بالغيد الحسان يأتيه بالمواعد
 في مكة او في منى •

ولم يكن يقتصر على واحدة بل تجد عواطفه مقسمة على العديد من
 النساء في كل موسم حج ، منهن الحجازية ومنهن الشامية ومنهن العراقية •
 وفي انتهاء موسم الحج يشبعهن الواحدة بعد الاخرى • وكلما شبع احدهن
 قال فيها قصيدة لا تلبث ان تقع بايدي المغنين •

ولقد نظم القصيدة التالية في امرأة من ولد الاشعث بن قيس حجت
 فهويها وراسلها ودخل اليها وتحدث معها وخطبها ، فقالت : اما ههنا فلا
 سبيل الى ذلك ، ولكن ان قدمت الى بلدي خاطبا تزوجتك ، فلم يفعل •

تَشَطُّ غَدَاً دَارَ جِرَانِنَا

وللدار بعد غد ابعد (١٦)

اذا سلكت غمرذي كندة

مع الركب قصد لها الفرفد

وحث الحداء بها غيرها

سراعاً اذا ما وئت تطرد (١٧)

(١٦) تشط : تبعد •

(١٧) حث : ساق • العير : الابل • وئت : فترت •

هناك اما تعزى القوا
د ، واما على اثرهم تكلمد
فلمست بيدع ثمن دارها
نأت فالعزاء اذن اجلسد
صرمت وواصلت حتى عرف
ت اين المصادر والمورد
دعاني من بعد شيب القذا
ل ريم له عنق اغسيد (١٨)
وعين تصابي وتدعو الفتى
لما تركه للفتى ارشد
فلك التي شيعتها الفتاة
الى الخدر قلبي بها مقصد
تقول وقد جد من بينها
غداة غد عاجل موفد
الست مشيعنا ليلة
تقضى اللبانة او تعهد ؟
نقلت : بلى ، قل عندي لكم
كلال المطي اذا تجهد
فعودي اليها ، فقولي ،
مساء غد لكم موعد

(١٨) القذال : مؤخرة الرأس .

وآية ذلك ان تسمي
الينا ديلا بنا يقصد
فلما دنونا لجرس النباح
اذا الضوء والحى لم يرقدوا
ناينا عن الحى حتى اذا
تودع من نازها الموقد
وناموا ؛ بعثا لها ناشدا
وفي الحى بغية من يشد
فقامت ، فقلت : بدت صورة
من الشمس شيعها الاسعد
فجاءت تهادي على رقبة
من الخوف احشاؤها ترعد
وكفت سوابق من عبرة
على الخد جال بها الأمد
تقول وتظهر وجدا بنا
ووجدى لو اظهرت أو جد
لما شقائي تعلقكم
وقد كان لي عندكم مقعد
عراقية ونهامي الهوى
يفور بمكة او ينجد

وقال ايضاً :

يا مَنْ لقلب مقيم كلف

يهدي بخود مريضة النظر^(١٩)

تمشي الهوينا اذا مشت قطنا

وهي كمثل العسلوج في الشجر^(٢٠)

ما زال طرفي يحار اذ برزت

حتى رأيت النقصان في بحري

اجرتها ليلـة ونسوتها

يمشـين بين المقام والحجر

ما ان طمعنا بها ولا طمعت

حتى التقينا لـيلا على قدر

يضاً حسانا خرائدا قطنفاً

يمشـين هونا كمشـية البقر^(٢١)

قد فزن بالحسن والجمال معاً

وفزن رسلاً بالعدل والخفر

يُنصتـن يوماً لها اذا نطقـت

كما يشرفنها على البشر

قالت لتـرب لها تحدثها :

لتفسدن الطواف في عمر

(١٩) متيم : المغرم العاشق . الخود : المرأة الناعمة .

(٢٠) العسلوج : الغصن اللين الاخضر .

(٢١) الخرائد : الباكرات اللواتي لم يطمئن . القطف : ذوات السير

البطي .

قومي تصدي له ليعرفنا
ثم اغمز به يا اخت في خصر

قالت لها : قد غمزته فأبى
ثم اسبطرت تسعى على ائسرى

مَنْ يُسَّقْ بعد المنام ريقها
يُسَّقْ بكأس ذي لذة خَصِرِ

ومما تقدم من شعر يظهر مدة تأثير النساء والغيد الفاتنات بهذه
الحركة الغزلية ففتن بها ، وحرّضن عليها ، واجتهدن في تقويتها
وتذكية نازها ، وتبارين لكسب الخطوة عند الشعراء الغزلين وعلى رأسهم
عمر بن ابي ربيعة واغرائهم للتشبيب بهن .

اجتمع يوماً جميل وعمر بالابطح ، فاشد جميل قصيدته التي يقول
فيها :

لقد فرح الواشون ان صرمت حبل
بشنة او أبدت لنا جانب البخل

ثم قال لعمر : هل قلت في هذا الروي شيئاً؟ قال : نعم ، قال : فانشديه .
فانشده قوله :

جرى ناصح بالود بيني وبينها
فقرّني يوم الحصاب الى قلبي

نطازت بحد من فؤادي ونازعت
قريبها جبل الصفاء الى جبلي

فما أنس ملاً شياً لا أنس موقفي ،
وموقفها وهناً بقارعة النخل

فلما توافقنا عرفت الذي بها
كمثل الذي بي حدوك النعل بالنعل

فماجت بامثال الطيباء نواعم
الى موقف بين الحجاجون الى النخل

فقلت لا تراب لها شبه الدمي :
أطلنّ التمني والوقوف على سفل

وقالت لهنّ : أرجعنّ شيئاً لعلنا
نعاب هذا او يراجع في وصل

فقلن لها : هذا عشاء، واهلنا
قريب ، ألمّا تسمى مركب البغل ؟

فقلت : فما شئتني ؟ قلن لها : انزلي
فللارض خير من وقوف على رحل

وقمن اليها كالدمي فاكتفنها
وكل " يُقَدّي بالمودة والاهل

نجوم " دراري " تكتفن صورة
من البدر واف غير هوج ولا نكل

فسلمت واستأنست خيفة ان يرى
عدو مكاني او يرى كاشح فعلي

فقلت ، وارخت جانب الستر : انما سا : ربيتا ٥٦ (77)

معي فتحدثت في غيري وحيي قريسة (أهلي) (٢٢)

معدال قنيتلا غنيمسا راجيا

يشا . قبلها ريشانسا : كاخا (٥٦)

(٢٢) الرقبة : الحذر . بدلنا : رافعا . بدلنا : نديلا . بدلنا

نقلت لها : ما بي لهم من ترقبٍ
ولكن سري ليس يحمله مني

فلما اقتصرنا دونهن حديثنا
وهن طيبات بحاجة ذي التبيل^(٢٣)

عرفن الذي تهوى ، فقلن لها : أئذني
تطف ساعة في طيب ليل وفي سهل

نقلت : فلا تلبثن ، قلن : تحدثي
أينالك ، وانسبن انسياب مها الرمل

فمن ، وقد افهمن ذا اللب انما
فعلن الذي يفعلن ني ذلك من اجلي

وباتت تمج المسك في في عادة
بعيدة مهوى القرط صامته الحجبل^(٢٤)

قلب عيني ظبية ترتعي الخلا
وتحنو على رخص الشوى اغيد طفيل^(٢٥)

وتفتر عن كالا فحوان بروضة
جلته الصبا والمستهل من الوبل

اهيم بها في كل ممسى ومصبح
وأكثر دعوها اذا خدرت رجلي

(٢٣) ذو التبيل : السقيم .

(٢٤) بعيدة مهوى القرط : طويلة العنق . صامته الحجبل : ذات

الرجل السمينة المكتنزة باللحم .

(٢٥) الخلا : الحشائش الرطبة . الشوى : الاطراف . الرخص :

الناعم . الاغيد : الناعم . الطفيل : الناعم .

وشبب عمر بفاطمة بنت عبدالمملك بن مروان الاموي ، ومن قوله
فيها :-

ضاق الغداة بحاجتي صدري
ويشت بعد تقارب الامر

وذكرت فاطمة التي غلقت
عَرَضاً فيا لحوادث الدهر

مكورة ردع العبير بها
جمُ العظام لطيفة الخصر^(٢٦)

وكان فاهما عند رقدتها
تجري عليه سلافة الخمر

لما رأيت مطيها حزقاً
خفق الفؤاد وكنت ذا صبر

وتبادرت عيناى بعدهم
وانهل مدمعها على الصدر

واقعد عصيت ذوى اقاربها
طرا واهل الود والصر

حتى لقد قالوا وقد كذبوا :
أجنت ام بك داخل السحر ؟

ولما قدمت فاطمة بنت عبدالمملك مكة جعل عمر يدور حولها ، ويقول
فيها الشعر ، ولا يذكر اسمها خوفاً من عبدالمملك ومن الحجاج : لأنه كان

(٢٦) مكورة : ممثلة الساق . ردع العبير : اثر الطيب . جم
العظام : كثرة اللحم . لطيفة الخصر : دقيقته .

كتب إليه يتوعده ان ذكرها او عرض بذكرها ، فلما قضت حجها
وارتحت انشأ يقول :-

يا خليلي شفتي الذكّر
وحمول الحي اذ صدروا

ضربوا حمر القباب لها
واديرت حولها الحجر

سلكوا شعب النقب بها
زمررا تجتثها زمر

وطرقت الحي مكتما
ومعي غضب به أنر^(٢٧)

واخ لم اخش نبوته
يتوختي امرهم خير

واذا ريم على فرش
في حجال الخنز مختدر

حولته الاحراس ترقبه
نوم من طول ما سهروا

اشبهوا القلبي وما قلبوا
ذاك الا انهم سمروا

ندعت بالويل ، ثم دعيت
حرّة من شأنها الخنفر

(٢٧) الغضب : السيف .

ثم قالت للتي معها :
ويح نفسي ! قد أتى عمر
ماله قد جاء يطرقتنا
ويرى الأعداء قد حضروا ؟
لشقتائي كان علقنا
ولحيني ساقه القدر
قلت : عرضي دون عرضكم
ولن ناواكم الحجر

كان عمر يسرف بوصف نفسه حتى قال له ابن ابي عتيق ذات يوم :
لم تشب بها ، وانما شببت بنفسك • وقد وصفه بعض النقاد بالتيه
والغرور • ولكن المطلع على حياته وعلى شعره يتمكن من اكتشاف انه كان
يصف الواقع ولم يتعده • ونستطيع الآن ان نفهم السبب في افتتان النساء
بعمر ، وتنافسهن فيه ، وتسايقهن للاستحواذ على مودته • فان في شعر
عمر لسحرا اين منه سحر بابل • فلقد فتن عمر النساء وتمهن ،
ناخذن يطرينه ويتهاكن عليه ، حتى فتن هو بنفسه فلم يتغن بجبه ايهن
بقدر ما تغني بجبهن اياه وتدلهن فيه •

قال في هند :-

لا انس طول الحياة ما بقيت
لطيفة روضه لها شجر
ممشى رسول الي يخبرني
عنهم عشا بعض ما اثمروا

او مجلس النسوة الثلاث لدى ال
خيمات حتى تبلغ السحر
ثم انطلقنا وعدنا وانا
فيهن لو طال لينا وطر
فيهن هند ، والهـم ذكرتها
تلك التي لا يرى لها خطر
قـاء ان اقبلت ، مبتلة
والبوص منها كالقور منعفر
غراء في غرة الشبا من ال
حور اللواتي يزينها خفر
تفر عن بارد مقبله
مفلج واضح له اثر
وقولها للفتاة اذ اقد ال
بين : اعد ام رائح عمر
عجلان لم يقض بعد حاجته
الا تانى يوماً فينتظر
الله جـار له اذا نزلت
دار به او بدا له سفر
رايتها مرة ونسوتها
كانها من شعاعها القمر
يمشـين في الخز والمراجل ان
يعرف آثارهن منعفر

يُذْنِبِينَ مَسْنِ خَشِيَةِ الْعَيُونِ عَلَى
مِثْلِ الْمَصَابِيحِ زَانِهًا الْخُمْرُ

وقال في هند ايضا ، وهي من درر شعره :

أَذْنَبْتُ هِنْدَ بَيْنِي مَبْتَكِرُ
وَحَذَرْتُ الْبَيْنَ مِنْهَا فَاسْتَمِرُّ

ارسلت هند اليها ناصحا
بيننا إيت حيبا قد حضر

فاعلمن ان مجبا زائر
حين تخفى العين عنه والبصر

قلت : أهلاً بكم من زائر
اوت القلب غناء وذكر

تأهبت لها في خفية
حين مال الليل ، واجتن القمر

بينما انظرها في مجلس
اذ رمانى الليل منها بسكر

لم يرغى بعد اخذني هجعة
غير ريح المسك منها والقطر

قلت : من هذا ؟ فقالت هكذا :
انا من جشمته طول السهر

ما انا والحب قد ابلغني
كان هذا بقضاء وقدر

ليت اني لم اكن علقتم
 كل يوم انا منكم في عبر
 كلما توعدني تخلفني
 ثم تأتي حين تأتي بعدر
 سخت عيني لئن عدت لها
 لتمدن بجبل منبهر
 عمرك الله ، اما ترحمني
 ام لنا قلبك اقسى من حجر
 قلت لما فرغت من قولها
 ودموعي كالجمان المنحدر
 انت يا قرة عيني فاعلمي
 عند نفسي عدل سمعي والبصر
 فتركي عنك ملامي واعذري
 واتركي قول اخي الافك الاشر
 فأذاقتني لذيذا خلته
 ذوب نحل شيب بالماء الخصر
 ومدام عنتت في بابل
 مثل عين الديك او خمر جدر
 فتقضت ليلتي في نعمة
 مرة الثمها غير حصر
 وأفرى مرطها عن مخطف
 ضامر الاحشاء فعم المؤتزر (٢٨)

(٢٨) فرى : استيقظ . المرط : الثوب غير المخيط او ما يؤتزر به .
 ضامر الاحشاء : دقيقة الخصر . فعم المؤتزر : ممتلئة الردفين .

فلهوننا لينا حتى اذا
 طرببَ الديك ، وهاج المدكير
 حركتسي ، ثم قالت جزعاً
 ودموع العين منها تبدر :
 قم صفى النفس ، لا تفضحي
 قد بدا الصبح ، وذا برد السحر
 فتولت° في ثلاث خردٍ
 كدمى الرهبان او عينِ البقر^(٢٩)
 لست انسى قولها ما هدهدت
 ذات طوقٍ فوق غصن من عشر
 حين صممت° على ما كرهت
 هكذا يفعل من كان غدر
 وقال :-

المم° بعفراء ان° اصحابك ابتكروا
 وسلهم هل لديها اليوم منتظر
 واهاً لعفراء ان دار° بها قرأت
 فما ابالي الام الناس ام عذروا
 وان تبين° غربة° عنها بها قذف°
 فما تقضى الهوى منا ولا الوطر

(٢٩) الخرد جمع خرود : وهي المرأة الحيثه أو الباكر التي لم
 تمس . العين جمع عيناء : الواسعة العينين كالبقرة .

خود "مهفهفة الاعلى ، اذا انصرفت
 تكاد من ثقل الازداف تبتسر
 تفسر^{٣٠} عن ذي غروب طعمه عمل
 مفلج الثبت ، رقاف^{٣١} ، له اشرف
 كان فاما اذا ماجت طارقتها
 خمر بيسان او ما عتقت جذر^{٣٢}
 شجت بماء سحاب زل عن رصف
 من ماء ازهر لم يخلط به كدر^(٣٠)
 والغبر الاكف المسحوق خالطه
 والزنجيل ورنده^{٣٣} حاجه السحر
 حوراء^{٣٤} ، مكورة الساقين ، بهكته^{٣٥}
 لا عيب في خلقها طول ولا قصر
 كأنها الشمس وافت يوم أسعدها
 او درة^{٣٦} شوّفت للبيع ، او قمر
 تقول اذ ايقنت^{٣٧} اني مفارقتها :
 يا ليتني مت قبل اليوم يا عمر
 وقال ايضاً :-

تقول وعينها تذرني دموعاً
 لها نسق^{٣٨} على الخدين تجرى

(٣٠) هدهدت : صوتت ، نطقت .

الست أقرُّ من يمشي لعيني
 وانت الهم في الدنيا وذكرى ؟
 اما لك حاجة فيما لدينا
 تكن لك عندنا حقا فادري ؟
 امن سخط علي صدوت عني
 حملت جنازتي ، وشهدت قبري
 اشهرأ كله الا ثلاثاً
 اقمت على مصارمتي وهجري
 وقال :-

الا حي التي قامت على خوف تحيننا
 نفاضت عبرة منها فكاد الدمع يكيننا
 لئن شطت بهادار عوج" بالهوى حينا
 لقد كنا نواتيها وقد كانت تواتينا
 فلا قرب لها يشفي وليس البعد يسلينا
 وقد قالت لتربتهما ورجع القول يعيننا :
 الا يا ليت ما شعري وما قد كان يعيننا
 أموف بالذي قال وما قد كان يعطينا ؟
 فقالت تربتها : ظنبي به أن سوف يجزيننا
 ويعصى قول من ينهي ومن يعدلته فينا
 كما نصي اليه عن يد جِدِ القول ناهينا
 وقال :-

فلما التقينا واطمأنت بنا النوى
 وغيب عنا من نخاف ونشفق

أخذتُ بكفّي كفّها ؟ فوضعتها
على كبد من خشية الين تخفق

نقلت لأتراب لها حين أيقنت
بما قد ألقى : ان ذا ليس يصدق

قلن : أتبكي عين من ليس موجعاً
كثيباً ومن هو ساهر الليل يأرق ؟

نقلت : أرى هذا اشتياقاً ، وإنما
دعا دمع ذي القلب الخلى الشوق ؟

قلن : شهدنا انّ ذا ليس كاذباً
ولكنه فيما يقول مصدّق

فمن لكى يخلينا ، فترقرقت
مدامع عينها ، فظلت تدفق

وقالت : أما ترحمتني تدعني
لديه وهو فيما علمت أخرق

قلن : أسكتي عنا فغير مطاعة
لهو بك منا ، فأعلمي ذلك ، أرفق

نقلت : فلا تبرحن ذا السر ، اني
أخاف ورب الناس منه وأفرق

وقال ايضاً - ويظهر من هذه القصيدة ثورة ابن ابي ربيعة على
المألوف من القافية :-

قد صبا القلب صيباً غير دنسي
وقضى الاوطار من ام على

وقضى الاوطار منها بعدما
كادت الاوطار ان لا تنقضي
ودعاه الحين منه للتي
تقطع الغلاتِ بالذلّ البهي
فارعوى عنها صبر بعدما
كان عنها زمناً لا يرعوى
كلما قلت تناسي ذكرها
راجع القلب الذي كان نسي
فلها وارتاح للخود التي
تيمت قلبي بئذي طعام شهى
ببارد الطعام شئت نبتة
كالاقاحي ناعم النبت يسرى
واضح عذب اذا ما ابسمت
لاح لوح البرق في وسط الجبي
طيب الريق اذا ما ذقته
قلت تلج شيب بالمسك الذكي
ويطرف خنته حين بدن
طرف ام الخشف في عرف ندى
وبفرع قد تدلى فاحم
كدلى قنو نخل المجتسى
وبوجه حسن صورته
واضح السنة ذي ثغر نقي

وبجيد اغيد زينته
 خالص الدر ويساقوت بهي
 ولها نسي القلب مني لوعة
 كل حين هي في القلب تجي
 من يكن امسى خلياً من هوى
 نفاؤدي ليس منها بخلي
 او يكن امسى تقياً قلبه
 فلعمري ان قلبي لغوى

وقال :-

ليت شعري هل اذ وقد	من رُضاباً من حبيب
طيب الريقة والنك	هه كالراح القطيب ^(٣١)
واضح اللبنة والسنن	هه كالظبي الريب ^(٣٢)
مُخَطَف الكشحين عارى الـ	صلب ذي دل عجيب
مُشَبَّع الخلد والقلد	بين صياد القلوب
قد سبتني شتيت النـ	سبت في سقط كيب ^(٣٣)
جدا ذلك غزالا	قد شفى قرح ندوي
وجزاني بهوائي	وتائي في الميب
ولقد اشفت من حب	كم افضى نجيب
ان قلبي فاعلميه	كل يوم في وجيب^(٣٤)

(٣١) الراح القطيب : الخمر المزوج .

(٣٢) اللبنة : العنق . السنن : الوجه .

(٣٣) سبتني : اوقعتني في هواها . شتيت النبات : الفم ذو الاسنان

المتفرقة .

(٣٤) الوجيب : الخفقان والاضطراب .

كيف صبري عن قناه احسن الناس ، لعوب
صلته الخدين خود خلطت حسناً بطيب (٣٥)
وقال :-

طال ليلي وتغاني الطرب
واعتراني طول هيمسي بنصب
ارسلت أسماء في معتبة
عتبتها وهي اهوى من عتب
فاجابت رقتي فابسمت
عن شتت اللون صاف كالتعب (٣٦)
ان اتى منها رسول موهناً
وجد الحي نياماً فانقلب (٣٧)
ضرب الباب فلم يشعر به
احد يفتح منه اذ ضرب
فاتاها بحديث غاظها
شبه القول عليها وكذب
قال : أيقاظ ، ولكن حاجة
عرضت تكتم عنا فاحتجب
ولعمداً ردني ، فاجتهدت
بيمين حلفة عند الغضب

(٣٥) صلته الخدين : ذات خدين أمسين براقين .

(٣٦) التعب : الماء الصافي .

(٣٧) موهناً : بعد منتصف الليل . انقلب : رجع .

أشهد الرحمن لا يجمعنا
سقف بيت رجباً حتى رجب

قلت : حيلاً ، فأقبلي معذرتي
ما كذا يجزي محب من احب

ان كفى لك رهن بالرضا
فأقبلي يا هند ، قالت : قد وجب

فبعثنا طبية محتالة
تمزج الجيد مراراً باللعب^(٣٨)

ترفع الصوت اذا لانت لها
وتراخي عند سورات الغضب

وهي اذ ذاك عليها مزر
ولها بيت جوارٍ من لعب^(٣٩)

لم تنزل هزونها عن رأيها
وتأناها برفقي وادب^(٤٠)

وقال :-

ليت هذا انجزت ما تعد
وشفت انفسنا مما تجد

واستبدت مبرة واحيدة
انما العاجز من لا يستبد

(٣٨) الطببة : الحاذقة الخيرة العارفة بطرق الحيلة .

(٣٩) يقصد انها ما زالت صغيرة تلعب بلعب الفتيات الصغيرات .

(٤٠) تأناها : تستمهلها .

زعموها سألت جاراتها
وتعرت ذات يوم تبرد

أكما ينغني تبصرتي
عمر كن الله ام لا يقتصد ؟

فتضاحكن وقد قلن لها :
حسن " في كل عين من نود

حسداً حمله من شأنها
وقديماً كان في اناس الحسد

عادة تفتقر عن اشئبها
حين تجلوه افراح او برد

ولها عينان في طرفيهما
حور" منها ، وفي الجيد غيد

طفلة" باردة القيظ اذا
مععان الصيف اضحى يتقد

سحنة المثني ، لحاف للفتي
تحت ليل حين يغشاه الصرد^(٤١)

ولقد اذكر اذ قيل لها
ودموعي فوق خدي تطرد

قلت : من انت ؟ فقالت : انا من
شفه الوجد وابلاه الكمد^(٤٢)

(٤١) الصرد : شدة البرد .

(٤٢) شفه : اضناه . الوجد : شدة الحب . الكمد : الحزن .

نحن اهل الخيف من اهل مني
ما لمتقول قتلناه قَوَدَ (٤٣)

قلت : اهلاً ، اتممُ بيفينا
تسمين ، فقالت : انا هند

انما ضلك قلبي فاجتوى
صعدة في سابري تطرد

انما اهلك جيران لنا
انما نحن وهم شيء احد

حدثونا انها لبي نقت
عقداً ، يا جندا تلك العقد

كلما قلت : مني ميعادنا ؟
ضحكت هند ، وقالت : بعد غد

وقال ايضاً - وهي من غرر قصائده :-
هيج القلب مغان وصير

دارسات قد علاهن الشجر
ورباح الصيف قد ازوت بها

تسبح التراب فنونا والمطر
ظلت فيها ذات يوم واقفا

اسأل المنزل هل فيه خبر
لتي قالت لأتراب لها

قطف فيهن أنس وخفّر
اذ تمشين بجو مونيقي

نير التبت تغشاهم الزهر

بدمك سهلة زينها
 يوم غيم لم يخالطه قنر (٤٤)
 قد خلونا تمنين بنا
 اذ خلونا اليوم تبدي ما نسر
 فعرفن الشوق فسي مقلتها
 وحباب الشوق يديه النظر
 قلن يسترضينا : منيتنا
 لو اتانا اليوم في سر عمر
 يتما يذكرني اهرتي
 دون قيد الميل يعدو بي الاغر
 قلن : تعرّن الفتى ؟ قلن : نعم
 قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟
 ذا حبيب لم يعرج دوننا
 ساقه الحين لنا والقدر
 فاتانا حين ألقى بركه
 جمّل الليل عليه واسبطر (٤٥)
 ورضاب المسك من اتوابه
 مرمر الماء عليه فنظر
 قد اتانا ما تمنينا ، وقد
 غيّب الأبرام عنا والقنر (٤٦)

- (٤٤) دماك : المكان اللين الرملي • القنر : الغبرة •
 (٤٥) القى الجمل بركه : أناخ الجمل • اسبطر : اضطجع وامتد
 (٤٦) الأبرام جمع برم : هو الذي لا يشارك الناس في المسير •
 القنر جمع قنور : وهو الشخص الذي لا يخالط الناس لسوء
 خلقه .

العشق

في شعر قيس بن الملوح

ان قصة مجنون ليلى من المأسى الغرامية الفذة الكبرى ، وقد خلدتها اشعار بطلها قيس بن الملوح كما خلد شكسبير قصة روميو وجوليت •

نشأ قيس في بيت رفيع العماد في آل عامر الذين يتصل نسبهم الى كعب بن ربيعة • ويصفه الرواة انه كان مديد القامة ، حسن الهندام والمظهر ، جميل المحيا ، خفيف الروح ، بهي الطلعة •

شب وشبت معه فتاة من اجمل الناس صورة وهي قريبته ليلى بنت مهدي المعروفة بليلي العامرية • كانا في اول عهدهما يرعيان الغنم سويا بدليل قوله :

تعلقت ليلي وهي ذات تمائم
ولم يسد للاتراب من نديها حجم

صغيرين نرعى البهم يا ليت اتنا
الى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهم

فترعرا في احضان الصحراء بين الصخور الجرداء والجبال السماء يتبادلان ارق العواطف ، فتمت في قلوبهما بذرة الحب العنيف الذي استولى على حواسهما وهز كيانهما طيلة حياتهما • وكان جمال قديهما قد سقى تلك البذرة وكانت خلواتهما البرية قد غذتها نمت وترعرعت وكانت نارا اعتلجت في قلوبهما الظمئين • فلم يكونا يشعران بذلك الرباط الوثيق الذي

كان يشد قلبيهما وروحيهما الى بعضهما حتى كبرا • فمَنع ليلي ذووها
من الخروج الى البراري للرعى •

ولكن علاقتهما لم تنفصم عند ذلك بل كان يزورها في انصباح في
بعض الزوايا او عند البئر الذي تستسقى فتيات الحي من مائه ، فيمكث
واياها حتى المساء كما قال :

نهارى نهار الناس حتى اذا بدا
لي الليل هزتني اليك المضاجع

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى
ويجمعني بالهم والليل جامع

اذا مر يوم من حياتي ولا ارى
خيالك يا ليلي فعمري ضائع

تضيق عليّ الارض حتى كأنتي
من الصبر في سجن فما انا صانع

ولما كان قيس واسع الاطلاع ملما باخبار العرب ، ولما كان متصفا
باللباقة وحلاوة الحديث فقد حظى باعجاب فانتته عندما كان يقص عليها
اخبار العرب ووقائعهم وحروبهم ويروى انباء العشاق وما اصابهم من نكد
الحياة ومرارة العيش اولئك العشاق الذين اضناهم عشقهم وهلكوا في
سبيل الغيد اللائى سلبن انباههم وامتلكن قلوبهم • فكانت ليلي تميل الى
حديثه وتعجب به ايما اعجاب • فظنا ان الدهر سيقى الى جانبهما ، فعاهدا
على الحب واقسما على الرثاء وانهما سيبقيان الى بعضهما حتى يفرق بينهما
المنون •

ولكنهما لم يدريا ان الدالي من الزمان جبالى متقلات يلدن كل
عجيبه ، لم يدريا ان الدهر غدار خؤون ، ولم يعلما ان الفراق معدّ لهما

قبل موعد المنون •

أفاق قيس يوما من غفلته واذا بسياج سميك يفصل بينه وبين حبيبة
قلبه إذ صدرت الأوامر من ذوبها بحجبها عنه ، ومنعها من رؤيته • وسبب
ذلك لما كان ينظم بها من اشعار في الغزل والتشبيب واصفا بها محاسنها
ومعبرا عن حبه لها وانتانه بها ، وكانت الالسنه تناقل تلك الاشعار لرفقتها
وعذوبتها وصدق تعبيرها عن مشاعره واحاسيسه النفسية ؛ فسارت بذكر
ليلي الركبان وهي تردد شادية ما كان يقوله بها قيس من اشعار :

سُغِفَ الفؤاد بجارة الجنب فظلمت ذا أسف وذا كرب
يا جارتني امسيت مالكة روحي وغالبة على لبي
وقال :

الا قبل لمن أمسيت مُضْنَى بحبها
وصارت رجاء النفس في البعد والقرب
اناخ هواها في فؤادي نصادني
ومن ذا يطيق الصبر عن مجمل الحب
فان كان ذنبي حب ليلي واهلها
فلا غفر الله المهيمن لي ذنبي

وقال :

وعارضن بالعقيان كل مفلح
به الظلم لم تقلل لهن غروب
رضاب كريح المسك يحلو متونه
من الضرب او فرح البشام قضيب

وقال :

ومفروشة الخدين وردا مضرجا
إذا خمشته العين عاد بنفسجا
شكوت اليها طول ليلي بعبرة
فأبدت لنا بالغنج دراً مفلجا
فقلت لها مني علي بقبلة
أداوى بها قلبي فقالت تغنجا
بليتُ بردف لست اسطع حمله
يجاذب اعضائي اذا ما ترجرجا

وقال :

حلا ذكر الاجبة في فؤادي
نهمت من الغرام بكل وادي
وقد باحت بأسراري دموعي
وجفني قد جفا طيب الرقاد
وكم ناديت بين خيام ليلي
وكم في جها مثلي ينادي
انا المُنْضَى فجوذي لي بوصل
فقد زاد السقام الى السهاد
وكم اجريت يوم البين دمعاً
على الخدين كالسحب الغواذي
فما حلّى التهتك في هواها
حماها الله من كيد الاعادي

عسى بالوصل احظى قبل موثي
وافرح باللقا بعد البعد

وقال في ليلي ، وهي من قصائده الرشيقات :

اقول لاصحابي وقد طلبوا الصلي
تعالوا صلوا ان شتم النار من صدري

فان لهيب النار بين جوانحي
اذا ذكرت ليلي احمر من الجمر

فقالوا : نريد الماء نسقي ونسقي
فقلت : تعالوا فاستقوا الماء من نهري

فقالوا : واين النهر ؟ قلت مدامعي
سيغنيكم دمع الجفون عن الحفر

فقالوا : ولم هذا ؟ قلت : من الهوى
فقالوا : لحاك الله . قلت : اسمعوا عذري

الم تعرفوا وجهها لليلي شعاعه
اذا برزت يغنى عن الشمس والبدر

يمر بوهمي خاطري فيؤودها
ويجرحها دون العيان لها فكري

مبجلة لوقابل البدر وجهها
لكان له فضل ميين على البدر

هلاية الاعلى ملطخة الذرا
مرجرجة السفلى مهفهفة الخصر

مُبْتَلَةٌ هيفاء مهضومة الحشا
موردة الخدين واضحة الثغر
مدلجة الساقين بض بضيضة
مفلجة الاسنان مصقولة الخمر
فقالوا : أمجنون ؟ فقلت : موسوس
اطوف بظهر اليد قفرا الى قفسر
فلو ملك الموت المريح يريحني
فلا انا ذو عيش ولا انا ذو صبر
وصاحت بوشك الين منها حمامة
تغت بليل في ذرى ناعم نضر
على دوحه يستن تحت اصولها
نواقع ماء مده رصف الصخر
مطوقة طوقا ترى في حزامها
أصول سواد مطمئن على النحر
وناحت باعلى الصوت منها فهيجت
فؤادا معننى بالمليحة لو تدري
فقلت لها : عودي • فلما ترنمت
تبادرت العينان سحاً على الصدر
كأن فؤادي حين جد سيرها
جناح غراب رام نهضا الى الوكر
فودعتها والنار تقدح في الحشا
وتوديعها عندي أمر من الصبر

ورحت كأنني يوم راحت جمالها
سقيت دم الحيات حتى مضى عمري

أبت صريع الحب دام من الهوى
وأصبح منزوع الفؤاد عن الصدر

رمتني يد الأيام عن قوس محنة
بسهمين في أعشار قلبي وفي نحري

بسهمين مسمومين من رأس شاهر
فغودرت محمر التراب والنحر

فليلي دعنتي في الهوى متعلقا
وقد مت إلا أنني لم أزر قبري

فليلي هي الدنيا ، هي القصد دائما
هي المثل الأعلى ابن عائش في الدهر

ولو كنت ماء كنت من ماء مزنة
ولو كنت نوماً كنت في غفوة الفجر

ولو كنت ليلاً كنت ليل تواصل
ولو كنت نجماً كنت بدر الدجى يسرى

عليك سلام الله يا غايبة المنى
وقاتلتي حتى القيامة والحشر

وقال أيضا وهي من غرر قصائده التي سارت بها الركبان :

انيري مكان البدر ان افل البدر
وقومي مقام الشمس ما استأخر الفجر

ففيك من الشمس المنيرة ضوءها
وليس لها منك التبريم والتعسر
بلى لك نور الشمس والبدر كله
وما حملت عينيك شمس ولا بدر
لك النظرة الألاء والبدر طالع
وليس لها منك الترائب والنحر
ومن أين للشمس المنيرة في الضحى
بمكحولة العينين في طرفها فتر
وانى لها من دل ليلي اذا انتت
يعني مهاة الرمل قد مسها الذعر
وتبسم ليلي عن نيايا كأنها
اقاح بجرعاء المراضين أو در
منعمة لو باشر الذر جلدها
لأثر منها في مدارجها الذر
اذا اقبلت تمشي تقارب خطوها
الى الاقرب الادنى تقسمها البهر
مريضة أثناء التعطف انها
تخاف على الارداق يسلمها الخصر
فما ام خشف بالعقيقين ترعوى
الى رشاً طفل مفاصلها خدر
بمخضلة جاد الربيع زهاها
زهائم وسمى سحابه غزر

وقفنا على اطلال ليلي عشية
باجرع حزوي وهي طامسة دثر

يحاولها مزنان اسحم باكر
وأخر معهاد الرواح لها زجر

وجاد على روض الخزامى نسيمها
وانوارها فانخوضل الورق الخضصر

وما أجمل تعبيره واروعه في تشبيهه ليلي بالشمس والبدن وتفضيله اياها
عليهما اذ من أين لهما دلال ليلي اذا اثنت ، ومن أين لهما ثغرها الجميل
اذا تبسمت ، ومن أين لهما عيناها الجميلتان الكحيلتان المتان فيهما فتر ،
ومن أين لهما مثل تلك الترائب وذلك النحر ؟ وبالإضافة الى ذلك ففي
محيا ليلي ضوء الشمس الساطع ونور البدن الطالع ، فهي تستحق اذن ان
تقوم مقام البدن ان انل البدن ، وان تقوم مقام الشمس ما استأخر الفجر .

هذا واوجز قيس رغبات نفسه في المقطوعة التالية ، وهو يتمنى ان
تكون ليلي رفيقته حتى الى القبر ، وفي المقطوعة ما فيها من رقة في اللفظ
واناقة في المعنى وسمو في التعبير :

الا ليتنا كنا غزالين نرتعي
رياضا من الجوزان في بلد قفر

ويا ليتنا كنا حمامى مفازة
نطير ونأوى بالعشى الى وكر

الا ليتنا حوتان في البدن نرتعي
اذا نحن امينا نلجج في البحر

ويا ليتنا كنا جميعا وليتنا
نصير اذا متنا ضجعين في القبر

ضحيعين في قبر عن الناس معزلا
وتقرن يوم البعث والحشر والنشر
وقال أيضا :

ان الطباء التي في الدور تعجيني
تلك الطباء التي لا تأكل الشجرا
لهن اعناق غزلان واعينها
وهن احسن من اشكالها صوراً
ولي فؤاد يكاد الشوق يصرعه
اذا تذكرت من مكثومه اثرا

وكان في حي ليلي امرأة من بني عامر قد تزوجها رجل من حريش
مات عنها ، فكان يأتيها قيس يتعرف منها على أخبار ليلي ، وكانت تلك المرأة
توصل أخباره الى ليلي وأخبار ليلي اليه . فلما بلغ أهل ليلي ذلك زجروا
المرأة وتوعدها . فأخبرت قيسا بذلك ، فأنشد متملاً بيت امرئ القيس
وضم اليه بيتاً ثانياً :

اجارتنا انا غريبان ههنا
وكل غريب للغريب نسيب

فلا تزجريني عنك خيفة كاشح
اذا قال شراً أو أخيف لييب
وقيل ان ليلي امتحنته ذات يوم وكان قد اتاها وعندها فتى من قومها ،
فتغاضت عنه ، واقبلت على ذلك الفتى تحادثه ، فرأته قد تغير حتى كادت
تصرعه الغيرة ، فأنشدهت :

كلانا مظهر للناس بغضاً وکل عند صاحبه مكين
واسرار الملاحظ ليس تخفى وحبك في فؤادي لا بين

وكيف يفوت هذا الناس شيء . وما في الناس تظهره العيون

فلما سمع ذلك تهلل وجهه واشرح صدره وانشد :

احبك حبا لو تحين مثله اصاك من وجد علي جنون
شديد على الاحشاء اما نهاره تحسزن واما ليله ناسين

ولم يمتنع قيس عن المجيء الى حي ليلى تحت أجنحة الفلام في
الليالي الليلية ، ولم يزدجر عن التغزل والتشبيب بها . وقد اشتهر ذلك
الامر ، وشاع ذكره بين العرب ، فشكا اهل ليلى الى الخليفة مروان بن
الحكم ملتجئين منه منع قيس من المجيء الى حيهم والتشبيب بابنتهم ، فكتب
الى عامله في المدينة بهدر دمه اذا وجدوه في حي ليلى . ولما بلغ قيسا هذا
الأمر تكدر عيشه واخرج الايات التالية نفثة حرى من قلب متعذب مكلوم .

لئن حُجِبت ليلى وآلى امرها

على يميننا جاهدا لا ازورها

واوعدني فيها رجال ابوهم

ابي وابوها خشنت لي صدورها

على غير شيء غير اني احبها

وان فؤادي عند ليلى سميرها

وانسي اذا حنت الى الالف الفها

هفا بفؤادي حيث حنت سحورها

ولما رأى ابو قيس وذووه ما حل بابنهم من ضنى وما اصابه من وله
وعنا قرأهم على المبادرة لخطبة ليلى لابنهم . فلم يفلحوا في مساعهم لأن
من عادات العرب السائدة آنذاك عدم تجويز زواج من شاع ذكر حبه
وغرامهم .

وكان ذلك صدمة له اصابته في الصميم فمألت قلبه بأسا ومرض
مرضا وبلا ، فجاءه فريق من بني اعمامه ومعهم ابوه لعيادته والسلام عليه
فسمعوه يبكي بحرقة وينشد :

الا ايها القلب الذي لسج هائما
بليلى وكيدا لم تقطع تمنمه

افق قد افاق العاشقون وقد ابى
لما بك ان تلقى طيبيا تلاممه

فما لك مسلوب العزاء كأنما
تسرى نأى ليلى مفرما انت غارمه

اجدك لا ينسبك ليلى ملامة
تلم ولا ينسبك عهدا تقادمه

فاستروا حتى أتم نشيده ودخلوا عليه فحادثوه في أمر سلو ليلي
وطرحها عن باله ، فزاد في الهيام ، واشتدت عنده الصبابة والغرام رعاود
موضعها وصار يتمرغ في التراب ويبكي بكاء مرا ، ثم خرج الى الجبال
والوديان ، واتقطع عن العمران مستأنسا بالوحوش كما قال :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصوت انسان فكسدت أطيير

فلم يكن قيس يسلو ليلاه ، ولم تغب عن باصرته لحظة من لحظات
الليالي والنهار ، بل كان يتخيلها في كل شيء يقع بصره عليه ، في السوادي
المعشب ، وفي الشمس المنيرة ، وفي القمر ، وفي الريم الشرود ، وفي الحمام
الشادى . وكثيرا ما كان يترنم بهذا البيت :

ومستوحش لم يمس في دار غربة
ولكنه ممن يسود غريب

وقال :

أياليل زند الين يقدح في صدري
ونار الاسى ترمي نؤادي بالجمر
ابى حدثان الدهر الا تشتتا
واي هوى يبقى على حدث الدهر؟
تعرفان الدهر يجرح في انصفا
ويقدح بالعصرين في الجبل الوعر
وانى اذا ما اعوز الدمع امله
فزعت الى دلجاء دائمة القطر
فوالله لا انسك ما هبت الصبا
وما ناحت الاطيبار في وضح الفجر
وما نظقت بالليل سارية القطا
وما صدحت في الصبح غادية الكدر
وما لاح نجم في السماء وما بكت
مطوقة شجوى على فنن السدر
وما طلعت شمس لدى كل شارق
وما هطلت عين على واضح انحر
وما اغطوطين الغريب واسود لونه
وما مر طول الدهر ذكرك في صدري
وما حملت اثنى وما خب ثعلب
وما طفح الأذى في لجج البحر

وما زحفت تحت الرجال بركبها
قلاص تؤم البيت في البلد الفقير

فلا تحسبي يا ليل انسي نسيتم
وان لست مني حيث كنت على ذكر

ايكس الحمام الورق من فقد الفه
ويسلو ومالي عن أليفي من صسبر

واقسمت ما انساك ما ذر شارق
وما خب آل في معلمة ففر

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
انا جيكم حتى أرى غرة الفجر ؟

وقال مخاطباً ظلياً :

ايا شبه ليلي لا تراعى فانسي
لك اليوم من دون الوحوش صديق

ويا شبه ليلي لو توقفت ساعة
عليها سحب هاطسل وبروق

ويا شبه ليلي لو توقفت ساعة
لعل فؤادي من جواه يفيق

اقول وقد اطلقتها من وثاقها
فانت لليلي ان شكوت طليق

فعيناك عيناها وجيدك جيدها
سوى ان عظم الساق منك دقيق

تكاد بلاد الله يا ام مالك
بما رجبت يوماً على نضيق
تسوق اليك النفس ثم أردتها
حياء ومثلي بالحياء خليق
ولو تعلمين الغيب ايقنت انني
مُحِبٌّ وانسي للحييب مشوق
اروم سلو النفس عنك ومالها
الى احد الا اليك طريق
وقال :

دعاني الهوى والشوق لما ترنمت
هتوف الضحى بين الغصون طروب
تجاوب ورقاً قد اصحن لصوتها
فكل " لكل " مُسَعِدٌ ومجيب
قلت : حمام الايك مالك باكيا
افارقت الفأ ام جفاك حبيب ؟
تذكرني ليلي على بعد دارها
ويلي قنول للرجال خلوب
وقد رايتني ان الصبا لا تجيني
وقد كان يدعوني الصبا دأجيب
سبي القلب الا ان فيه تجلداً
غزال باعلى الماتحين ريب

فكلم غزال الماتحين فانه
يدانى وان لم يشفني لطيب
ولو ان ما بي بالحصى فلق الحصى
وبالريح لم يسمع لهن هبوب
والو انني استغفر الله كلما
ذكرتك لم تكتب على ذنوب
فدومي على عهدي فليست بزائل
عن العهد منكم ما اقام عيب
وقال :

رأيت غزالا يرتعى وسط روضة
فقلت ارى ليلى نرايت لنا ظهرا
فيا ظبي كل رغدا هنيئا ولا تخف
فانك لي جار ولا ترهب الدهرا
وعندى لكم حصن حصين وصارم
حسام اذا اعلمته احسن العبرا

اجل اصبح قيس بن الملوح هائما في البرارى والقفار مستأسا
بالوحوش حتى الفها ، يعانى ما يعانى من شدة الحر وصرامة القر ، ومن
الوحدة في سكون الليل البهيم ، فاذا رثده حتى لم يكن يعى ما حوله او
يفهم ما يقال له حتى يذكر له اسم « ليلى » فيفوق من غشيته فليهب
باسم حبيته وسالبة لبه بايات يرتجلها ، ثم يعود الى غيبوته .

ولما رأى اهله وعشيرته حالته تلك حاولوا تسليته عن جها بشتى
الوسائل والاغراء وقال في ذلك :

لقد لامني في حب ليلى اقاربي
 ابي وابن عمي وابن خالي وخاليا
 يقولون ليلى اهل بيت عداوة
 بنفسي ليلى من عدوِّ وماليا
 ارى اهل ليلى لا يريدون بيها
 بشيء ولا اهلي يريدونها ليا
 قضى الله بالمعروف منها لغيرنا
 وبالشوق والابعاد منها قضى ليا
 قسمت الهوى نصفين بيني وبينها
 فنصف لها هذا لهذا وذا ليا
 الا يا حمامات العراق اعنني
 على شجني وابكين مثل بكائيا
 يقولون ليلى بالعراق مريضة
 فيا ليتني كنت الطيب المداويها
 فشاب بنو ليلى وشاب بنو ابنها
 وحرقة ليلى في الفؤاد كما هي
 علي لئن لاقيت ليلى بخلوة
 زيارة بيت الله رجلاي حافيا
 يا رب اذ صيرت ليلى هي المنى
 فزنى بعينها كما زنتها ليا
 والا فبعضها الي واهلها
 فاني بليتلي قد لقيت الدواهيها

يلومون قيسا بعد ما شفه الهوى
وبات يراعى النجم حيران باكيا
قيا عجبا ممن يلوم على الهوى
فتى دنفا امسى من الصبر عاريا
ينادي الذي فوق السموات عرشه
ليكشف وجدا بين جنينه ناويا
بيت ضجيع الهم ما يعرف الكرى
ينادي الهى قد لقيت الدواهيا
ساحرة العين كالشمس وجهها
يضى سناها في الدجى متساميا
وقال :-

عفى الله عن ليلى وان سفكت دمي
فاني وان لم نجزني غير عاتب
عليها ولا مبد ليلى شكايي
وقد يشتكى مثلي الى كل صاحب
يقولون تب عن ذكر ليلي وجبها
وما خلتني عن حب ليلي بشائب

(قال الواهبي) ان ابا الملوحة واخوته ساروا اليه في الصحراء ليأخذوه
ويردوه الى الحي واهل بيته وذلك بعدما نحل جسمه واسود وجهه وجف
جلده على عظامه فلما وصلوا اليه وجدوه قاعدا على تل من رمل يخط فيه
باصبعه فلما دنوا منه نفر منهم فاداه ابوه :- «يا قيس انا ابوك الملوحة»
وهؤلاء اخوتك ، فطب نفسا وابشر فقد وعدني أبو ليلي ان يزوجه لك

ويردك من نفارك وينزل عند حكمك ورضاك . . . ، فلما سمع ذلك عاد
إليه عقله وأقبل عليهم وآنس بهم فقال له أبوه : يا قيس أما تتقي الله
وتراقبه . . . كم تطيع هواك وتعصيني ، فقد كنت أرجى ولدي أفضلك عليهم ،
فاخلفت ظني ولم تحقق أمني فيك . . . فليت شعري ما تكون ليلى فما هي
ممن يوصفن بالجمال والحسن ؟ فهي فوهاء جاحظة العينين شهلة سمجة ،
فعد عن ذكرها ، ولك في قومك من هي خير لك منها . فلما سمع قوله
فيها انشد يقول :

يقول لي الواشجون ليلى قصيرة

فليت ذراعها عرض ليلى وطولها

وان بعينها لعمرك شهلة

فقلت كرام الطير سهل عيونها

وجاحظة فوهاء لا بأس انها

'مني' كبدي بل كل نفسي وسؤلها

فدق صلاب الصخر رأسك سرمدا

فأنسي الى حين الممات حليلها

(وقال الوالبي) وان المجنون « قيس » لما ذهب الى بابل مع ابيه

اجتمع اليه المتطشون واقبلوا يسقونه شربة بعد شربة ويكونه بالنار .
فلما اكثروا عليه انشد :

دعوني دعوني قد اطلتم عذابي

وأنضجتُم جليدي بحرًا المكاويا

دعوني أمتُ هما وغما وكربة

ايا ويح قلبي من به مثل مايا

دعوني بهمي وانهضوا في كلاة
من الله قد ايقنت ان لست باقيا
وراعكم اني لقيت من الهوى
تباريح ابلت جدتي وشبابيا
برائي شوق لو برضوى لهده
ولو بشير صار رسماً وسافيا
سقى الله اطلاقاً بناحية الحمى
وان كن قد ابدن للناس ما يا
منازل لو مرت عليها جنازتي
لقال الصدى يا حاملي انزلا يا
فاشهد بالرحمن من كان مؤمناً
ومن كان يرجو الله فهم دعائيا
لحا الله اقواما يقولون اتنا
وجدنا الهوى في النأي للصب سافيا
فما بال شوقي هدّه الشوق والهوى
وانضج حر البين مني فؤاديا
الا ليت عيني قد رأت من رآكم
لعلّي اسلو ساعة من هياميا
وهيات ان اسلو من الحزن والهوى
وهذا قميصي من جوى البين باليا
فقلت نسيم الروح اولى تحبتي
اليها وما قد حل بي ودهانيا

فاشكره ، لا ، اني الى ذاك شائق
 فيا ليت شعري هل يكون تلاقيها
 معذبتني لولاك ما كنت هائما
 ابيت سخين العين حران باكيا
 معذبتني قد طال وجدي وشفني
 فيا للناس قل عزايا
 معذبتني اوردتني مورد الردي
 واخلفت ظني واحترمت وصاليا
 خليلي هيا فاسعداني على البكا
 فقد جهدت نفسي ورب المنايا
 خليلي اني قد ارقت ونمتما
 لبرق يمان فاجلسا عتلايا
 خليلي لو كنت الصحيح وكنتما
 سقيمين لم افعل كفعلكما يا
 خليلي مدا لي فراشي وارفعها
 وسادي لعل النوم يذهب مايا
 خليلي قد حانت وفاتي فاطلبها
 لي النعش والاكفان واستغفرا ليا
 وان مت من داء الصباية المفا
 نتيجة ضوء الشمس مني سلاميا
 وتاملوا بجمال هذا التشبيه الرائع الذي ختم قيس فيها قصيدته
 العصماء ، اذ انه غني بـ « نتيجة ضوء الشمس » ليلاه الغالية .

ولكن « تبيجة ضوء الشمس » قد افلتت منه الى الابد ، حينما زوجها
ذووها الى غيره ، فوقع ذلك النبا عليه وقوع الصاعقة حتى كاد ان يموت
حزنا وانشد يقول :

الا ان ليلي العامرية اصبحت
تقطع الا من ثقيف جبالها
هم حيسوها مجس بدن وابتغى
بها المال اقوام اقل مالها ؟

وقال :

دعوت آلهي دعوة ما جهلتها
وربي بما تخفى الصدور خبير
لئن كان يهدى برد انباها العلا
لا فقر مني اتني لفقير
فقد شاعت الاخبار ان قد تزوجت
فهل يأتيني بالطلاق بشير ؟
وجعل يمر بيتها فلا ينظر اليه ولما سئل عن ذلك انشد :

ألا ايها البيت الذي لا ازوره
وان حله شخص الي حبيب
هجرتك اشفاقا وزرتك خائفا
وفيك علي الدهر منك رقيب
سأستعب الايام فيك لعلها
يوم سرور في الزمان تؤوب

وافردت افراد الطريد وواعدت
 بي النفس حاجات وهن قريب
 لئن حال واش دون ليلى لربما
 أتى اليأس دون الأمر فهو عقيب
 ومنيتني حتى اذا ما رأيتني
 على شرف للناظرين يريب
 صددت وأشمّت العدو بهرنا
 ائابك يا ليلى الجزاء مئيب
 ولقد كان سوء ظنه بليلى خاطئاً ، فلم تصد ولم تُشمّت به الاعداء ،
 بل احتفظت بحبه ، وواصلت وده حتى بعد الزواج •

ذكر ابو اسحق بن الهيثم ان رجلا مر بليلى وهي واقفة على باب
 خائها • فقالت له : اين تريد يا عبدالله ؟ ••• قال اريد بني عامر •
 فزفرت زفرة شديدة وقالت :

يا ايها الراكب المزجى مطيته
 عرج لانيء عني بعض ما أجد
 فما رأى الناس من وجد تضمنهم
 الا ووجدني فوق الذي يجدوا
 اهوى رضاه وانى في مودته
 وحبه آخر الأيام أجهد
 وسمعت ليلى رجلا ينشد شعرا للمجنون فاستفزها الشوق ووقفت على
 باب الخباء وانشدت :

إذا عثرت رجلي بدأت بذكره
واحلم في نومي به واعيش
إذا ذكر المجنون زالت بذكره
قوى النفس أو كاد الفؤاد يعيشت
فوالله ما زال الفؤاد يحبه
وان كان صدري في هواء يجيش
توعدني قومي بقتلي وقتله
فقلت اقتلونني واتركوه يعيشت
وفي هذا ما فيه من صادق الاخلاص للحب الشريف والوفاء للعواطف
النييلة المتأججة الخالية من الانانية والانجراف نحو البهيمية •
ولقد لام البعض قيساً على افراطه في الغزل والانحدار الى المحرمات ،
فلما سمع مقالاتهم بكى وانشد قائلاً :

الا ايها القوم الذين وشوا بنا
على غير ما تقوى الآله ولا ير²
الا ينهكم عنا تفاكم فنتهوا
ام اتم اناس قد جيلتم على الكفر
تعالوا نقف صفين منا ومنكم
وندعو اله الناس في وضع الفجر
على من يقول الزور او يطلب الخنا
ومن يقذف الخود الحصان ولا يدري
حلفت بمن صلت قریش وحجرت
له بمنى يوم الافاضة والنحر
وما حلقوا من رأس كل مطهر³
صبيحة عشر قد مضين من الشهر

لقد اصبحت منى حصانا بريشة
مطهرة ليلي من الفحش والنكر
من الخفريات البيض لم تدر ما الخنا
ولم تلف يوما بعد هجتها تسرى
ولا سمعوا من سائر الناس مثلها
ولا برزت في يوم اضحى ولا فطر
مرهمة كالشمس في يوم صحوها
منعمة لم تخط شبرا من الخدر
وقال :

لقد اكثر اللوام فيك ملامتي
وكانوا لما ابدوا من اللوم ألوما
وقد ارسلت ليلي الي رسولها
بان آتھا سرا اذا الليل اظلما
فجئت على خوف وكنت معوذا
احاذر ايقاظا عداة ونوما
فبت وباتت لم نهم بريبة
ولم نجترم يا صاح بالله محرما
وكيف اعزى القلب عنها تجلدا
وقد اورثت في القلب ذاء مكتما
فلو انها تدعو الحمام اجابها
ولو كلمت ميتا اتاها وكلمها

ولو مسحت بالكف اعمى لاذهبت
منعمة تسيي الحليم بوجهها
تزين عنها عفة وتكرما
فلك التي من كان داء دواؤه

وهاروت منها كل سحر تعلمها
واحتم بحثي بعض مقطوعاته الغزلية التي يشبب فيها ، فيصف
محاسن الجنس اللطيف وخاصة ليلاه ويصور شعوره واجاسيسه نجوهن
قيدع تصويره ايما ابداع .
فقال :

اذا نظرت نحوي تكلم طرفها
فجاوبها طرفي ونحن سكون
ولو خلط السم الزعاف بريقها
واسقت منه نهلة لبريت

وقال :
نفسى الفداء لذات حسن هجرها
انكى وافسد في الفؤاد وعائنا
هل بعد ليلى حظوة من بعد ما
طلقت لذات التعيم ثلاثا
وقال :

يا من شغلت بهجره ووصاله
هم المني ونسيت يوم معادي

والله ما انتقت الجفون بنظرة
الا وذكرك خاطر بغواذي

وقال :

تقول العدا لا بارك الله في العدا
لقد كلَّ عن ليلى ورتت جائله

فلو اصبحت ليلى تدب على العصا
لكان هوى ليلى جديدا اوائله

فأي عشق هذا واي هوى لا يبلى ، ولا ينفك متجددا حتى لو بلغ العمر ببلي
عيا واصبحت تدب على العصا . ان هذا منتهى الروعة في اظهار الاخلاص
في الحب والوفاء .

وقال في وصف محاسن النساء :

ليالي اصبو بالعشي وبالضحى
الى خرد ليست بسود ولا عسل

منعمة الاطراف هيفا بطونها
كواعب تمشى مشية الخيل في الوحل

واعناقها اعناق غزلان رملة
واعينها من اعين البقر النجل

واتلاتها السفلى على ساحل الهوى
واتلاتها الوسطى كتيب من الرمل

واتلاتها العليا كأن فروعها
عناقيد من شهد تفوق جنى النحل

وترمى فسطاد القلوب عيونها
واطرافها ما تحسن الرمي بالنبل
زرعن الهوى في اقلب ثم سقيه
صبايات ماء الشوق من اعين نجل
ربائب افسدن القلوب وانما
هي النبل ريشت بالقتور وبالكحل
فقيم دماء العاشقين مطلّة
بلا قودٍ عند الحسان ولا عقل ؟
ويقتلن ابناء الصباية عنوة
اما في الهوى يا رب في الحكم من عدل ؟
وقال في ليلي :

سقى الله جارات ليلي تباعدت
بهن النوى حيث احتلنن المطايا
ولم يُنسيني ليلي افتقار ولا غنى
ولا توبة حتى احتضنت السواريا
خليلى لا والله لا املك الذي
قضى الله في ليلي ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلاسي بحبها
فهلا شئ غير ليلي ابتلايا

* * *

فان تمنعوا ليلي وتحموا بلادها
عليّ فلن تحموا على القوافيا

فهبلا منعتم اذ منعتم حديثها
خيالا يوافقنا على البعد هاديا
فأشهد عند الله اني احبها
فهذا لها عندي فما عندها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا
وبالشوق مني والغرام قضي ليا
أعدُّ الليالي ليلة بعد ليلة
وقد عشت دهرا لا اعد الليالي
واخرج من بين البيوت لعلني
أحدث عنك النفس بالليل خاليا
اراني اذا صليت يَمَمْتُ نحوها
بوجهي وان كان المصلّي ورائيا
فوالله ما ادري اذا ما ذكرتها
النين صليت الضحى ام ثمانيا
وما بي اشراك ولكن جها
وعظم الجوى اعياء الطيب المداويا
أحب من الاسماء ما وافق اسمها
واشبهه او كان منه مدايا
وأختم بحثي بقصيدته الرائية التي هي من ازوع ما قال :
الا زعمت ليلى بأن لا احبها
ليلى والليالي العشر والشفع والوتر

بلى والذي لا يعلم الغيب غيره
بقدرته تجرى السفائن في البحر
بلى والذي نادى من الطور عبده
وعظم ايام الذبيحة والنحر
لقد فضلت ليلي على الناس مثلما
على الف شهر فضلت ليلة القدر
تداويت من ليلي بليلي من الهوى
كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
اذا ذكرت يرتاح قلبي لذكرها
كما يتعش العصفور من بلل القطر
مُفَلَّجَة الاياب لو ان ريقها
يداوى به الموتى لقاموا من القبر
هي البدر حسنا ، والنساء كواكب
نستان ما بين الكواكب والبدر
يقولون : مجنون يهيم بذكرها
ووالله ما بي جنون ولا سحر
اذا ما نظمت الشعر في غير ذكرها
أبي ، وابيها ، ان يطاوعني شعري
فلا اتعمت بعدي ولا عشت بعدها
ودامت لنا الدنيا الى منتهى الدهر
مضى لي زمان له "أخَيْرُ" بينه
وبين حياتي خالداً آخر العمر

لقلت زريني ساعة وكلاهما
على غفلة الواشين ثم اقطعوا عمري

عليها سلام الله من ذي صباية
وصبّ معني بالوساوس والفكر

فلم يعش قيس بعد ليلاه طويلا .. اذ لما نعاها اليه الناعي اتقبض
صدره وثارته واثرتة واعتلجت في قلبه الهموم والحسرات ، فارتضى على
قبرها يبكي وينوح وينشد :

ايا قبر ليلى لو شهدناك اعولت
عليك نساء من فصيح ومن عجم

ويا قبر ليلى ما تضمنت قبلها
شيئا ليلي ذا عفاف وذا كرم

ويا قبر ليلى غابت اليوم امها
وخالتها والحافظون لها الدم

ثم اطلق ساقيه للريح هائماً في الفلوات ، حتى وجدوه جثة هامدة
في واد كثير الحجارة والرمال ، وقد خط باصبعه عند رأسه البيت التالي :-

توسد احجار المهامه والقفر
ومات جريح القلب مندمل الصدر

وهكذا طويت صفحة من صفحات التاريخ المليء بالعبر وبالأمسى
وبالكدر .

المجون والمهزبات في شعر أبي نواس

الادباء وخاصة الشعراء هم في كل عصر وجيل مرآة عصرهم وببشهم ،
فان قلمهم كريشة فان تعكس ما هي عليه حياة عصرهم الاجتماعية والفكرية
بل والسياسية أيضا .

ولما كانت الحضارة تقضي ان تكون الحياة معقدة التركيب متعددة
المناحي والوجهات لذا فان كل أديب أو شاعر يختص حسب اتجاهه الفكري
والعاطفي بوجهة من تلك الوجهات أو منحى من تلك المناحي فيصورها
أحسن تصوير .

فجد حياة العتب والمجون تقابلها حياة الورع والتقوى ، ونجد الحب
العذرى يقابله الغزل الخليع ، ونجد الطمع والتكالب على الحياة يقابله
الزهد والتسك وكذلك نجد الصراع السياسي والعقائدي وتضارب الآراء
والنزعات الفكرية والفلسفية . فكان في كل جيل وخاصة في العصر العباسي
من الشعراء من يمثلون كل اتجاه من تلك الاتجاهات .

لم تكن حياة المجون مقتصرة على بلد دون آخر . فكان في البصرة
والكوفة والمدينة ودمشق وغيرها مجان ، ولكن بغداد سبقتها جميعا
بمراحل . ولذلك أسباب عديدة :

(أولها) تدفق الثروات على بغداد تدفق السيول . فكانت خزائن
بغداد تمتلئ بالاموال التي تنهال عليها من مختلف الامصار التابعة للدولة .
وكان الاستقرار قد بعث نشاطا هائلا في الاقتصاد المحلي جعل الثروة تنمو

وتزايد ازديادا مطردا • وبلغ الرخاء في بغداد مبلغا عظيما يفوق حد
التصور •

(ثانيا) موقع بغداد في منطقة زراعية غنية تتخللها الانهار والقنوات
وتنتشر فيها البساتين العنّ والحدايق الخضّر المرصعة بالازهار
والرياحين • كما كانت تحيط ببغداد القرى الريفية المحتوية على حانات
الخمير وبيوت اللهو والطرب التي كان يؤمها الخمارون ورواد اللهو
والطرب وقصائد الممذات حيث يجدون فيها الخمور المعتقة والوجوه الصباح
من جوار وغلمان فيقصون فيها ليالي حُمراً ما بين الطاس والكاس على
أنغام الموسيقى الحالمة وشدو المغنين • ومن جملة تلك القرى قطربل
وكلواذى وقطفتا وورثالا وبشورا وغيرها وكلها قرى يسكنها الآراميون من
النصارى السريان • كما قال الشاعر أبو الفرج :

كم للصباية والصبابة من منزل
ما بين كلواذى الى قطربل
جادته من ديم المدام سحابة
اغتته عن صوب الحيا المتهلل
غيت اذا ما الراح اومض برقه
فرعوده حث الثقيل الاول
نطقت مواقع صوبه بسحابة
تهمى على كرب الفؤاد فتجلى
راضعت فيه الكأس اهيف ينثي
نحوي بجيد رشا وعيني مغزل
فاتي وقد نقش الشعاع بنانه
بموج من نسجها ومقبل

وكسا الخضاب بها بناينا ياله
لو انه من وقته لم ينصل
وكان في بعض تلك القرى اديرة للرهبان كدير الروم ودير حنة
وغيرهما ورد ذكرها في اشعار ابي نؤاس ، كان الشعراء يؤمنونها فيقيمون
فيها أياما وليالي يشربون فيها ويلهون ويمرحون •
وقد وصف ابو نؤاس الاديرة التي كان يفتشها ليلال فيها حظه من
الخمير فقال في دير حنة :

يا دير حنة من ذات الاكبراح
من يصح عنك فاني لست بالصاحي
رأيت فيك ظيئة لا قرون لها
يلعبن منا بالبابِ وأرواح
دع التشاغل باللذات يا صاح
من العكوف على الريحان والراح
واعدل الى قبية ذابت نفوسهم
من العبادة نحف الجسم اطلاق
لم يبق فيهم لرائيهم اذا حصلوا
خلاف ما خوفوه غير اشباح
تلقى بهم كل محفوة مفارقة
من الزهاد عليه سحق امساح
لا يدلفون الى ماء بآية
الا اغترافاً من الغدران بالراح
(ثالثها) موقع بغداد الجغرافي المتوسط بين بلدان ذات مدنات مختلفة

وحضارات متشعبة • فكانت موثلاً لعناصر متعددة قصدها من مختلف البلدان • جاء إليها الفرس والترك والهنود بالإضافة الى العرب والى الآراميين واليهود الذين كانوا يقطنون تلك الديار • فكانت بغداد بودقة اصبحت فيها مختلف الحضارات وتمازجت وتفاعلت فطبع الحياة البغدادية بطابع خاص تميز بالطرف وتذوق الحياة والاستمتاع بألوانها وضروبها المختلفة •

ومن الألوان الجديدة في حياة المهو والاستمتاع التي ظهرت في هذا العصر : [أولاً] نشاط سوق الجوارى والغلمان • وقد بلغ الاهتمام بتثقيف الجوارى والغلمان وتعليمهم العلوم والفنون مبلغاً عظيماً ، وكان ذلك يزيد في أمانهم ويعود بالربح الوفير على المتجرين بهم • [ثانياً] كثرة مجالس الشرب حيث القيان الجميلات يشفن الأذان بما طاب من الشدو والنعم فيضفين على الحياة رونقا وبهاء وحيث الرواد يستسقون من أيدي الجوارى القانتات أو الغلمان الذين يكسفون البدر رواء وسناء •

ان حياة العبت والمجون لصيقة بالحياة الحضارية ، ويستفحل امرها عندما تزدهر المدينة ويزداد الرخاء ويعم الثراء • عندئذ ينغمس الكثيرون في بؤرة الرذيلة ويسود العبت لدى الشباب الماخن الذي يندفع وراء الشهوات • ونجد في الشعر والادب مرآة صادقة تعكس تلك الحال • وقد عكس شعر ابي نؤاس ذلك الوجه من الحياة الاجتماعية في العصر العباسي المحصور بين عهدي المهدي والامين وهي الفترة التي تمثل العصر الذهبي حينما بلغ سلطان الخلافة ذروته ، وبلغ الرخاء والترف اقصى حدودهما ، اذ أصبحت بغداد وهي عاصمة الخلافة بيت المال الذي تنهل إليه الاموال من جميع الاقطار والاصقاع الاسلامية • فأصبح الشعراء والمغنون ذوي حظوة لدى الخلفاء ورجال الدولة الذين أخذوا يتذوقون الغناء ويطربون اليه ناغدقوا الهبات والعطايا على اولئك المغنين والشعراء

دون حساب مما هيا لهم أسباب الترف والعيش الرغيد فانغمسوا في حياة
 اللهو والملذات حتى الذقون • هذا بالاضافة الى ما حفلت به بغداد من
 المواضع الجميلة التي كانت تتخذ مسارح للانس واللهو ومجالس للشرب
 تجمع بين جمال الطبيعة وجمال الوجوه • فعبير الشعراء بأشعارهم صادق
 التعبير عما كان يختلج بنفوسهم من مشاعر وأحاسيس وتحدثوا عما كانوا
 يستمتعون به من وسائل الاغراء والامتع • كما قال أبو نؤاس :

لا تبك رسماً يجانب السند
 ولا تجُددُ بالدموع للجرد^(١)

ولا تُعرجِ على معطلة
 ولا أنافٍ خلّت ولا وتد^(٢)

وملّ الى مجلس على شرف
 بالكرخ بين الحديق معتمد^(٣)

ممهّدٍ صفتت نمارقه
 في ظل كرم معرّشٍ خضد^(٤)

قد لحقك الغصون اردية
 فيومك الغضّ بالنعيم ندى^(٥)

ثم اصطحب من اميرة حُجبت
 عن كل عين بالصون والرصد^(٦)

(١) الجرد : الارض الجرداء المقفرة •

(٢) المعطلة : أرض لا نبات فيها • الانافى حجارة الموقد •

(٣) الشرف : المكان العالي •

(٤) النمارق : الوسائد • المعرّش : المرفوعة أغصانه على مساند

خشبية •

(٥) لحف : البس •

(٦) اراد بالاميرة الخمرة •

وقال :

قالوا تَسْكُ بعد الحج قلت لهم
أرى وأرجو وأخشى طيز ناباذاً^(٧)

أخشى قضيَّب كرمٍ ان ينازعني
رأس القطار وان اسرعتُ اغذاذاً^(٨)

ما ابعد النسك من قلب تقسمه
قطربلٌ فقري بني فكلواذاً^(٩)

فان سلمتُ وما قلبي على ثقة
من السلامة لم اسلم ببغدادا

وكان الشعر المجوني الخليع بأيدي جماعة من الشعراء أولهم بشار
ابن برد ومن بينهم والبة بن الحباب وحماد عجرد ومسلم بن الوليد وداود
ابن رزين والحسين بن الضحاك والفضل الرقاشي واسماعيل القراطيسي
وعلى رأسهم جميعاً أبو نؤاس .

أبو نؤاس هو علي الحسن بن هاني . ولد بقرية من قرى خوزستان
من أم فارسية . ونشأ يتيماً فجاءت به أمه الى البصرة فسلمته الى عطار
ليشتغل عنده ويتعلم مهنته . فمكث عنده لا يفتر عن معاناة الشعر والتردد
على الادباء والشعراء اذ كان مولعاً بالعلم شغوفاً بالاشعار وال اخبار . وقد
سمع بذكر والبة بن الحباب وشهرته في الشعر فكان شديد الرغبة للتعرف
اليه ولينهل من مناهل شعره . فاتفق ان مر والبة بالعطار فرأى ابا نؤاس
فتوسم فيه الفطنة والذكاء وتوقد الذهن . فقال له : « اني أرى فيك مخايل

(٧) طيز ناباذ : موضع بين الكوفة والقادسية مشهور بحانات خمره .

(٨) الاغذاذ : الاسراع في السير .

(٩) قطربل وقرى بني وكلواذ مواضع حول بغداد فيها حانات خمر .

أرى الا تضيعها ، وستقول الشعر ، فاصحبي اخرجك » . فقال ابو
نؤاس : « ومن انت ؟ » قال : « انا والبة بن الحباب » . فقال له : « نعم ،
انا والله في طلبك ولقد عزمت على الخروج الى الكوفة لأخذ عنك » .
فصحب ابو نؤاس والبة الى الكوفة وبقي معه ومع ندمائه من شعراء الكوفة
وتخرج عليهم في الشعر ففأفهم جميعا . ثم قدم بغداد وقد اربى على
الثلاثين . وهناك صحب الشعراء وتلقى الدرس على العلماء حتى أصبح
من اشعر اهل عصره واغزرهم علما وألمهم اسما .

كان ابو نؤاس جميل الصورة ، خفيف الروح ، حلو الحديث ،
حاضر البديهة ، فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الالفاظ ، حلو
الشمال ، كثير النوادر ، راوية للاشعار والاخبار . وكان كلامه شعر
موزون ، وله اشعار تكاد ان تسيل من رقتها وعذوبة لفظها ، وجمال
اسلوبها .

اجمع اكثر نقاد الشعر وفحول الشعراء على ان ابا نؤاس اشعر
المحدثين بعد بشار واكثرهم تفننا وارصنهم قولاً وابدعهم خيالا مع دقة
لفظ وبديع معنى . انه شاعر مطبوع ولج أبواب الشعر كلها الا انه امتاز
بخمرياته التي وصف فيها الخمر وصفا « لو سمعه الحسان (الحسن
البرصري وابن سيرين) لهاجرا اليها وعكفا عليها » كما قيل . كما انه
تميز بمقطعاته المجونية التي صدق فيها بتصوير بيئته والتي نقل فيها الغزل
من اوصاف المؤنث الى المذكر مخالفا بذلك مألوف العرب وآدابهم .

قال الجاحظ فيه : « بشار وابو نؤاس معاهما واحد والعدة اثنان .
بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً ولا تعب في عمل شعر ، وابو
نؤاس حل من الطبع بحيث يصل شعره الى القلب بغير اذن » . وحدث
الأمدي عن المبرد قال : « ما تعاطى الشعر أحد من المحدثين احذق من
ابي نؤاس » . وقد نقل عن العتّابي قوله : « والله لو ادرك هذا الخبيث

الجاهلية ، لما فضلت عليه أحدا » •

ولقد قال عمر فروخ في ابي نؤاس : « هو شاعر كبير : كبير اذا
اعتبرنا ديوانه الضخم وعدد الفنون التي يتضمنها ، وهو شاعر كبير اذا
اعتبرنا التجديد الذي دخل مع ديوانه على الشعر العربي ... ان ابا نؤاس
هو الشاعر الذي تجتمع في ديوانه جميع خصائص الشعر العباسي المحدث •
وانه أيضا شاعر كبير لانه أعطى فن الخمر في الشعر العربي صورته
الاخيرة • فلم يكن قبل ابي نؤاس ولا جاء بعد ابي نؤاس من صنع في
الخمر ما صنعه شاعرنا • من اجل ذلك لا نستغرب اذا اكتسب ابو نؤاس
على الدهر في تاريخ الادب العربي لقب شاعر الخمر » •

ان اشعار ابي نؤاس في وصف الخمر ونزغته الى المجون هي التي
تمتاز بالروعة وتميز بالقوة والرصانة وسعة الخيال • فالشاعر عندما تنطلق
نفسه في اجواء المرح وتنشئ باللهو والطرب تفتح قريحته عن شعر رائع
يتسم بالوصف الشائق والظرف الساحر فيترك التحذلق والتنطس ويرسل
عواطفه عبارات رائعة رائعة • ولقد قال ابو نؤاس عن نفسه : « لا اكاد
اقول شعرا جيدا حتى تكون نفسي طيبة وأكون في بستان مؤنق وعلى حال
ارتضيها من صلة أو وصل أو وعد بصلة • وقد قلت وأنا على غير هذه الحال
أبيانا لا ارتضيها » •

لقد تزعم ابو نؤاس حركة التجديد في أسلوب الشعر العربي واعلن
نورته على قيود الشعر القديم وتقاليد كالموقوف على الاطلاق والبكاء على
الديار والآثار ووصف الناقة وهي تحت السير في القيافي والقفار • كقوله :

دع الاطلاق تسفيها الجنوب

وتبلى عهد جدتها الخطوب^(١٠)

(١٠) تسفى : تذرى التراب • الجنوب : الريح الجنوبية •

واخلُ لراكب الوجناء ارضا
 تحثُ بها النجبية والنجيب^(١١)
 ولا تأخذُ عن الاعراب لهواً
 ولا عيشاً فعيثهم جديب
 ذر الالبان يشربها اناس
 رقيق العيش غدهم غريب
 بأرض نبتها عشر وطلح
 واكثر صيدها ضبع وذيب^(١٢)
 اذا راب الحليب قبل عليه
 ولا تُحرجُ فما في ذلك حوب^(١٣)
 فأطيب منه صافية شمول
 يطوف بكأها ساق اريب
 اقامت حبة في قعر دن
 تفور وما يُحسن لها لهيب
 كأن قراتها في الدن تحكى
 قِراءة القس قابله الصليب
 تمدُّ بها اليك يدا غلام
 أغنَ كآته رشاً ريب
 غذته صنعة الدايات حتى
 زها فزها به دلٌ وطيب

-
- (١١) الوجناء : الناقة القوية • النجبية والنجيب : الابل •
 (١٢) العشر والطلح : نبت من نباتات الصحراء •
 (١٣) الحوب : الاثم •

يكاد من الدلال اذا تثنى
عليك ومن تواقطه يذوب

فهذا العيش لا خيم البوادي
وهذا العيش لا اللبن الحليب

فاين البدو من ايوان كسرى
واين من الميادين الزروب^(١٤)

اعاذل اقصر عن بعض لومي
فراجي توتبي عندي يخيب

تعيرني الذنوب وأي حر
من الفتيان ليس له ذنوب

غررت بتوتبي ولججت فيها
فشق اليوم جيك لا اتوب

وقوله :

عاج الشقى على رسم يسائه
وبت اسأل عن خمارة البلد

بيكي على طلل الماضين من اسد
لا در درك قل لي من بنو اسد ؟

ومن تميم ؟ ومن قيس ولفهما
ليس الاعاريب عند الله من احد

(١٤) الزروب : زرائب الغنم .

وقوله :

دع الرسم الذي دتّرا يقاسي الريح والمطرا
وكن رجلا اضاع العد سم في اللذات والخطرا
الم تر ما بنى كسرى وسابور^(١٥) لمن غبرا
منازه بين دجلة والفرات اخصها الشجرا
لارض باعد الرحمن عنها الطلح والعشرا
ولم يجعل مصايدها يرايعاً ولا وحرأ^(١٥)
ولكن حور غزلان تُراعى بالملا بقرا
فذاك العيش لا سيداً بقفرتها ولا وبرأ^(١٦)
اذا ما كنت بالاشيا في الاعراب معتبرا
فانك ايما رجل وردت فلم تجد صدرا

اما شعره الغزلي فعلى ظرفه وعذوبته أحيانا نراه مقتفرا الى العاطفة
القلبية . انه لا يجلو غير الغرائز الحيوانية التي تم عن تحرق شهواني نحو
العديدات من الجواري المتهتكات والغلمان الفاسدين . ولعله في الغزل
الغلماني كان اصدق عاطفة من الغزل النسائي . وانه يصف الجارية بأوصاف
الغلام والغلام بسماوات الجارية . كما قال في وصف جارية :

غلام والّا فالغلام شبيها وريحان^(١٥) دنيا لذة للمعاق

وقال في غلام :

من كف ذي غنج حلو شمائله كأنه عند رأى العين عذراء
هذا وان ابا نؤاس لم يكن صادقا في حبه لانه تغزل في العديد من

(١٥) اليرابيع جمع يربوع : حيوان كالقار : الوحر : دويبة سامة .

(١٦) السيد : الذئب . الوبر : حيوان بحجم القط .

النساء ولم يكن دافعه الى ذلك الا النزوات الغريزية • ولقد عرضت عليه
حسناً ليتزوجها فقال :

ولو انها في الحسن كانت كيوسف
وبلقيس أو كانت كخطـ مثال

وقالت : تزوجني على مهر درهم
لقلت اغربي عني فمهرك غال

واليكم نبذا من شعره في الغزل النسائي ، قال في دنائير :

صليت من جها نارين واحدة
بين الضلوع واخرى بين احشائي

وقد حميت لساني ان ابين به
فما يعبر عني غير ايمائي

يا ويح أهلي ابلى بين اعينهم
على الفراش وما يدرون ما دائي

لو كان زهدك في الدنيا كزهدك في
وصلى مشيت بلا شك على الماء

وقال في جنان :

ولقد سبك منعم ميسان مبتهج ريب

خود" يجول وشاحها في طي مثرها كتيب

واذا تقوم لسانها يمشي بأعلاها قضيب

فالويل لي ما حل بي قد شفتني حزن مذيب

بين الجوانح والمفاصل كالشرار له لهيب

وقال في منية :

ابتْ عيناى بعدك ان تماما
وكيف ينسام من ضمن السقاما
بكيت من الفراق لما ألقى
وراجعت الصبابة والغراما
رجعت الى العراق برغم انفي
وفارقت الجزيرة والشاما
على شط الشام وساكنيه
سلام مسلم لقي الحماما
مذكورة مؤثثة مهياة
اذا برزت تشبهها الغلاما

وقال في فناة اسمها حُسن :

طفلة خَوْدٌ رداح هام قلبي بهواها
قدها احسن قد فاسألوا من قد رآها
ما براها الله الا فتة حين براها
تشر الدر اذا غدت علينا شفتاها
وترى للعود زهوا حين تحويه يداها
ربما اغضيت عنها بصري خوف سناها
هي همي ومنائي ليتي كنت مناها
وقال :

اني عشقت وما بالعشق من باس
ما مر مثل الهوى شيء على راسي

مالي وللناس لم يلدوني سفها
ديني لنفسي ودين الناس للناس

ما للعداة اذا ما زرت مالكتي
كأن اوجههم تطلى بانقاس

الله يعلم ما تركي زيارتكم
الا مخافة أعدائي وحراسي

ولو قدرت على الاتيان جثكم
سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراس

وقد قرأت كتابًا من صحائفكم
لا يرحم الله إلا راحم الناس

وقال في غزل المذكر :

غزال به فتر وفيه تانت
واحسن مخلوق واجمل من مشي

أقول له يوما وقد مضى الهوى
اطلت عذابي فيك يا خير من نشا

فقال : ألما يأن ان ترك الصبا
ومالك يا هذا ؟ ومالي ؟ وما تشا ؟

فقلت له : أقصر عن اللوم سيدي
فمن ذا يطبق الصبر عن مشبه الرشا

ارى لك وجها فتت القلب حسنه
به ينجلي كربى وقد ينجلي الغشا

وقال :

سقى الله ظيباً مبدى الغنج في الخطر
يميس كفصن البان من رقة الخضر

بعينه سحر ظاهر في جفونه
وفي نشره طيب كفاتحة العطر

هو البدر الا ان فيه ملاحظة
بتفسير لحظ ليس للشمس والبدر

ويضحك عن ثغر مليح كأنه
'جباب' عقار او نقي من الدر

جفائي بلا جرم اليه اجترته
وخلفني نضواً خلياً من الصبر

ولو بات والهجران يصدع قلبه
لجاد بوصلٍ دائمٍ آخر الدهر

وقال :

واهيف الخضر مهضوم الحشا غنج
يصبو اليه الذي قد صام او عبدا

في طرفه حور ووجهه قمر
كأنه غصن بان جانب الاودا

والثغر درّ وخداه ووجنته
تبرّ اضاءت عليه الشمس فاتقدا

والحاجبان فمخطوطان من حمم
كأن عطفهما نونان قد عَقدا

والله ما أن رأيت عيني لها شبيهاً
حُسناً وملحاً ونوراً جلد البدا
يا قادح النار في قلبي بمقلته
وموتقى بحبال الحب مضطهدا
لو قص عشر الذي لاقت يا أملي
على البرية ما ابقى بها احدا
سيقيا لوجهك يا من ليج في قسم
ان لا ينول خيراً عاشقاً ابدا
اظمأت عبدك حتى ما به رمق
اما يحين له المسكين ان يردا
لولا شقاوة جدي ما شُغفت بكم
ولا مددت الي من لا ينيل يدا
ولا زرعت الي من ليس يرحمني
ولا عرفت البكا والشوق والسهدا
وقال أيضا :

الا ان من اهواه ضنّ بوده
واعقبني من بعد ذلك بهده
فواحزنا بعد المودة انه
ليدخل عني بالسلام ورده
دعائي اليه حسنه وجماله
وسحر بعينه وخال بخده

كأن فرند المرهفات بخده
ويختال ماء الورد تحت فرنده (١٧)

فلم ار مثلي صار عبداً مثله
ولا مثله يوماً أضرَّ بعبده
وقال :

ايها الناس ارحموني وتمشُّوا لي اليه
كلّموه في سكون لا تشقنَّ عليه
كلّموه اليوم يرضى عن اسير في يديه
لو رأيتم حين يمضي ويكسر حاجبيه
في أزارٍ قد لواه ثم دلّى طرفيه
قلتم ذا الفتك حقاً ليس ما نحن عليه

هذا وان ابا نوّاس كان يحب الجهر بالمنكر فان بالجهر به لديه
لذة أي لذة فيقول :

غدوت الى اللذات منهنك السر
وافضت بنات السر مني الى الجهر
وهان عليّ الناس فيما اريده
بما جئت فاستغيت عن طلب العذر
رأيت الليالي مرصداً لمديتي
فبادرت لذاتي مبادرة الدهر
وقال :

لاح اشراق الصباح فاطرد الهمّ براح

(١٧) الفرند : جوهر السيف ووشيه • المرهف : السيف المرقق
حده •

لستُ بالتارك لذات الندامي للصلاح
 قل لمن يبغي صلاحي بعثُ رشدي بصلاح
 ظفرت كف اديب باع برأ بجناح
 اطيب اللذات ما كان جهاراً بافضاح
 وقال :

الحمد لله اني على حداثة سني
 فقتُ المحيين طراً بعض ما شاع عني

وقال ردأ على ابي العتاهية الذي نصحه بالتوبة والرجوع عن غيه :

اتراني يا عتاهي تاركاً تلك الملاهي
 اتراني مفسداً بالنسك بين المرد جاهي

واما شعر الخمريات عند ابي نؤاس فانه فريد في بابه من حيث
 كنهه وكيفه . وكان هذا الشاعر اغزر الشعراء نظماً في الخمر واكثرهم
 ابداعاً في وصفها ووصف مجالسها وندمائها مما لم يعرف الشعر العربي
 له مثيلاً . ومما تفرّد به ابو نؤاس انه الف قصائد كاملة
 في الخمر ولم يعد ذلك كما هو الشأن عند من سبقه كطرفه والاعشى
 والاخلطل مجرد غرض يمر به الشاعر عرضاً ، كما قال عمر فروخ في
 شعر ابي نؤاس الخمري انه « زاد على كل من تقدمه وفاق كل من جاء
 بعده في وصف الخمر لانه جعل منها موضوعات تامة ذات تفاصيل ، وقصر
 القصيدة على الخمر كما قصر عمر بن ابي ربيعة القصيدة على الغزل » .
 ومما تميز به شعر ابي نؤاس انه اذ يتحدث عن الخمر يتحدث
 عنها حديث العطوف العاشق الذي انفذها في قرارة نفسه واتخذها صفة
 روحه . قال :

بادر الكأس نهارة واشرب الراح العقاراً
 واسقنيها مثل ما شربها كيلاً عياراً

خندريساً تفصح المسك وتحكى الجلناراً^(١٨)
 فاذا اكرت فيها الدماء زادتك خماراً
 فامض في اللذات قدماً واخلمن فيها العذارا
 واجعل البستان بيتاً واجعل القرية داراً
 وأطيرُ فيها حماماً واربط فيها المهاري
 واذا كان قطافاً وتوقعت العصارا
 فاطبخ الراح بشمس فكفى بالشمس ناراً
 وقال أيضاً :

ألا لا تلمني في العقار جليسي
 ولا تلحني في شربها بعبوس
 لقد بسط الرحمن مني مودة
 اليها ومن قوم لديّ جلوس
 تعشقها قلبي فبغض عشقها
 الى من الاموال كلّ نفيس
 جئتُ على عذراء غير قوية
 شديدة بطش في الزجاج شמוש
 ترى كأسها عند الزجاج كأنها
 نرثت عليها حلّى رأس عروس
 فتهتك استار الضمير من الحشا
 وتبدي من الاسرار كل جيس

(١٨) الخندريس : الخمرة المعتقة (كلمة يونانية) • الجلنار :
 زهر الرمان (فارسية) •

وقال :

لا تحفِلنْ بقول الزاجر اللاحي
واشرب على الورد من مشمولة الراح^(١٩)

صهبا صافية تجديك نكهتها
تنفس المسك ملطوخوا بتفاح

حتى اذا سلست في قعر باطية
اغناك للأواها عن ضوء مصباح^(٢٠)

ما زلت اسقى جيبي ثم الثمه
والليل ملتحف في نوب امساح^(٢١)

حتى تغنى وقد مالت سوائفه
(يا دير حنة من ذات الاكيراح)^(٢٢)

ولم يكن ابو نؤاس يكتفي بالوصف الظاهري للخمرة ، بل اودعها
قرارة نفسه ونزهها تنزيه العابد لمعبوده واغرق في ذلك ايما اغراق :
كقوله :

انن على الخمر بالاثها
وسمها احسن اسمائها

(١٩) اللاحي : اللائم . المشمولة : المبردة بريح الشمال .

(٢٠) سلسلت : صببت . الباطية : اناء الخمر .

(٢١) الامساح : ثوب أسود من الصوف يلبسه الراهب .

(٢٢) الاكيراح : تصغير اكراح جمع كرح : لفظة سريانية معناها
بيت الراهب . وذات الاكيراح مكان قرب بغداد فيه بيوت صغار يسكنها
الرهبان وبالقرب من تلك البيوت ديران دبر عبدا ودير حنة .

لا تجعل الماء لها قاهرا
 ولا تسلطها على مائها
 كرخية^(٢٣) قد عتقت حبة
 حتى مضى أكثر اجزائها
 فلم يكدر يدرك خمّارها
 منها سوى آخر حوائها^(٢٣)
 دارت ، فأحيت ، غير مذمومة
 نفوس حسراها وانضائها^(٢٤)
 والخمر قد يشربها معشر
 ليسوا اذا غدوا باكفائها
 وتأمل في وصفه الخمر وتشبيهه اياها بانها روح الدن وانها تصيف
 روحاً ثانية لشاربها فكان ابداعاً في الخيال ايما ابداع ، قال :
 ما زلت استلّ روح الدنّ في لطف
 واستقى دمه من جوف مجروح
 حتى اثنت ولي روحان في جسدي
 والدنّ منطرح^(٢٤) جسماً بلا روح
 وقال في وصفه شارب الخمر :
 ومستطيل على الصها باكرها
 في قبة باصطباح الراح حذّاق

(٢٣) الحوباء : النفس .
 (٢٤) حسراها : المتحسرون على شربها . انضائها : المهزولون من
 وجدهم بها .

فكل شيءٍ رآه ظنه قدحاً
وكل شخص رآه ظنه الساقى
ثم ينتقل الى وصف الشاربين ويصف تأثير الخمر فيهم بكل دقة
ولباقة ، قال :

فقلنا له ان المدام غداؤنا
وانا اولو عقلٍ وأهلُ بصائر
فجاء بها قد انهك العمر جسمها
واوجعها في الصيف حرَّ الهواجر
فقلت لها لما اضاء سناؤها
على صحن كأسٍ قد علا الكف زاهر :

« ابني لنا ، يا خمر ، كم لك حجة ؟ »
فقلت : « لحاك الله لست بذاكر »

شهدت ثمودا حين حل بها البلى
وادركت اياماً لعمرو بنِ عامر
وأخيراً اجمل ابو نؤاس الشروط التي يجب ان تتوفر في الندامى
لكي يكون المجلس طيباً وتكون الحفلة ممتعة :

نفس المدامة اطيب الانفاس
اهلاً بمن يحميه من انجاس

فاذا خلوت بشربها في مجلس
فاكفف لسانك عن عيوب الناس

في الكأس مشغلة وفي لذاتها
فاجعل حديثك كله في الكاس

صفو التعاشر في مجانية الأذى
وعلى اللبيب تخير الجلاس
وتأملوا في المقطوعة التالية التي تنتزع الاعجاب لجمال اسلوبها ومثانة
مبناها وروعة سبكها :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تُسقني سراً اذا امكن الجهر

فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة
فان طال هذا عنده قصر الدهر

وما الغبنُ الا أن تراني صاحباً
وما الغنمُ الا أن يتعني السكر

فبح باسم من تهوى ودعني من الكنى
فلا خير في اللذات من دونها ستر

ولا خير في فكٍ بغيرِ مجانية
ولا في مجنونٍ ليس يتبعه كفر

وكذلك في المقطوعة التالية بما فيها من حسن سبك ورشاقة تعبير :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند
واشرب على الورد من حمراء كالورد (٢٥)

كأسا اذا انحدرت في حلق شاربها
أجدته حمرتها في العين والخذ (٢٦)

فالخمر ياقوتة ، والكأس لؤلؤة
في كف جارية مشوقة القد

(٢٥) لا تطرب : لا تحزن .

(٢٦) اجدته : اعطته .

سقيك من عينها خمراً ومن يدها
خمراً ، فما لك من سكرين من بد
لي نشوتان ، وللدمان واحدة ،
شيء خصصت به من بينهم وحدي (٢٧)

ولا يشرب ابو نؤاس الا من يدي رشاً ملىح ، فيقول :
عاطيها كما وصفت ، خليلي ،
من يدي شادن رخيـم الكلام
وجهه البدر ، والمدامة بدر
يا لبدرين ركبـا في نظام

كلما دارت الكؤوس تغنى :
« من لقلبٍ متيمٍ مستهام »

وما ابدع تشبيهه الخمر في المقطوعة التالية بالنور حتى التبس على
الشاربين فيما اذا كان الخمر ناراً ام النار خمراً :

وفية نازعوا - والليل معتكر -
برقاً تلوح به ايدٍ واقداح

اذكى سراجا ، وساقى القوم يمزجها
فلاح في البيت كالمصباح مصباح

كدنا ، على علمنا بالشك ، نسأله :
« اراحنا نارنا ام نارنا الراح ؟ »

ومما ابتدعه ابو نؤاس « القصص الخمري » . فانه يصف بأسلوب
قصصي ممتاز حفلات اللهو والقصف والشراب فيصف بنت الكرم وصفا

(٢٧) الندمان : النديم على الشرب تستعمل للمفرد وللجمع .

دقيقا ، ثم يتحدث عنها حديث الومق العاشق ، فيصف اثرها في الشارين ،
فينتقل الى تصوير مجالس الشراب تصويرا فيه رقة وعذوبة ، وفيه رونق
وبهاء . وقد يجمع كل تلك المعاني في القصيدة الواحدة فتأتي متسلسلة
متصلة بعضها كأحسن ما يكون الاتصال . واليكم همزته المشهورة :

يا رَبِّ مجلس فيانِ سموتُ له
والليلُ محتبسٌ في نوبِ ظلماءِ

لشربِ صافيةٍ من صدرِ خابيةٍ
تغشى عيونَ نداماها بلاألاءِ

كأنَ منظرها والماءِ يقرعُها
ديباجُ غانيةٍ أو رقمُ وثاءِ

تستنّ من مرجٍ في كفِ مصطبحِ
من خمرِ عانةٍ ، او من خمرِ سورا

كأنَ قرقره الأبريقِ بينهمُ
رجعُ المزاميرِ أو رجيعُ فأفاهِ

حتى اذا درجت في القومِ واتش
سرت همّت عيونهم منها باغفاء

سألت تاجرها كم ذا لعاصرها
فقال : قصر عن هذاك احصائي

انبئت ان ابا جدي تخيرها
من ذخر آدمٍ أو من ذخر حواءِ

ما زال يمطل من يتاب حاتها
حتى أتتني وكانت ذخر موتائي

ونحن بين سأتين فتفحنا
 ريح البنفسج لا نشر الخزاماء
 يسعى بها خث ، في خلقه دم
 يستأثر العين في مستدرج الرائي
 مقرط ، وافر الورداف ذو غنج
 كأن في راحته وسم خاء
 قد كسر الشعر واوات ونضده
 فوق الجين ، ورد الصدغ بالفاء
 عيناه تقسم داء في محاجرها
 وربما نفعت من صولة الداء
 اني لأشرب من عينه صافية
 صرفاً واشرب أخرى من ندامتي
 ولائم لاني جهلاً فقلت له :
 اني وعيشك مشغوف بمولائي
 وقال واصفا حفلة من الحفلات الصاخبة في ليالي السمر الملاح بين
 الطاس والكاس والخضرة والوجوه الصباح :
 تعاتبني على شرب اصطباج
 ووصل الليل من فلق الصباح (٢٨)
 وما علمت بأنني اريحي
 احب من الندامى ذا ارتياح
 فرب صحابة بيض كرام
 بهاليل غطارفة صباح (٢٩)

(٢٨) فلق الصباح : انبلاج الفجر .

(٢٩) البهاليل جمع بهلول : من جمع صفات الخير . الغطارفه جمع

غطريف : السيد الشريف . الصباح جمع صبيح : الجميل .

الى حانات خمر في كروم
معرّثة ، مُعرجة النواحي

فأقبل ربُّها يسعَى النيا
يهتسى بالفلاح وبالنجاح

فقلت : الخمر ! قال : نعم واني
بها لبني الكرام لذو سماح

فجاء بها تخبُّ كماه مُزَن
وانشأ مشدأ شعر اقتراح

« اتصحو بل فؤادك غير صاح
عشيّة همَّ صحك بالرواح »

ودار بكأنا رشاً رخيم
لطيف الكشح مهضوم الوشاح

وقال : اتبرحون غداً فقلنا
وكيف نطيقُ بَعْدك من رواح

فخالفتنا ، فأكرنا ، فمنا
الى ان همَّ ديكٌ بالصياح

وقال بالمعنى نفسه يصف حفلة انس وطرب :

دع الربع ، ما للربع فيك نصيب ،
وما أن سبتي زينب وكعبوب

ولكن سبتي البابلية ، انها
لثلي في طول الزمان سلوب

جفا الماء عنها في المزاج لأنها
 خيال ، لها بين العظام ديب
 اذا ذاقها من ذاقها حلتقت به ،
 فليس له عقل يعدّ ، اريب
 وليفة دجن قد سريت بقتية
 تنازعها نحو المدام قلوب^(٣٠)
 الى بيت خمار ودون محلته
 قصور "منيفات" لنا ، ودروب
 ففرّع من ادلاجنا بعد هجعة
 وليس سوى ذى الكبرياء رقيب^(٣١)
 تاوم خوفاً ان تكون سعاية
 وعاوده بعد الرقاد وجيب^(٣٢)
 ولما دعونا باسمه طار ذعره
 وايقن ان الرجل منه خصيب
 وبادر نحو الباب سعياً ملياً
 له طرب بالزائرين عجيب
 فاطلق عن نايه ، وانكبّ ساجداً
 لنا ، وهو فيما قد يظن مصيب^(٣٣)

-
- (٣٠) ليلة دجن : ليلة غيم مطبق ومطر .
 (٣١) ادلاجنا : سيرنا في الليل . الهجعة : النومه الخفيفة . ذو
 الكبرياء : الله تعالى .
 (٣٢) الوجيب : خفقان القلب من الهلع .
 (٣٣) اطلق عن نايه : كناية عن الضحك أو التبسم .

وقال : ادخلوا ، حَيِّتِمُ من عصابة
 فمَنزلكم سهلٌ لَدِيَّ رَحِيْبٌ
 وجاء بمصباح له ، فأناره ،
 وكلّ الذي يبغي لَدِيه قَرِيبٌ
 فقلنا : ارحنا ! هات ان كنت بائعاً
 فانّ الدجى عن ملكه سيغيب
 فأبدي لنا صهباً ، تمّ شبابها ،
 لها هرجٌ في كأسها ووئوب
 فلما اجتلاها للندامى بدا لها
 نسيمٌ غير ساطعٍ ولهيب
 فجاء بها تحدو بها ذاتٌ مزهريه
 يتوق اليها الناظرون ، ريب (٤٣)
 كيبٌ ، علاه غصنٌ بان ، اذا مشى
 تكاد له صمٌ الجبال تيب (٣٥)
 واقبل محمودُ الجمال ، مقرطقٌ
 الى كأسها ، لا عيب فيه اريب (٣٦)
 يشم الندامى الورد من وجناته ،
 فليس به غير الملاحه طيب

(٣٤) المزهر : العود .

(٣٥) تيب : تخشع .

(٣٦) المقرطق : اللابس القرطق وهو ضرب من الثياب . الاريب :

المهذب العاقل .

فما زال يسقينا بكأسٍ مجدَّةٍ
 تُوَلَّى ، وأخرى بعد ذلك تؤوب
 وغنى لنا صوتاً بحسن ترجع
 « سرى البرق غربياً فحنَّ غريب »
 فمن كان منا عاشقاً فاض دمعته
 وعأوده من بعد السرور نجيب
 فمن بين سرور ، وبالك من الهوى
 وقد لاح من ثوب الظلام غيوب
 وقد غابت الشعري العبور واقبلت
 نجوم الثريا بالصباح ثوب
 واليكم وصفا للخمرة ابدع فيه ابو نؤاس ايما ابداع حتى ليشبهها
 بالنور للطافتها ورقتها ، وبالذواء الشافي الذي لو مسه حجر مسته سراء !
 دع عنك لومي فان اللوم اغراء
 وداوني بالتي كانت هي الداء
 صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها
 لو مسها حجر مسته سراء
 من كف ذات حير في زي ذي ذكر
 لها مجبان لوطي وزناء
 قامت بابريقها ، والليل معتكر
 فلاح من وجهها في البيت لألاء
 فأرسلت من فم الأبريق صافية
 كأنما اخذها بالعين اغفاء

رَقَّتْ عن الماء حتى ما يلائمها
 لطافةً ، وجفا عن شكلها الماء
 فلو مزجتَ بها نوراً لمازجها
 حتى تولدُ أنوار واضواء
 دارت على فتية دان الزمان لهم ،
 فما يصيهمُ إلا بما شاؤوا
 لتلك أبكي ، ولا أبكي لمنزلة
 كانت تحلُّ بها هند واسماء
 حاشا لدرّة ان تُبنى الخيام لها
 وان تروحَ عليها الابلُ والشاء
 فقل لمن يدعى بالعلم فلسفة
 حفظتَ شيئاً وغابت عنك اشياء
 لا تحظُر العفو ان كنت امرؤاً حرجاً
 فان حظركه في الدين ازراء

اجل لقد كان ابو نؤاس مرآة عصره التي تعكس حياة اللهو والمجون
 في المجتمع والبيئة اللذين عاش فيهما . لذا فقد افتنن باشعاره معاصروه
 وطربوا اليها حتى لقد قيل فيه : « لم يكن شاعر في عصره الا وحسده
 لميل الناس اليه وشهوتهم معاشرته . وتقرن هذه الخفة الروحية بجمال
 فني يستهوى القارىء ويستثير فيه حاسة الطرب والاعجاب » . كيف لا
 وهو القائل في وصف الكأس :

ودارِ ندامى عطلوها وأدلجوا
 بها اثرٌ منهم جديدٌ ودارس^(٣٧)

(٣٧) ادلج : سار في آخر الليل . الدارس : الممحو والعافي .

مساحب من جرّ الزقاق على الثرى
 واضغاث ريحانٍ جنىً ويابس (٣٨)
 حبست بها صحبى فجددتُ عهدهم
 واني على امثال تلك لحابس
 ولم ادر منهم غير ما شهدتُ به
 بشرقي ساباط الديار البساس (٣٩)
 اقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً
 ويوماً له يوم الترحل خامس
 تدار علينا الراح في عسجدية
 جبتها بأنواع التصاوير فارس (٤٠)
 قرارتها كسرى ، وفي جنباتها
 مهىً تدربها بالقسي الفوارس (٤١)
 فللخمر ما زرتُ عليه جيوبها
 وللماء ما دارت عليه القلائس (٤٢)

(٣٨) اضغاث جمع ضغث : قبضة حشيش يختلط فيها الرطب
 باليابس .

(٣٩) ساباط : بلد بمداين كسرى . البساس جمع بسبس :
 القفار .

(٤٠) عسجدية : منسوبة الى العسجد ، الذهب . أي اناه مصنوع
 من الذهب .

(٤١) قرارتها : قعرها . المهيا : الغزال . تدربها : تخاطلها .

(٤٢) الجيب : طوق القميص . القلائس جمع قلنسوة : ما يلبسه

الفرسان على رؤوسهم .

الزهد في شعر أبي القاسم

كان الشر في الانسان اصيلا ، وكان الخير فيه دخيلا . الشر مصدره
الانانية وحب الذات الاصيلين في الطبيعة البشرية ، والخير منبعه الروح
الاجتماعية والشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع . لذا فان الشر يسبق الخير
في طبيعة الانسان . وان عالمنا الارضي مليء بالآثام والعدو والعدوان
وسفك الدماء .

فالعمل الآثم هو العمل الذي يستهدف تحقيق فائدة ما لشخص ما
على حساب مصلحة مجتمعه ، أو تحقيق فائدة ما لمجتمع ما على حساب
مصلحة المجموعة الانسانية بان يسبب ضررا الى المجموع .

فهناك تضارب في الحياة البشرية والاجتماعية بين مصالح الافراد وبين
مصلح المجتمع . ومن هنا نستنتج ان الشر كامن في تحقيق مصلحة ما للفرد
يجلب الضرر للمجتمع ، والخير هو في التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة
المجتمع . انه في الحد من حرية الفرد عن اتيان الاعمال التي تضر
بالآخرين أو بالمجموع في سبيل حفظ نظام المجتمع وصيانة حريات الافراد
الآخرين .

لذا فقد كان الشر والخير صنوين متلازمين منذ ان كان الانسان على
وجه الغبراء . فقد كان في مختلف العصور الاشرار والى جانبهم الاخيار ،
كان المفسدون والصالحون ، المعتدون والمسالمون ، الفجار والزهاد
المتسكون .

ولقد كان أصحاب الرذيلة في مختلف حقب التاريخ هم الاكثرية
وأصحاب الفضيلة قليلون لان الفضيلة تابعة من المعرفة وأصحاب المعرفة
قليل عديدهم ولكنهم مع قلتهم كانوا دوماً يمسكون بزمام الموقف ويوجهون
الجماهير نحو الحياة الصالحة والسلوك الفاضل . فكانوا هم قادة الفكر
في كل زمان ومكان . فكان منهم الحكماء ، وكان منهم الفلاسفة ، وكان
منهم رجال الدين والقديسون . وكانوا جميعا يبشرون بالخير والصلاح
وينذرون عن الشر والفساد . لذا فإن التراث الفكري والادبي لجميع
الشعوب يزخر بالوعظ والارشاد وتبنيه الغافلين على سوء مغبة اعمال الشر
والضلال .

فأدب الزهد هو رد فعل لما تعانيه الامم من آفات الشرور والآثام ،
لذا نجد فيه الكثير من المبالغة والتطرف في التزهيد عن الحياة والتذكير
بالموت .

ولم يكن الادب العربي أقل شأنًا من غيره في هذا المضمار . فقد
زخر بأدب الوعظ والدعوة الى الزهد منذ الجاهلية الاولى . وحسبنا ان
نذكر أسماء امية بن ابي الصلت وورقة بن نوفل وزهير بن ابي سلمى
وزيد بن عمرو . وكلهم جالوا جولات واسعات في ميدان الوعظ والارشاد
والدعوة الى الزهد والتسك والتقوى .

قال ورقة بن نوفل شعرا يتضمن عقيدته الدينية وفيه امتداح للنسك
والتزهد :

لقد تصحّت لأفوامٍ وقلت لهم
انا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبدن آلهما غير خالقكم
فان دعوتهم فقولوا يتنا حد

سبحان ذي العرش سبحانا نعوذ به
وقبل قد سبح الجودي والجمد

مُسَحَّرٌ كل ما تحت السماء له
لا ينبغي ان يناوى ملكه احد

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الاله ويودي المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلصوا

ولا سليمان اذ دان الشعوب له
والجن والانس تجري بينها البرد
وقال امية بن ابي الصلت :

وحالات دنيا لا تدوم لاهلها
وبينا الفتى فيها مهيب مُسَوِّد

اذا انقلبت عنه وزال نعيمها
واصبح من ترب القبور يُوسِّد

فكن خائفًا للموت والبعث بعده
ولا تك ممن غره اليوم او غد

فانك في دنيا غرور لاهلها
وفيها عدو كاشح الصدر يوقد

وشيه بهذا قول زهير بن ابي سلمى :

الا لا ارى على الحوادث باقيا
ولا خالدًا الا الجبال الرواسيا

الم تر ان الله اهلك تبعا
 واهلك لقمان بن عاد وعاديا
 الا لا ارى ذا امة اصبحت به
 فتركه الايام وهي كما هي
 الم تر للنعمان كان بنجوة
 من العيش لو ان امرأ كان ناجيا
 فابن الذي قد كان يعطى جواده
 بارسانهن والحصان الحواليبا
 رأيتهم لم يشركوا بنفوسهم
 منيته لما رأوا أنها هي

ولقد ظهر الزهد في العصر الاسلامي منذ ايامه الاولى وقد كانت في
 حياة الرسول الاكرم والخلفاء الراشدين قدوة • واشتدت الحركة الزهدية
 في العصر الاموي وذلك بتأثير عاملين أساسيين - كما يرى غولد زيهر -
 وهما : المبالغة في الشعور بالاثم والخوف من عقاب الله وعذاب الآخرة •
 وكان على رأس هذه الحركة الزهدية الحسن البصري الورع التقي الذي
 عده الصوفية واحدا منهم • ملاً الدنيا وعظا وارشادا ، تزهدا في الدنيا
 وترغيبا في الآخرة ، تشويقا الى الجنة وترهيبا من النار • قال : « يا ابن
 آدم بع دنيا بأخرتك تريحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما
 جميعا • يا ابن آدم ، اذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، واذا رأيتهم
 في الشر فلا تغبطهم به • الثواء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل ••
 فالوحاء الوحاء ، والنجاء النجاء ••• •

وكانت تلك النزعة الزهدية ردة فعل لحياة البذخ والترف واللهو
 والمجون والغزل الاباحي الذي كان سائدا في المدن آنذاك ، كما جاء في

كتاب « شهيدة العشق الألهي » : « هناك مجلس الحسن البصري تسوده رغبة ذلك الزاهد الجليل وهو يلقي مواعظه الضاربة في فيافي الزهد فيستدر الدمع من مآقي الحاضرين ، أو يستحيل الى مجلس ذكر تتردد فيه الاذكار الصافية والادعية الناضرة ... فاذا ما جن الليل وسكن الاحياء وجست خلال المدينة ترامت الى مسامعك انغام اللهو العنيف في نفس الوقت الذي يقرع اذنيك فيه تضرعات المتهجدين القاتنين . هنا اللاهون بمخرون بزوارقهم الزاهية في مياها تلك القنوات المشابكة يعزفون يعزفون بزوارقهم الزاهية في مياها تلك القنوات المشابكة يعزفون يستلهمون الموت والقبر افكارا وموضوعات للتأمل الحزين والعظة البالغة والعزوف عن الدنيا » .

اما العصر العباسي فكان اولى من غيره بظهور الزهاد المتقين لما انتشر فيه من لهو وفسق ومجون ومن ترف وبذخ فائقين . فقد تحقق الاستقرار في هذا العصر بعد عناء الفتوح فعم الرخاء وانتشر الترف . فكانت بغداد عاصمة لدولة متسعة الرقعة متباعدة الاطراف ، تجبي الاموال لها من جميع الاصقاع . فكانت المبالغ الطائلة من الثروات ترد الى خزائن الخلفاء فتملوها تبرا ولجينا ... وكان شطر كبير من تلك الثروات يوزع على المحظوظين من الشعراء والادباء والوزراء وكبار رجال الدولة الذين يلقون حظوة لدى صاحب العرش والتاج أو من معتمديه .

فازدهرت الصناعة والتجارة والزراعة . فحفرت الانهار والترع وشيدت الجسور وبنيت السفن التي كانت تنقل التجار واموالهم الى اقاصى الارض ، وان من التجار من كانت قيمة بضاعته تبلغ الملايين من الدراهم . فلا غرو ان كانت الثروات الطائلة تدفق على الدولة وعلى الافراد فينتشر الرخاء وتعم الرفاهية .

ف قيل ان المنصور خلف اكثر من اربعة عشر مليون دينار ، والرشيدي

تسعمائة مليون درهم • ومنح خالد البرمكي بشار بن برد الف درهم لكل بيت من قصيدته التي مدحه بها ، ووهب يحيى بن خالد اسحق الموصلني مائة الف درهم ، ووهب المهدي المغني ابن دحمان مائة الف دينار • وكانت توزع الجواهر والاموال في حفلات الزواج دون حساب • هذا بينما كان الكثيرون يشنون من الفقر ويبتون على الطوى •

ولقد حملت الفتوح الاسلامية فيما حملت الرقيق من جوار وغلمان • فشاعت تجارته ، وتنافس الناس على اقتناء الجوارى والغلمان ، وتفنن النحاسون في جمع الرقيق من كلا الجنسين وغالى الناس في دفع اثمانهم • وقيل ان الرشيد بذل ثلاثين الف درهم في مغنية اسمها عنان ، وان الامين اشترى جارية بملء حرافة ذهباً أي ما يعادل عشرين مليون درهم • فافتى الاغنياء اثر الملوك فقد كان لابراهيم الموصلني عدد من الجوارى بلغ تسن احدهن ثلاثين الف دينار •

فاسبغت هؤلاء الجوارى على الحياة الاجتماعية مسحة الظرف والمجون وانتشرت مجالس اللهو والطرب ، وكان لتلك المجالس آدابها وظرفاؤها • فافتن الناس بالجوارى واغرموا بالغناء واندفعوا وراء بنت الحان يكرعون منها الكؤوس مترعة • فعمت العصر موجة من التهتك والخلاعة وتفاخر الناس باتيان المعاصي •

كل هذا حمل في ثناياه طلائع الردة الروحية التي تسلت في حركة الزهد • فبادر بعض العقلاء والصالحين لبذل الجهد في سبيل صد هذا التيار الجارف بالدعوة الى التقى والتزهد بملذات الدنيا الاثيمة •

وكان على رأس هؤلاء اسماعيل بن القاسم المكنى بأبي العتاهية •

نشأ في عصر صراع حاد بين القوميات وبين المعتقدات وبين الآراء المتضاربة والفلسفات وبين سلوك أفراد المجتمع الصالحين والطلالحين • ففي

الوقت الذي كان بشار بن برد وابو نؤاس واضرابهما منغمسين في الملدات
والفسوق حتى الذقون نجد امثال ابراهيم بن ادهم والفضل بن عياض
ورابعة العدوية وغيرهم من دعاة الزهد والورع يملأون الدنيا صلاحا
ورشادا •

ولما كان القول في الغزل عاما في تلك الايام بين الشعراء لم يفت
شاعرنا ان ينظم في الغزل • حيث انه هوى احدى جواري المهدي واسمها
عبّبة فآكثر من التغزل بها :

يا عَبَّبةُ سِيدتي اما لك دين
حتى منى قلبي لديك رهين
وانا الذلول لكل ما حملتني
وانا الشقي البائس المسكين
وانا الغداة لكل باك مسعد
ولكل حب صاحب وخدين
لا بأس ان لذاك عندي راحة
للصعب ان يلقى الحزين حزين
يا عبّبة اين افر منك اميرتي
وعلى حصن من هواك حصين

وقال في وصفها :

عيني على عبّبة منهلة
بدمعها المنسكب السائل
كانها من حسنها درة
اخرجها اليوم الى الساحل

كأن في فيها وفي طرفها
 سواحر أقبلن من بابل
 بسطت كفي نحوكم سائلا
 ماذا تردون على السائل
 ان لم تلبوه فقولوا له
 قولا جميلا بدل النائل
 لم يبق من جها ما خلا
 حشاشة في بدن ناحل
 يا من رأى قبلي قبلا بكى
 من شدة الوجد على القائل

ولكن تغيرت أخلاق الشاعر عند ولاية الهادي بعد وفاة أبيه ، فلها
 عن ذكر عتبة واخذ بالتزهد وانغمر بدراسة المتكلمين وفلسفة اليونان
 وأقوال الحكماء .

ولم يأت عصر الرشيد حتى اضرب عن كل قول عدا الزهد فقصر
 شعره على النسك والتزهد في الدنيا والتذكير بالموت . وفي ذلك قال
 أبو العلاء المعري :

الله ينقل من شا . رتبة بعد رتبة
 ابدى العتاهي نسكا . وتاب عن عب عتبة

كان أبو العتاهية فصيح اللسان مطبوعا على الشعر حيث كان يقوله
 على سجيته من غير تصنع أو اجهاد . قال الجاحظ : « سمعت ابا العتاهية
 يقول : لو شئت ان يكون حديثي كله شعرا موزونا لفعلت » .

اما اسلوبه الشعري فكان يتصف بسهولة اللفظ ورشاقة التعبير .

ولقد اعجب به الكثيرون من النقاد والادباء . ولقد وصف الخطيب
البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) شعر ابي العتاهية فقال : « وكان سهل
القول ، قريب المأخذ ، بعيدا عن التكلف ، متقدما في الطبع » . وقال
ابن الاثير في كتابه (المثل السائر) واصفا شعر ابي العتاهية : « وهذا
أبو العتاهية كان في عز الدولة العباسية ، وشعراء العرب اذ ذلك موجودون
كثيرا . واذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري رقة الفاظ ولطافة سبك
وليس بركيك ولا واه » .

ولقد فتح ابو العتاهية بابا جديدا في الشعر العربي هو باب الزهد
لم يلجحه الا القلائل من الشعراء الذين سبقوه ، فصالح فيه صولة شاعر
قدير . فغرف الشعراء بعده من معينه الذي لا ينضب ، وكان له فضل
الاسبقية في هذا المضمار .

اما المعاني التي حام حولها أبو العتاهية فهي عبارة عن المسائل
الاخلاقية ، فيها الوعظ والارشاد ، وفيها الترغيب بالعمل الصالح ، وفيها
التنديد بالشرور والاثام واكتناز المال من حلال وحرام ، وفيها الحث على
الزهد في الدنيا والتذكير بالموت والترهيب من عواقب عدم اطاعة الله .

فحظى هذا الاتجاه بالقبول في نفوس الخاصة من الناس فاكبروا
الشاعر من اجله واجلوه واحلوه في مرتبة سامية بين اقرانه من الشعراء
الذين عاصروه .

يشعر القارئ اشعاره كأنه امام منبر واعظ يرشد الى سبل الخير
والصلاح بأسلوب شاعري رشيق يثير الاعجاب ويدخل الطمأنينة الى
النفوس بالرغم مما فيه من وعظ دائم التطرق الى بحث الموت ووصف
القبور .

واليكم بيتين من أبيات ابي العتاهية يتطرق فيهما الى التزهيد بالمال

والتنديد بمطامع الانسان واباطيل الحياة :

لدوا للموت وابنوا للخراب
فكلّكم يصير الى تباب
لمن نبني ونحن الى تراب
نصير كما خلقنا من تراب
وقال :

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه
تملكه المال الذي هو مالكة
الا انما مالي الذي انا منفق
وليس لي المال الذي انا تاركه
اذا كنت ذا مال فبادر به الذي
يحق والا استهلكته مهالكه
وقال في التزهيد في الدنيا وغرورها :

الم تر ريب الدهر في كل ساعة
له عارض فيه النية تلمع
ايا باني الدنيا لفيرك تبتني
ويا جامع الدنيا لفيرك تجمع
ارى المرء وثابا على كل فرحة
وللمرء يوما لا محالة مصرع
تبارك من لا يملك الملك غيره
متى تنقضى حاجات من ليس يشبع

وأي امرئ في غاية ليس نفسه
إلى غاية أخرى سواها تطلع

وقال :

لعمرك ما الدنيا بدار بقاء
كفأك بدار الموت دار فناء
فلا تعشق الدنيا أخي فأنما
يرى عاشق الدنيا بجهد بلاء

حلاوتها ممزوجة بمراة
وراحتها ممزوجة بعناء

فلا تمش يوما في ثياب مخيلة
فأنك من طين خلقت وماء

لعلك تلقى امر ربك شاكرا
وقل امرؤ يرضى له بقضاء
وقال يصف الدنيا بانها سراب زائل والتكالب عليها امر ياطل :

طلما حلا معاشي وطابا
طلما سجت خلفي الثيابا

طلما طاوعت جهلي ولعبي
طلما ناهزت صجبي الثرابا

طلما كنت احب التصابي
فرماني سهمه واصبليا

ايها الباني قصورا ظوولا
اين تبغي هل تريد السحابا

انما انت بوادي المنايا
ان رماك الموت فيها اصابا
ايها الباني لهدم الليالي
ابن ما شئت ستلقى خرابا
أأمنت الموت والموت يأبى
بك والايام الا انقلابا
لو ترى الدنيا بعين جدير
انما الدنيا تحاكي السرابا
انما الدنيا كفىء تولى
وكما عاينت فيه الضبابا
وقال في ذم الدنيا :

رجعت الى نفسي بفكري لعلها
تفارق ما قد غرّها واذلها
نقلت لها يا نفس ما كنت آخذنا
من الارض لو أصبحت املك كلها
فهل هي الا شبعة بعد جوعه
والا مني قد حان لي ان أملها
أرى لك نفسا تبتغي ان تعزها
ولست تعز النفس حتى تذللها
وقال في القناعة :

سأفنع ما بقيت بقوت يوم
ولا ابغني مكاترة بمال

تعالى الله يا سلم بن عمرو
اذل الحرص اغتاق الرجال

فما ترجو لشيء ليس يبقى
وشيكاً ما تغيره الليالي

وقال موجها اللوم الى نفسه ومحذرا اياها عن مغبة اطماعها :

حتى متى يستفزني الطمع
اليس لي بالكفاف متسع

ما افضل الصبر والقناعة
للناس جميعا لو أنهم قنعوا

واخذع الليل والنهار لاقوام
اراهم في الغنى قد رتعوا

لله در الدني فقد لعبت
قلمي بقوم فما ترى صنعوا

اثروا فلم يدخلوا قبورهم
شيئا من الثروة التي جمعوا

وكان ما قدموا لانفسهم
اعظم نفعاً من الذي ودعوا

وقال :

طلبت الغنى في كل وجه فلم اجد
سبيل القنى الا سبيل التعفف

خليلي ما اكفى اليسير من الذي
نحاول ان كنا بما عفا نكتفي

وما اكرم العبد الحريص على الندى
واشرف نفس الصابر المتعفف
ومن قول ابي العتاهية في التبرم من الناس واستناسه بالوحدة :
برمت بالناس واخلاقهم نصرت استأنس بالوحدة
ما اكثر الناس لعمرى وما اقلهم في حاصل العدة
ومن أقواله في التذكير بالموت ، فتراه يصور الموت الرهيب بصورة
صديق مؤاس ينقذ الناس من تقلب الزمان :

الا يا موت لم ار منك بدا
اتيت وما تحيف وما تحابى

كانك قد هجمت على مشيبي
كما هجم المشيب على الشباب

وانك يا زمان لذو صروف
وانك يا زمان لذو انقلاب

اراك وان طليت بكل وجه
كحلسم النوم أو ظل السحاب

ولقد استشهده المأمون أحسن ما قال في الموت فأنشده :

انساك محياك الممانا فطلبت في الدنيا الثباتا
اوثقت بالدنيا وان ست ترى جماعتها شتانا
وعزمت منك على الحيا ة وطولها عزمنا تباتا
يا من رأى ابويه في من قد رأى كانا فمانا
هل فيهما لك عبرة ام خلت ان لك انفلاتا
ومن ذا الذي طلب النفا ت من ميتة ففانا

كل تصحبه المنية اذ تيته بيانا
وقال وهو يتعجب ممن لا يهتم بأخوته :
سبحان ربك ما اراك تتوب
والرأس منك بشيه مخضوب

سبحان ربك ذي الجلال اما ترى
نوب الزمان عليك كيف تتوب
سبحان ربك كيف يغلبك الهوى
سبحانه ان الهوى لغلوب

سبحان ربك ما تزال وفيك عن
اصلاح نفسك فترة ونكوب

سبحان ربك كيف يلتذ امرؤ
بالعيش وهو بنفسه مظلوب

وقال منددا باولئك الذين لم تزددهم السنون عظة وعبرة ولم ينضج
التقدم في العمر الباهم :

خليلي كم من ميت قد حضرته
ولكنسي لم اتفح بحضوري

ومن لم يزدده السن ما عاش عبرة
فذاك الذي لا يستتير بنور

اصبت من الايام لين اعنة
فاجريتها ركضا ، ولين ظهور

متى دام للدنيا سرور لاهلها
فاصبح منها واقفا سرور

وقال :

ركنا الى الدنيا الدنيئة ضلّة
وكشفت الاطماع منا المساويا

وانا لثرمى كل بعيرة
نراها فما تزداد الا تماديا

تسرُّ بدار اورتنا تضاغنا
عليها ودار اورتنا تعاديا

اذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
تقلب عريانا وان كان كاسيا

اخى كن على يأس من الناس كلهم
جميعا وكن ما عشت لله راجيا

وانشد ابو العتاهية في معرض الوعظ والارشاد :

ما احسن الدنيا واقبالها اذا أطاع الله من نالها
من لم يؤاس الناس من فضلها عرّض للادبار اقبالها

وقال داعيا لعمل المعروف واصطناع الخير :

خير أيام القى يوم نفع
 واصطناع الخير ابقى ما صنع

ونظير المرء في معروفه
شافع مَتَّ اليه فشفع

ما ينال الخير بالشر ولا
يحصد الزارع الا ما زرع

خذ من الدنيا الذي درت به
واسأل عما بان منها وانقطع

انما الدنيا متاع زائل
فاقتصد فيه وخذ منه ودع

وارض للناس بما ترضى به
واتبع الحق فعمم المتبّع

وايغ ما اسطعت عن الناس الغنى
فمن احتاج الى الناس ضرع

قد بلونا الناس في اخلاقهم
فرايناهم لنذي المال تبع

وقال داعيا للزهد والتقوى :

دعني من ذكر اب وجد
ونسب يعليك سور المجد

ما الفخر الا في التقى والزهد
وطاعة تعطى جنان الخلد

وقال بهذا المعنى :

الا انما التقوى هي العز والكرم
وجبك للدنيا هو الذل والعدم

وليس على عبد تقى نقيصة
اذا صحح التقوى وان حاك أو حجم

وقال يدعو الى خوف الله واطاعته :

ليس يرجو الله الا خائف
من رجا خاف ومن خاف رجا
قلما ينجو امرؤ من فتنه
عجبا ممن نجا كيف نجا
ترغب النفس اذا رغبتهما
واذا زجيت بالشيء زجا

ولأبي العتاهية ارجوزة تعد من روائع الشعر قيل انها جمعت اربعة
آلاف مثل ، فقدت اكثر ابياتها ولم يصلنا الا النزر القليل . منها قوله :

حسبك مما تبقيه القوت
ما اكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفا
من اتقى الله رجا وخافا

هي المقادير فلمنسي أو فندر
ان كنت اخطأت فما اخطا القدر
لكل ما يؤذى وان قل ألم
ما اطول الليل على من لم ينم

ما انتفع المرء بمثل عقله
وخير ذخره المرء حسن فعله
ان الفساد ضده الصلاح
ورب جد جره المزاح
ان الشباب والقراغ والجيد
مفسدة للمرء أي مفسده

ما تطلع الشمس ولا تغيب
الا لأمر شأنه عجيب

لكل شيء معدن وجوهر
واوسط واصغر واكبر

وكل شيء لاحق بجوهره
اصغره متصل بأكبره

ما زالت الدنيا لنا دار اذى
ممزوجة الصفو بألوان القذى

ومن اشعاره قصيدة يذكر فيها الانسان ان مصيره الزوال وان الناس
يسونونه حالما يستودعونه الارض ويوارونه التراب . قال :

فاذا ما استودعوه الارض رهنا تركوه

خلفوه تحت رمس اوقروه ، اقلوه

ابعدوه ، اسحقوه اوحدهوه ، افردوه

ودعوه ، فارقهوه اسلموه ، خلفوه

واتثنوا عنه وخلو . كأن لم يعرفوه

وقيل ان هارون الرشيد كان مما يعجبه غناء الملاحين في الزلازل اذا
ركبها . الا انه كان يتألم من فساد كلامهم ولحنهم . فطلب ان يوعز لبعض
الشعراء نظم شعر يغنيه الملاحون . فقبل : ليس احد اقدر على هذا من
ابي العاتية . فوجه الرشيد اليه - وكان في السجن - طلبا لان ينظم
شعرا يشدو به الملاحون ، ولم يأمر باطلاق سراحه ، فغاضه ذلك وقال :
والله لأقولن شعرا يحزنه ولا يسر به . ولما ركب الرشيد الحراقة سمع
الملاحين يغنون ما يلي وهو الشعر الذي نظمه أبو العاتية :

خاتك الطرف الطموح	ايها القلب الجموح
لدواعي الخير والشـ	ر دُنُوْ و ونزوح
هل لمطلوب بذنب	توبة منه نصوح
كيف اصلاح قلوب	انما هن قروح
احسن الله بنا	ان الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا	بين توبه فضوح
كم رأينا من عزيز	طويت عنه الكشوح
صاح منه برجيل	صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الار	ض على قوم فتوح
سيصير المرء يوماً	جسدا ما فيه روح
بين عيني كل حي	علم الموت يلوح
كلنا في غفلة وال	موت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الدنـ	يا غبوق وصبوح
رحن في الوشى وأقبل	من عليهن المسوح
كل نطاح من الدهـ	ر له يوماً نطوح
نح على نفسك يا مسـ	كين ان كنت تتوح
لست بالباقي وان عمـ	رت ما عمّر نوح

فلما سمع الرشيد ذلك أخذ يبكي ويتنحب ، وكان الرشيد من اغزر
الناس دمعا في وقت الموعظة . ولما رأى وزيره الفضل بن الربيع كثرة
بكائه اوماً الى الملاحين ان يسكتوا ...

واليكم مقطوعة شعرية كتبها الى هارون الرشيد الذي كان قد نوانى
في اخراجه من السجن وفيها ما فيها من النصيح والارشاد والتذكير بالموت
والتوجيه الى العمل الصالح :

اما والله ان الظلم لُومُ
 وما زال المي هو الظلوم
 الى ديَّان يوم الدين نمضي
 وعند الله تجتمع الخصوم
 لامر ما تصرف الليالي
 وامر ما توليت النجوم
 تموت غدا وانت قرير عين
 من الغفلات في لجج تعوم
 تام ولم تم عنك المنايا
 تبه للمنية يا نؤوم
 سل الايام عن امم تقضت
 ستخبرك المعالم والرسوم
 تروم الخلد في دار المنايا
 وكم قد رام غيرك ما تروم
 هذا ونهي بحثنا بمقطوعة شعرية جمع فيها أبو العاتية فلسفته
 في الحياة :

رغيف خبز يابس	تأكله في زاويه
وكوز ماء بارد	تشربه من صافيه
وغرفة ضيقة	نفسك فيها خاليه
او مسجد بمعزل	عن الورى في ناحيه
تدرس فيها دفرا	مستدا بساريه

معتبراً بمن مضى من القرون الخالية
خير من الساعات في فيء القصور العاليه
تعقبها عقوبة تصلى بنا حاميها
فهذه وصيتي مخبرة بما ليه
طوبى لمن يسمعها تلك لعمرى كافيه
فاسمع لنصح مشفق يدعى ابا العتاهيه

الفلسفة في شعر العربي

تفرد هذا الشاعر العملاق من بين الشعراء القدامى ونسج على منوال آخر يختلف عما افه اولئك من طرائق ومذاهب . فهو نسيج وحده بين القدماء وسابق لاوانه دون سائر الشعراء ، فوجه شعره وجهة تباين ما افه الشعراء قبل من مدح وفخر وتزلف وهجاء . . فلم يكن شعره يدور حول نفسه لاشباع مطامعه كما كان شعر الآخرين بل تسامى الى مراقبي العظمة النفسية ، فزهده في الدنيا ولم تستهوه مفاتها أو يخلب له لألؤها . واعتكف مجيلا النظر الى ما حوله ، باحثا عن سر الوجود ، محللا الروح البشرية ، ومنتقدا سوءات المجتمع ، وموجها الانسان الى الخير والصلاح . لقد انفرد هذا الحكيم في عهده بمزية النظر الحر الى الكون والى المجتمع البشري فلم يكن قبله من حمل حملته على الفساد وعلى الاوهام وسخر بكل ما افه الناس من بدع وترهات وهو القائل :

كأن حواء التي زوجها
آدم لم تلقح بشخص اريب

قد كثرت في الارض جهائنا
والعاقل الحازم فينا غريب

لقد تميز شعر العربي بالاغراب والتكلف شأنه شأن المدرسة التي تضم فيما تضم من الشعراء ابا تمام والمتنبي وغيرهما ، وهو يأتي في المكان

الأول من حيث وضوح الشعور وصفائه وقوته كما امتاز أدبه ، في شعره
وشره ، بأسلوبه الساخر اللاذع ... هذا ولما رأى المعري الجنس البشري
في كيانه الفردي وكيانه الاجتماعي على غير ما اراده ان يكون صار ينظر
الى الوجود الانساني بمنظار قاتم من التشاؤم . فاتجه تفكيره الى نزعة
النقد ، والى تجريد الواقع ، والى تعرية الحقيقة من كل ملبساتها . فلم
تسلم حتى نفسه من القدح والتفريع في بعض ثوراته النفسية حيث قال :

دُعيتُ ابا العلاء وذاك ميسن

ولكن الصحيح أبو النزول

اما الصفة السائدة في شعر ابي العلاء فهي تأملاته الفلسفية ، فكان
دوماً معنياً في تقصي الحقائق عن حياة الانسان بوجه خاص ؛ فكان يتجه
اليها بنفسه وعقله ، ويبدل لها الحظ الاوفر من عواطفه وتأملاته .. لم
خلق الانسان ؟ وكيف يواجه الحياة ؟ وما هي المؤثرات التي تؤثر في
سلوكه ؟ والى اين مصيره ؟ ... انها مشاكل عالجهما الفلاسفة بقولهم
فأشبعوها بحثاً وتمحيصاً بصورة منظمة دسمة ترضى العقل والمنطق .
ولكنها في تأملات ابي العلاء صدى لانسانيته فيتحدث عنها بعقله وروحه
وقلبه معا ...

هذا ولما كان المعري مشغول الفؤاد بمشاكل الفلسفة ومعضلات
الوجود فلا ريب انه اصطدم اول ما اصطدم بمشكلة « المعرفة » والوسائل
المؤدية اليها . ولقد جاء بكتاب ابي العلاء في الفصول والغايات ما يلي :

« يدرك العلم بثلاثة أشياء : بالقياس الثابت ، والعيان المدرك ، والخبر
المتواتر .. » أي ان التوصل الى المعرفة يجري بطرق ثلاث : (١) العقل
(٢) الحس (٣) النقل ..

لقد كان ايمان المعري بالعقل وبقدرته على التوصل الى الحقائق وحل

المشاكل ايمانا شديدا . فالبحر في الدعوة الى الانتماء به والاهتداء بهديه .
فالعقل هو المرشد ، وهو الهادي ، وهو السبيل الحق الى المعرفة ، وهو
الاداة لحل طلائع هذا الكون واجلاء اسراره . . قال :-

فكروا في الامور يكشف لكم
بعض السني تجهلون بالتفكير
وقال :-

ولم يتناول درة الحق غاص
من الناس الا بالروية والفكر
وقال محذرا من نبذ العقل وعدم الاهتداء بهديه :-

فاحذر ولا تضع الامور مضاعة
وانظر بقلب مفكر متبصر
وقال :-

تركت مصباح عقل ما اهتديت به
والله اعطاك من نور الحجا قيسا
وقال :-

والعقل كالبحر ما غيظت غواربه
شيئا ، ومنه بنو الايام تغترف
وقال :-

كذب الناس لا امام سوى العقول
ل مشيرا في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحمة
ة عند المسير والارساء

وأما الحسن والنقل فقد جعلهما المعري في المرتبة الثانية إذ جعلهما
مقيسين على العقل • فما أقره العقل فهو مقبول ، ومرفوض ما أنكره العقل •
قال :-

وما تريك مرآتي العين صادقة
فاجعل لنفسك مرآة من الفكر

وقال :-

جاءت أحاديث ان صحَّتْ ° فإن لها
شأنا ، ولكن فيها ضعف اسناد
فشاور العقل واترك غيره هدرا
فالعقل خير مشير ضمه النادي

ولقد قاد المعري اعتماده على العقل الى الاعتقاد بان الخير انما هو
وليد المعرفة كما قال ذلك افلاطون من قبله • ارتأى افلاطون ان المعرفة
تقود الى الخير ، ولما كانت المعرفة وليدة العقل الرشيد والفكر السديد ،
ففي رأيه ان العقل اذن لا بد مؤد الى الخير والصلاح ، وان الائم والخطيئة
ان هما الا وليدا العقول السقيمة التي لا تنفذ الى حقائق الأشياء •

استطاع ابو العلاء بتأقب بصيرته ان يدرك عيوب المجتمع في جملتها
وتفصيلها ، وبالعلاج ظواهرها • وانغمر في النفس الانسانية في دقة وتحليل
فوصل الى دخالها • • وكان سبب نجاحه ان الامور الاجتماعية والاخلاقية
التي فقدتها في صميم اختصاص العقل • • فالعقل اداة صالحة لربط
الاسباب بالمسيبات • والامور الاجتماعية والاخلاقية هي سلسلة من تجاريب
وتائجها • • فالحكام ان ظلموا ساءت أحوال الرعية ، وان هم عدلوا
صلحت أحوالها • •

ولما كان العالم حافلاً بألوان الشر والأذى فقد أفاض أبو العلاء في نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه • وأصبح مغرقاً في التشاؤم ، دقيق الحس لما في العالم من شر وأذى ، صادق الحزن لما يصبب المخلوقات من ضر والم • قال في اللزوميات :-

أرى دنياك خالطها قذاها
وأعيت أن يهذبها مصفَى

وقال :-

في كل أرض صروف غير هائلة
يلعبن بالناس أفراداً وازواجاً
ورأى شاعرنا في هذا العالم اصنافاً من الشر عديدة عجز عن تأويلها
ووقف امامها حائراً يجهل الحكمة في خلقها فقال :-

والله يقدر ان يفنى بريته
من غير سقم ، ولكن جنده العلل

وقال :-

لييب القوم تألفه الرزايا
ويأمر بالرشاد فلا يطاع

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً
فذلك هو الذي لا يستطاع

وقال وهو حائر في الحكمة من الحرب وسفك الدماء :-

والله اذا خلق المعادن عالم
أن الحداد البيض منها تجعل^(١)

(١) الحداد البيض : السيوف •

سفك الدماء بها رجال اعصموا
بالخيل تلجم بالحديد وتعمل
وقال أيضا وهو ممتعض من رؤيته الارزاق تُغْدَق على البعض دون
حساب ، ويحرم منها الكثيرون من المحتاجين :-

وقد يرزق المجدود أوقات أمة
ويحرم قوتا واحد" وهو احوج

وثارت نائرة نفس المعري وهو يرى المظالم الاجتماعية التي ترك
الكفاءات والصفات العالية والالباب الرشيدة في قلة من رزقهم وتغدق
العطاءات على كل مغمور طائش احمق ، فقال :-

وما زالت الأقدار تترك ذا النهى
عديما ، وتعطي منية النفس غمرها

ولقد اعلى المعري شأن العقل كما ذكرنا فاستخدمه بنقد العادات
والتقاليد والنظم الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره ، فقال :-

مُلَّ المقام فكم اعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها امرأؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وقال بنفس المعنى :-

إذا ما تينا الامور تكشفت

لنا وامير القوم للقوم خادم

فانتقد اولئك الحكام الذين يصدرون الاوامر التي لا تتفق مع احكام

العدالة والانصاف ، فينفذون اوامرهم بقوة النار والحديد وبحد الحسام •
فاذا ما نفذت اوامرهم قيل ما اجودهم سياسة ! •• فقال :-

يسوسون الامور بغير عقل
فينفذ امرهم ويقال ساسة

فأف من الحياة وأف مني
ومن زمن رئاسته خساسة

ولقد زاد في الم المعري ان يرى الحكام المسيطرين الذين نقصتهم
الحكمة ، واعوزهم العدل والذين هم شياطين في ثياب ولاة لا يهمهم جوع
الناس ومسغبة الرعية ما دامت بطونهم ملاءى ورؤوسهم منتشية ، فقال :-

ساس الانام شياطين مُسَلَّطَة
في كل مصر من الوالين شيطان

من ليس يحفل خمص الناس كلهم
ان بات يشرب خمرا وهو مبطان

وكان مما اثار حفيظة شاعرنا الانساني ان يرى حول اولئك الولاة
بطانة جمدت عواطفهم فأصبحت كأنها حجارة او اشد قسوة ، لا يرحمون
مظلوما ولا يستجيبون لصرخة مستغيث ، فقال :-

يجوز فينفي الملك عن مستحقه
ففسكب اسراب العيون الدوامع

ومن حوله قوم كأن وجوههم
صفا لم يُلَيِّنَنَّ بالغيوث الهوامع

* * *

ولقد انغمز المعري في ميدان الحرب الضروس القائمة بين القائلين

بان الشر كالخير من خلق الله ودليلهم على ذلك ان عكسه يحد من قدرة الخالق ، وبين اولئك الذين يدعون ان الشر هو من صنع الانسان ولا شأن للمخالق به ودليلهم على ذلك تنزيههم للباري من صنع الشر .

ولقد ايد المعري المنحى الاول ، مذهب الجبرية ، فقال :-

والله اختار البقاء وطوله
الا لشر عباده ابليا

وقال :-

حوتنا شرور لا صلاح لمثلها
فان شد منا صالح فهو نادر
وما فسدت اخلاقنا باختيارنا
ولكن بأمر سيئه المقادر

وقال :-

ولست بفاتح للرزق بابا
اذا أيدي الحوادث اغلقت
ومن يظفر بأمر يتغيه
فأفضية المهيمن وقتته

فليس لبني الانسان تخير في حياتهم وسلوكهم ومماتهم . فكلها مقدره منذ الازل . وليس للانسان القدرة الا ان يقدر غير ان الفلك المسخر دائر فتضحك الاقدار . قال المعري :-

ما باختيارى ميلادي ولا هرمي
ولا حياتي ، فهل لي بعد تخير

وقال :-

تبارك رب الناس ليس لما أبي
مريد^(١) ، ولا دون الذي شاء حابس

وقال :-

ما حرَّكتَ قدم ولا بسطت يد
الا لها سبب من المقدار

وقال :-

لو ينطق السيف نادى ليس لي عمل
اذا قضى مالك الافلاك أنضاني^(٢)
وان كهمت^(٣) فأمر الله اكهنسي
وان مضيت فأمر الله امضاني^(٣)

وقال أيضا :-

تقفون والفلك المسخر دائر
وتقدرون فتضحك الاقدار

هذا وان اعتقاد المعري بمذهب الجبرية قاده الى الشك بامر الثواب
والعقاب ، لان من كان مجبرا على فعل شيء فمن الظلم ان يعاقب على
فعله ، كما قال :-

ان كان من فعل الكبائر مجبرا
فمقابله ظلم على ما يفعل

(٢) انضاني : هزلني ، بلاني .

(٣) كهمت : جبن وخاف . مضى : أقدم .

والله ، اذ خلق المعادن ، عالم
أن الحداد البيض منها تجعل
سَفَكَ الدماء بها رجالاً اعصموا
بالخيل تلجم بالحديد وتعمل
لا تسمى في نار الضمير فراشة
فضغائن الصدر الحريق المشعل

ولقد غالى أبو العلاء في جبريته حتى لقد اقتنع ان نفس الانسان
مجبولة على الشر الذي هو غريزة قوية من غرائزه . فالانسان والحالة
هذه مغلوب على امره ولا يملك الخير لنفسه . قال في اللزوميات :-

جسمي انجاس فما سرني
أني بمسك القول ضُمَّخْتُ

من وسخ صاغ الفتى ربه
فلا يقولنَّ توسخنت

وقال :-

والشر في الجسد القديم غريزة
في كل نفس منه عرق ضارب

وقال :-

فكيف لا تخبت النفس التي جعلت
من جسمها ، في وعاء كله دنس

وقال :-

ان الضلالة كالغريزة فيكم
ياوى اليها كهلكم وفتاكم

وقال :-

فلا تعذلينا ، كلنا ابن لثيمة
وهل تعذب الائمة ان لؤم الغرس

وقال :-

مهجتي ضدٌ يحاربني انا مني كيف احترس

وقال :-

نهائى عقلي عن امور كثيرة
وطبعي اليها بالغريزة جاذب
ولقد افراط المعري في مغالاته في شرور النفس البشرية وعزاها الى
قوى قاهرة لا سبيل الى مقاومتها ، فقال :-

واذا غدوت على القضاء مغالبا
أذناك تستمري وانفك يرغم

وقال :-

ارتاحت النفس بتطهيرها وربها قاض بتدنيسها
وقال :-

لم يقدر الله تهديا لعالمنا
فلا ترومنَّ للاقوام تهديا

وقال :-

قضى الله فينا بالذي هو كائن
فم وضاعت حكمة الحكماء

وهل يابق الانسان من ملك ربه
فيخرج من أرض له وسما^(٤)

(٤) أبق : فر وهرب .

وقد جنح الى القسوة في تأنيب المذنبين من بني آدم وتقريرهم ،
فقال :-

ارى الناس شراً من زمان حواهم
فهل وجدت للعالمين حقائق
فقد كذبوا عن ساعة ودقيقة
وما كذبت ساعاتهم والدقائق
وقال :-

هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطر
فما بقوا ، لم يبارح وجههم دنس
والارض ليس بمرجوة طهارتها
الا اذا زال عن آفاقها الأنس
ولقد ضاق المعرى بالناس واعتكف عنهم وتحاشى قربهم وزاد في
تعنيفهم مستكراً ما يقترفون من آثام ، اذ قال :

اذا حضرت عندي الجماعة اوحشت
فما وحدني الا صحيفة ايناسي
طهارة مثل في التباعد عنكم
وقربكم يجنى همومي وادناسي
وقال :-

فؤادك خفاق ، وبرقك خافق
واحياك في الدنيا خليل موافق
تخير ، فاماً وحدة مثل مية
واماً جليس في الحياة منافق

وقال :-

فأوسع بنى حواء هجرأ فانهم
يسرون في نهج من الغدر لاجب
إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم
الى الغي طبع أخذه غير صاحب

وقال :-

وماذا يتغى الجلاء مني
ارادوا منطقي وادرت صمتي
ولقد اشتد تشاؤمه من الحياة ، وازداد تبرمه من المجتمعات
البشرية وهو يشاهد ما فيها من ظلم وعدوان ، ومن فقر ومرض وآلام فاخذ
يلوم الدهر الخؤون ، فقال :-

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البرية أن يكوا
تحطّنا الايام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعادله سبك

وقال :-

خسئت يا أمنا الدنيا فأف لنا
بنو الخسيصة ، اوباش اخساء
بموج يحرك والأهواء غالبية
لراكييه فهل للسفن ارساء ؟
واشتدت مرارته من الحياة وظهر في اشعاره انين مكبوت ، وتبرم

من الحياة ، سائلا القدر ان يعجل بورود الاجل ، فلقد سمّ المقام في دنيا
مرهقة مملوءة بالموبقات والآثام ، فقال :-

ربّ متى أرحل عن هذه الد
نيا فاني قد اطلت المقام
لم ادري ما نجمي ولكنه
في النحس مذ كان ، جرى واستقام
فلا صديقي يترجى يدي
ولا عدوى يتخشى انتقام
والعيش سقم" للفتى منصب
والموت يأتي بشفاء السقام
وقال :-

رغبنا في الحياة لفرط جهل
وقد حياتنا حظا رغب
وقال :-

تعب كلها الحياة فما اعد
حجب الا من راغب في ازدياد
ان حزننا في ساعة الموت اضعا
ف سرور في ساعة الميلاد
وقال :-

ضجة الموت رقدة" يستريح ال
جسم فيها والعيش مثل السهاد

* * *

لقد كان المعري ، الفيلسوف الشاعر ، يمثل العقلية الفلسفية احسن تمثيل وذلك باعتماده على العقل واتباعه سنة التشكك في سبيل التوصل الى اليقين ، وباخلاصه للحقيقة وتفانيه في سبيل اكتشافها ؛ فالحقيقة غاية كل مفكر حكيم ..

ولا غرو ان من كانت له عقلية المعري واتجاهه الفكري الذي يعتمد على العقل اعتمادا كليا ويعتبره نيبا لا يأتيه الباطل من خلفه او من بين يديه كما قال :-

ايها الغيرُ ان خُصِصْتَ بعقل
فالسَّأَلَةُ فكل عقل نبي

لا بد ان يتخذ الشك مفتاحا لليقين ، فيبدأ بالشك في كل شيء. املا في ان يصل بصيرته الى الحق اليقين .

ولكن هناك شيئين لم يتسرب اليهما الشك في نظر المعري وهما (١) الله ، الخلاق الحكيم ، جوهر الكون وروحه الازلية . (٢) مصير الانسان وكل كائن حي الى الموت والفناء .

فقال في الله تعالى :-

بوحدانية العلام ديني
فذرني اقطع الايام وحدي

سألت عن الحقائق كل يوم
فما أقيمت الا حرف جحد

سوى أنني ازول بغير شك
ففي أي البلاد يكون لحدي

وقال :-

وان سألوا عن مذهبي ، فهو خشية
من الله ، لا طوقاً ابث ولا جيرا
وقال :-

لما تينت طول الدهر طال به
فكري فاشعر هدى النفس اقصارا
يا لهف كم مدن املك غدون فلا
فيه ، وكم فلوات عدن امصارا
والله اكبر لا يدنو القياس له
ولا يجوز عليه كان اوصارا
وقال في الحمام الذي يسبح الله :-

عidan قيناتا من تحت ارجلها
وعود قيتكم في حجرها باتا
وماحكين النصارى في لباسهم
ولايفين ، كأهل السبت ، اسبابا
لكنهن ضيفات بمزعمنا
ذكرتنا الله تمجيدا واحناتنا
يثبتن رباً قديراً لاخفاء له
وما عمدن لغير الله اثباتنا
وقال في الموت الذي هو المصير المؤكد لكل انسان :-

يدوم القديم آله السماء
ويفنى باقداره ما حدث

وما أرغب المرء في عيشه
ولكن قصاره سكنى الجذث

وقال شارحا رأيه في ان مصير الانسان الى البلى والفناء :-

إذا الحيُّ ألبسَ أكفانه
فقد فسى اللبس واللابس

ويبلى المحيا فلا ضاحك
إذا سرَّ دهر ولا عابس

ويحبس في جذث ضيق
وليس بمطلقه الحابس

يجاور قوماً اجادوا العظايات
وما فيهم احد نابس

وقال بروحه التثاؤمية واصفاً سوءات اتصال الروح بالجسد :-

فبعداً لهذا الجسم ، يا روح ، مسلماً
وبعداً لهذى الروح ، يا جسم ، سالكا

تواصلتما فاستحدث الوصل منكما
عجائب ، كانت للرجال مهالكا

* * *

وفيما عدا ذلك فلم تسكن نفسه الى ايمان ، ولم يسترح اليه عقله ،
وانما كان مضطربا في امره اشد الاضطراب ، ومعذبا دائما اشد العذاب .
ولقد درس المعرى مختلف الاديان ، كما درس كتب الفلاسفة واطلع على
آرائهم ونظرياتهم . فكان الاختلاف بين تلك الاديان والآراء الفلسفية قد

غذى شكوكه • فظل في حيرة بامر ماهية الروح والبعث والنبوة كما بقى
حائرا امام معميات الطبيعة والغاز الحياة •

فما هي الحياة ؟ وما هي تلك القوة الحياتية التي اذا ما حلت بالمادة
الجامدة تجعل منها كائنا حيا ، وعندما تزول يعود الكائن الحي الى كتلة
جامدة لا اثر فيها للحياة ؟

والذي حارت البرية فيه
حيوان " مستحدث " من جماد
وقال :-

خَفَّفَ الوطاء ما اظنُّ اديم الـ
أرض الا من هذه الاجساد
وقال :-

عمل " كلا عمل ووقت " فائت
ويد " اذا ملكت رمت ما تملك
وشخص " أقوام تلوح ، فامة
قدمت مجددة ، وأخرى تهلك

اما الجسوم ' فلتتراب مآلها
وعيت ' بالارواح أنسى تسلك
ولقد اشتدت بفيلسوف المعرة الحيرة فيما عسى ان يكون بعد الموت
وما يحدث للروح وللجسد بعد ان يهال على الميت التراب ••
قال :-

والروح ' شيء لطيف " ليس يُدركه
عقل ويسكن من جسم الفتي حرجا

سبحان ربك هل يبقى الرشاد له
وهل يحسن بما يلقى اذا خرجا
قالت معاشر يبقى عند جثته
وقال أناس : اذا لاقى الردى عرجا
وقال :-

ان يصحب الروح عقلي بعد مظنها
للموت ، غني ، فأجدر أن ترى عجبا
وان مضت في الهواء الرحب هالكة
هالك جسمي في تربي فواشجبا
وقال :-

والروح ارضية في رأى طائفة
وعند قوم ترقي في السماوات
تمضي على هيئة الشخص الذي سكنت
فيه ، الى دارِ نعمي أو شقاوات
وقال :-

سنؤوب في عقبتي الحياة مساكنا
لا علم لي بالامر بعد ما بها
وقال :-

سأرحل عن وشك ولست بعالم
على اي امر ، لا ابالك ، أقدم
وقال :-

بنون كآباء ، وكم برح الردى
بضبا على علاقته وبنون

دَفَنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ دَفْنًا تَبَيَّنَ
وَلَا عِلْمَ بِالْأَرْوَاحِ غَيْرُ ضُنُونٍ

وقال :-

إذا حرق الهندي بالنار نفسه
فلم يبق لحمٌ للتراب ولا عظم
فهل هو خاشٍ من نكيرٍ ومنكر
وضغطة قبرٍ لا يقوم له نظم
وفي هذا الموقف الحائر لم يستطع أبو العلاء أن يطمئن إلى شيء ،
وودَّ لو أن مخبر صدق ينقذه من حيرته وينبئه بالخبر اليقين . . قال :-

لو جاء من أهل البلى مخبرٌ
سألتُ عن قومٍ وأرأختُ
هل فاز بالجنة عمالها
وهل نوى في النار نُوبِختُ

وقال :-

لو كان ينطق ميّتٌ لسأته
ماذا أحسنٌ وما رأى لما قدم

وقال :-

يا ساكني الأرض كم ركب سألتهمُ
عما فعلتم ، فلم أعرف لكم خبرا

وقال :-

وقفت على أجدانهم وسألتهم
فما رجعوا قولا ولا سألوكا

* * *

وكان المعري متشككا في البعث وما يرافقه من ثواب وعقاب . فله
اشعار تشير إلى اعتقاده بالبعث :

وقدرة الله حق" ليس يعجزها
حشر" لخلق ولا بعث" لاموات
وقال :-

ما أقدر الله ان يدعى برئته
من تربهم فيعودوا كالذي كانوا
وتودع الناس في بطن الثرى نوب
خفض ورفع وتحريك واسكان

ان كان رضوى وقدس غير دائمة
فهل تدوم لهذا الشخص اركان ؟

ما احسن الارض لو كانت بغير اذى
ونحن فيها لذكر الله سكان
قد يمكن البعث ان نادى الملك به
وليس منا لدفع الشر امكان
وقال :-

قال المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الاجساد قلت اليكما

ان صح قولكما فليست بخامر
اوصح قولي فالخسار عليكم
كما ان له اشعارا يشم منها نفيه للبعث ، اذ قال :-
اذنهي طال عهدك بالصقال

وماج الناس في قيل وقال

ستطلقني الميتة عن قريب
فانني في اسار واعتقال

إذا انتقلت^٥ عن الأوصال نفسي
فما للجسم علم^٦ بانتقال

اسير فلا اعود وما رجوعي
وقد كان الرجل رجلاً قال

امور يلتبس^٧ على البرايا
كأن العقل منها في عقل

وقال :-

سأرحل عن وشك^٨ ولست^٩ بعالم
على أي^{١٠} أمر ، لا ابالك ، اقدم

وقال :-

دولانكم شمعات يستضاء بها
فبادروها الى ان تطفأ الشمع

والنفس تنفى بانفاس مكررة
وساطع النار تخبي^{١١} نوره اللمع

وقال :-

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة^{١٢}
وحق^{١٣} لسكان البرية ان يبكوا

تحطمتنا الايام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد له سبك

* * *

وان عدم ايمان المعري بالنبوات مصدر حيرته وبلبلته .. والشك
في امر اذا لم يعقبه يقين يكون مصدر قلق وشقاء مستديمين .. قال :-

مر الزمان فاضحى في الثرى جسد
فهل تملى رجال بالملاوات
والروح ارضية في رأى طائفة
وعند قوم ترقى في السماوات
تمضى على هيئة الشخص الذي سكنت
فيه الى دار نعمى او شقاوات
ولا تطيعن قوما ما دياتهم
الا احتيال على اخذ الاتاوات
وانما حمل التوراة قارئها
كسب الفوائد لا رخب التلاوات
ان الشرائع القت بيننا احناً
وأودعتنا أفانين العداوات
وهل أبيضت نساء الروم عن عرض
للعرب الا بأحكام النبوات
وقال :

ومتى ركبت الى الديانة غالها
فكر على حسن الضمير دسائس
والعقل يعجب والشرائع كلها
خير يقلد لم يقسه قانس
تمجسون ومسلمون ومعشر
متصرون وهائدون رسائس

ويوت نيران تزار تبداً
ومساجد معمورة وكنايس
والصابون يعظمون كواكباً
وطباع كل في الشرور جبايس
أنتى ينال أخو الديانة سؤدا
ومآرب الرجل الشريف خسائس
وإذا الرئاسة لم تعن سياسة
عقلية خطية الصواب السائس
وقال :

هفت الحيفة والنصارى ما اهتدت
ويهود حارت والمجوس مضلله

اتنان أهل الارض : ذو عقل بلا
دين وآخر دين لا عقل له
وقال :

دين وكفر وأنباء تقص وفر
قان ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل اباطيل يدان بها
فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل ؟
وقال :

افيقوا افيقوا يا غبوة فانما
دياناتكم مكر من القدماء
ازادوا بها جمع الحطام فادركوا
وبادوا وماتت سنة اللؤماء

يقولون ان الدهر قد حان موته
ولم يبق في الايام غير ذمائه
وقد كذبوا ما يعرفون انقضائه
فلا تسمعوا من كاذب الزعماء
وقال :

فقد طال العناء فكم تعاني
سظورا عاد كاتبها بطمس^(٥)
دعا موسى وزال وقام عيسى
وجاء محمد بهلاة خمس
وقيل يجيء دين "غير" هذا
فاودي الناس بين غد وامس
اذا قلت المحال رفعت صوتي
وان قلت اليقين اطلت همسي

ففي نظر المعري ان الصوت لا يرفع الا بالمحال ، اما اليقين فلا يذكر
الا همسا ، لان الحقيقة ضائعة ما بين ادعاء هذا وادعاء ذلك ، قال :-

في اللاذقية ضجة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح
كل "يعظم دينه يا ليت شعري ما الصحيح
* * *

ولقد كانت حيرة المعري عنيفة في امر الاديان وكيف ان الغالبية
العظمى من معتقي الاديان لم يهتدوا اليها بتفكيرهم ، انما نشأوا عليها
مجبرين غير مخيرين ، حيث ان الاطفال يشبون عادة على دين ذويهم ،
كما قال :-

(٥) طمس : الزوال والاستئصال .

وينشأ ناشئ الفتيان منا
على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن
يعلمه التدبّر أقربوه (٦)
وطفل الفارسي له ولاة
بأفعال التمجّس درّبوه

ولقد ظل المعري في هذا الشك المرهق والموقف الحائر يدور في
دوامة بين الشك واليقين وبين النفي والإثبات .. قال :-
القدس لم يُفرض عليك مزاره
فأسجد لربك في الحياة مقدسا
أصبحت في يومي أسائل عن غدى
متخبّرا عن حاله متندسا
أما اليقين فلا يقين ، وإنما
أقصى اجتهادي ان اظن واحدا

* * *

لقد خلاص أبو العلاء في تأملاته الى الاعتماد كلياً على العقل المؤدى
الى الخير والصلاح . وكان هدفه إقامة العدل بين الناس .
دعا الى تحكيم العقل في شؤون الدين والدنيا ، والخير والشر ،
والصحيح والفاقد ، والمعقول والمنقول . فالعقل في نظره هو القادر على
التمييز بين الحق والباطل والخير والشر ، وهو المرشد الى طريق
الصواب .
وقد آلمه ان يرى بعض اولى المنابر وقد حادوا عن سواء السبيل
واخذوا لا يذكرون الخير الا همسا ، قال :-

(٦) بحجى : بعقل وبصيرة .

والخير يهمس بينهم ويقام للسوءات منبر

وحز في نفسه ان يرى العلاقات الاجتماعية مبنية على أساس من
الظلم الاجتماعي • فذو العقل يشقى بعقله ، واخو الجهالة ينعم بجهله •
ولقد كبر عليه ان يرى كل تلك المآسي والآثام التي تزخر بها المجتمعات ،
وصعب عليه التوفيق بين وجودها وبين حكمة الخلق •• فخرجت من بين
جنباته صرخة حرى تظهر مدى حيرته :-

تباركت يا رب العلاء أنت صغتها
فليتك في ارزائها لم تبارك

وقال :

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبه
وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الالباب حائرة
وصير العالم التحرير زنديقا
وقال أيضا :-

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل
وترزق مجنوننا وترزق احمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرىء
رأى منك ما لا يشتهي فترندقا

ولقد وصف المعري الدين بأنه ترك الشر وعمل الخير وانصاف الناس
واتباع الحق والعدالة أكثر منه تأدية الطقوس والعبادات • قال :

الدين انصافك الاقوام كلهم
واى دين لآبى الحق ان وجبا

والمرء يعبه قود النفس مصحبة
للخير وهو يقود العسكر اللجيا

وقال :

ما الخير صوم" ينوب الصائمون له
ولا صلاة" ولا صوف" على الجسد

وانما هو ترك الشر مطرأ
ونفضك الصدر من غل" ومن حسد

وهنا نصطدم بالمعضلة التي كثيرا ما اختلف بشأنها النقاد ، وهي هل
المعري شاعر أو فيلسوف . فقد انكر البعض شاعريته بحجة انه شذ عن
بقية الشعراء بأسلوبه واغراضه والتصدي للمسائل العقلية والامور الجديدة
في شعره ولما اصف به شعره من وفرة المعاني وازدحامها فيه . وقد انكر
البعض الآخر عليه فلسفته باعتباره انه لم يكون له نظرية فلسفية مرتبة ترتيباً
منهجياً منطقياً لها مقدمات وقضايا ونتائج . كما انكروا عليه ازدحام
التناقضات في شعره فهو يؤمن تارة وينكر اخرى ، يثبت ايمانه بالبعث آنا
وينكر آنا آخر ويؤمن بالجبرية احيانا ويرتد عن ذلك حيناً كما قال :-

لا تعش مجيراً ولا قدريا
واجتهد في توسط بين بينا

وكما قال :-

وان سألوا عن مذهبي فهو خشية
من الله لا طوقاً ابث ولا جبرا

وهنا يقصد بالطوق حرية الاختيار . .

اما انكار فلسفته فغير وارد . وهو وان لم يكون نظرية فلسفية جامعة

شاملة الا انه تطرق في شعره ونثره الى النقاط الرئيسية التي تطرق اليها الفلاسفة . تطرق اليها بأسلوبه الخاص : اسلوب الشاعر الفنان . فهو لم يسر بتأملاته بخطوات بطيئة وبمراحل متسلسلة ، بل ان عقله ، عقل المفكر الشاعر ، كان يتصيد الآراء العميقة ويعرضها بأسلوبه الشعري دون ان يشير الى الطريق الذي اتبعه لتصيد تلك الآراء .

ولو درسنا اشعار الامم الاخرى لوجدنا فيها الكثير من تلك التي تعالج الافكار الفلسفية والمسائل العقلية . ولقد ايد ذلك پول فاليري ، احد شعراء فرنسا الافذاذ ، بقوله ان الفكرة الفلسفية لا تعالج بالشعر فقط بل تعالج بأي فن آخر من الفنون الجميلة .

وان شعر المعري لا يعاب لوجود بعض الآراء المتنافرة فيه ، لان ظاهرة التشكك والحيرة والقلق من صفات العقول المفكرة ذات الفعاليات العنيفة وهي الصفة التي يتصف بها الفلاسفة عادة . لان البحث الدائب عن الحق وعن الحقيقة ديدنهم ولا عبرة في ان يخطئوا أو ان يبلغوا الصواب . واما ما يتعلق بانكار شاعريته فغير وارد أيضا . لاننا اذا أخذنا تحديد الشعر انه « قول موزون مقفى يدل على معنى » كما عرفه بذلك ابن رشيق وقدامة بن جعفر فانه ينطبق على شعر المعري كل الانطباق . واذا أضفنا الى التحديد السابق الشعور فان شعره يأتي في المكان الاول من حيث وضوح الشعور وصفائه . وكان أبو العلاء شاعرا دقيق الحس مرهف العواطف ذا فكر ثاقب جوال وهدية قوية نفاذة . وقلما نجد شاعرا في العربية استطاع ان يظهر مكنونات نفسه بدقة وصراحة وان يعرض آراء عويصة بجمل قليلة كما فعل أبو العلاء .

ولقد قال فيه الدكتور طه حسين : « شعره يمثل شخصه تمثيلا صحيحا . ومصدر ذلك ان غير ابى العلاء من الشعراء قلما يفكرون في انفسهم أو يعترفون بها . فهم يفنونها فيما يحاولون ان ينظموا الشعر فيه .

فاذا مدحوا فنيت قوتهم في المدوح • اما أبو العلاء فقد كان شديد الاعتراف بنفسه ، كثير التفكير فيها ، لا ينزل عنها ليتقن مدحا أو يحسن وصفا •

* * *

هذا وان للمعري اشعارا في مختلف الاغراض الشعرية المتداولة آتشد نظمها في عهد شبابه وجمعت في ديوانه « سقط الزند » كالمقطوعة التالية :-

وقد سارَ ذكرى في البلادِ فمَنَ لهم
باخفاء شمسِ ضوءها متكامل

يهمُّ الليالي بعضَ ما انا مضر
ويثقل رضوى دون ما انا حامل

واني وان كنت الاخيرَ زمانه
لأنِ بما لم تستطعه الاوائل

ينافس يومي فيَّ امسى تشرفاً
وتحسد اسحاري عليَّ الاصائل

وطال اعترافي بالزمان وصرفه
فلمستُ أبالي من تقول الغوائل^(٧)

قلو بان عضدي ما تأسَّف منكبي
ولو مات زندي ما بكته الانامل

وفيما يلي مقطوعة شعرية يتشكى فيها المعري من مطاولة السفهاء الخاملين لاصحاب الرفعة النابهين فيتمنى الموت لان الدهر أصبح هازلا :

(٧) يقول : يهلك •

إذا وصفَ الطائيَّ بالبخلِ مَادِرٌ
وعَيَّرَ قَسَاً بالفهامةِ بأقلِ

وقال السُّهَيُّ للشمسِ أنتِ خَفِيَّةٌ
وقال الدَّجِيُّ للصَّبحِ لَوْنُكَ حَائِلٌ^(٨)

وطاولتِ الأرضُ السَّماءَ سفاهاً
وفاخرتِ الشَّهْبُ الحصى والجنادلُ^(٩)

فيا موتُ زُرْ إنَّ الحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ
ويا نفسُ جَدِّي إنَّ دَهْرَكَ هَازِلٌ

ان اشعار ابي العلاء الفلسفية قيلت بعد كهولته وجمعت في ديوانه «لزوم ما لا يلزم» وهي من نتاج قريحته الوقادة بعد ان نضج عقله واتسعت مداركه وتركز تفكيره في الامور العليا والمسائل السامية . وان الفلسفة هي الصفة السائدة التي يتسم بها شعر المعري . فاذا ما ذكر شعره فأول ما يتبادر الى الاذهان شعره الفلسفي . فهو فيلسوف الشعراء بلا منازع ، وحامل لواء الفكر الحر في تاريخ الادب العربي .

(٨) السهي : نجم خافت من بنات نعش الصغرى .

(٩) الجنادل جمع جندل : وهو الصخر الكبير .

الفخر والكبرياء في شعر المتنبي

• قليل من الناس بلغوا مبلغ المتنبي من الشهرة وذيوع الصيت .
فلطالما تحدث عنه الناس وصوروه بما يليق بمكانته السامية ومنزلته العالية
في عالم الشعر والادب . ولطالما استهوتهم تلك الصورة الخلافة التي اظهرها
عن نفسه في طيات اشعاره . فلقد امتاز شعره بسمو الخيال ، وابتكار
المعاني ، واختراع الصور التي تهتز لها النفوس اعجابا . لقد كان شعره
شعرا جليلا يهتف به شاعر عبقرى فذكى في القلوب الحماسة والنبالة
ويمتع الالباب بألوان من الفن الرفيع يتناول اليها الناس دون ان يبلغوها .
لقد رضع المتنبي شعره بأيات من الحكم البليغة والفلسفة الرائعة والتوجيه
الامثل . وما زالت روائع أبياته ترن في اذن الدهر بالرغم من مرور الف
عام ونيف على عهده ، ولقد زادها القدم جلالا وجدة وبهاء ، وهو القائل :

تمرستُ بالآفات حتى تركتها
تقولُ أمات الموت ام ذُعِرَ الذعر ؟

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترق جاران دارهما العمر

ولا تحسبنَّ المجدَ زقاََ وقينةَ
فما المجد الا السيفُ والفتكةُ البكر

وتركك في الدنيا دويباََ كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر

لقد شب المتشبه وهو عالي الهمة معتد بنفسه فخور بذاته طموح الى
ابعد ما يكون الطموح . ولقد كان يشعر برفعة نفسه وتساميها حتى لم
يعد جسده أو محيطه يسعان تلك العظمة وذلك الطموح . فقال في صباه :

أَمْطُ عَنْكَ تَشْبِيهِ بِمَا وَكَأَنَّهُ
فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي

كما قال موجها الخطاب الى سيف الدولة :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسَنَا
بِأَنِّي خَيْرٌ مِنْ تَسَعَى بِهِ قَدَم

انا الذي نَظَرَّ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي
وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مِنْ بِهِ صَم

الى ان قال :

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْيَدَاؤُ تَعْرِفُنِي
وَالسَيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ

ولقد كان المتشبه يمثل العظمة في معرض مدحه للامراء فلم يكن
يتذلل حقه في مواقف المدح ، ولم ينزل الى مدح كل طامع في قصيده .
فكان يشدهم الشعر وهو جالس ، وكان يشترط عليهم بان لا يكلف بتقيل
الارض عند دخوله عليهم ؛ بل كان من اولئك الامراء من يتخلى له عن
سريره ليجلسه عليه فيجلس بين يديه كما فعل طاهر العلوي .

والمتشبه تفرد بنزعة غير نزعة الشاعر الفنان ، اذ كان يحسب انه
ارفع من الشعراء منزلة ، وان الشعر مطيته الى الملك والسلطان . فكان
يشعر في قرارة نفسه ان روحه ملك ولو كان بلسان شاعر . وهو
القائل :

فارم بي ما أردت مني فاني
اسدى القلب آدمى الرداء

وفؤادي من الملوك وان كا
ن لساني يـررى من الشعراء

فزع نفسه في اتون الحياة الملتهب تحذوه شهوة المجد اللامتناهية ، وتدفعه
تلك النزعات الصلبة القوية التي امتزجت بدمه واعصابه • وكان الشعر
وسيلته للوصول الى غايته • فكان اذا مدح عرج الى نفسه فاشاد بقوته
ونباهته وأدبه واشاد الى مطامحه وصرح انه ليس كغيره ممن يكتفون
بالتافه اليسير :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشة
ومركوبه رجلاه والثوب جلد

ولكن قلباً بين جنبي ماله
مدى ينتهى بي من مراد احده

وهو القائل أيضا :-

يقولون لي ما أنت في كل بلدة
وما تبغى ؟ أتبغى جلاً ان يسمى

اذا قل عزمي عن مدى خوف بعده
فأبعد شئ ممكن لم يجد عزم

واني لمن قوم كأن نفوسهم
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وهذا الوصف البليغ خاصة ما جاء في البيت الاخير يصور منتهى
الشعور بالسمو والرفعة وعظمة الذات حتى لتأنف نفسه الجبارة ان تسكن

اللحم والعظم اللذين يتكون منهما جسده المحدود •
لهذا فقد كان يشعر بالمرارة عندما يجد الظروف القاهرة تضطره
لان يمدح هذا وذلك من الامراء والحكام الذين هم أقل منه فهما ونباهة
واحظ منه قدرا • وانه كان يتبغي ان يكون مشكورا لا شاكرا لذوي
الدسوت والجاه ••

اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص
على هبة فالفضل فيمن له الشكر

ولقد اضفت عظمة نفسه على شعره ذلك الجلال وتلك الروعة التي تركت
في الدنيا دويآ ••• فلا عجب ان تشتهر قصائده وهي من وحي البطولة
والسمو والفن الرفيع •••

ان اكن معجبا فعجب عجب
لم يجد فوق نفسه من مزيد

وهكذا فلقد افراط في الاعجاب بذاته حتى لم يعد يرى من يفوقه
رفعة وقدرا ، ولم يعد يجد المحل اللائق به أو الشخص الذي يستحق
ان يتقيه •• كما قال :

اي محل ارتقي اي عظيم اتقي
وكل ما خلق الله به وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

ووصل به الاعتداد بالذات بحيث انه جعل نفسه مصدر الشرف تقومه
بالرغم من انهم فخر العرب حيث قال :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسى فخرت لا بجدودي

وبهم فخرٌ كلٌّ من نطق الضا

د وعوزُ الجاني وغوثُ الطريد

كما فآخر بشعره الذي لا يجاريه فيه مجار ، اذ الدهر من رواة
قصائده ، حيث قال :

وما الدهر الا من رواة قصائدي

اذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمراً

وغنى به من لا يغنى مغرداً

وقد كان شعور المتنبىء بتفوق شعره على شعر خصومه عظيماً حتى
لقد قاده هذا الشعور الى ان يقول فيهم أبياتاً تطوي على السخرية والازدراء
كمثل البيت التالي :-

أفي كل يوم تحت ضيبي شويعر

ضعيف يقاويني ، قصير^(١) يطاول

* * *

ان مما جعل شعر المتنبىء خالداً خلود الدهر هو انه كان يعكس
نبضات قلبه التي شاركه فيها الكثيرون في مختلف العصور والازمان .
كما وانه كان يعكس احوال المجتمعات السائدة في عهده التي تشابهها احوال
في كل العهود والعصور . فالتاريخ يكرر نفسه . وهنالك في كل جيل
العديدون الذين لهم طموح المتنبىء ، والذين جابهتهم ووقفت امامهم العراويل
كما وقفت امام المتنبىء . وهناك في كل زمان اولو الحل والعقد الذين بلغت
بهم الاستهانة بالكرامات ، وعدم الشعور بالمسؤوليات ، واقتراف المظالم
بعدم ايداع القوس باريتها أو اعطاء كل ذي حق حقه ، والجنوح الى تقديم

(١) الضمين : بين الكشح والابط .

الجهلاء والفاستدين واقصاء المخلصين من اصحاب الكفاءات ... فقم على
الزمان ... الا تبا للزمان الذي حرمة الجاه والسلطان ولم يحرمه النفس
العزيزة المترفة المتسامية .. ونقم على الناس الذين ، لو عقلوا ، لثاروا
ولم يرضوا على ما هم فيه من بؤس وشقاء ولملكوا عليهم خيارهم ، ولعله
عنى بذلك نفسه ؛ ولكنهم خانعون للظلم مستسلمون للذل وغير آفنين من
العار ... كما قال :-

اما في هذه الدنيا كريم
تزل به عن القلب الهوم

اما في هذه الدنيا مكان
يسر بأهله الجار المقيم

تشابهت البهائم والعييد
علينا والموالي والصميم

وما أدري اذا داء حديث
اصاب الناس أم داء قديم

ولقد ادت به ثورته النفسية العارمة الى ان يتبنى فلسفة القوة . لذا
فقد تجلت القوة في كل أقواله وفي جميع حالاته ... فهو قوي في شعره ،
قوي في اسلوبه ، قوي في تعبيره ، قوي في اعتداده بنفسه ، قوي في طموحه
نحو المعالي ، قوي في سخطه على الناس وعلى الزمان ...

ان ترمني نكبات الدهر عن كتب
ترم امرأ غير رعديد ولا نكس^(٢)

وهو قوي في احتقاره للملذات الوضيعة ...

(٢) كتب : قرب . رعديد : جبان . النكس : الضعيف الدنيء الذي
لا خير فيه .

وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الاجسام
وهو قوي في استهاته بكل الصعوبات في سبيل المجد ..
فموتني في الوغى عيش " لأنني
رأيت العيش في أرب النفوس
وكذلك :-

سبحان خالق نفسي كيف لذتها
فيما النفوس تراه غاية الالم
وهو قوي في امتعاضه واشمئزازه من اناس كان النفاق رائدهم :
إذا ما الناس جرّبهم لبيب
فاني قد أكلتهم وذاقا
فلم أرَ ودّهم الا خداعاً
ولم أرَ دينهم الا نفاقا
وهو قوي في احتقاره اولئك الارانب المستأدين :-

ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جث ضخام
ارانب غير أنهم ملوك
مفتحة عيونهم ، نيام
وشبه الشيء منجذب اليه
واشبهنا بديانا الطعام (٣)

وما انا منهمُ بالعيش فيهم
ولكن معدنُ الذهب الرغام^(٤)
وهو قوي في وصفه لهذا الزمان المسوخ الذي ضاعت فيه المقاييس
الصحيحة :

اذم الى هذا الزمان اهيله
فأعلمهم قَدَمٌ ، واحزمهم وغد
واكرمهم كلب ، وابصرهم عم
واسهدهم فهدٌ ، واشجعهم فرد

* * *

هذا ولما ان وقفت دون طموح المتنبىء السدود واقامت دون حصوله
على اهدافه وغاياته العشرات من اناس لم يبلغوا قلامة ظفر من مجده وكماله
ورجاحة عقله اخذ يحس بانه غريب في وطنه ودياره ، شاذ بين قومه
وعشيرته ... فقال :

ما مقامي بأرض « نخلة » الا
كمقام « المسيح » بين اليهود
انا تريبُ الندى وربُ القوافي
سِمامُ العدا وغيظُ الحسود
انا في امةٍ تداركها الله
غريبٌ « كصالح » في ثمود
ولا ريب ان من كان هذا شعوره لا يجد مسوغاً لان يعيش بين قوم
لا يشعرون بشعوره أو يقدرونه حق قدره ... فقال عند مفارقتة سيف
الدولة :-

(٤) الرغام : التراب .

إذا ترحلتَ عن قومٍ وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون هم
وقال عند تركه كافور الاخشيدي قصيدته المشهورة التي هجا فيها
هذا الأخير :-

عيدٌ بأية حالٍ عدتَ يا عيد
بما مضى أمٍ لأمري فيك تجديد
أما الأجيّة فالليداءُ دونهم
فليتَ دونك يبدأُ دونها بيد
ولا غرو ان من كان له قلب كقلب المتبىء الذي قال فيه :-
ولكن قلباً بين جنبيّ ماله
مدى ينتهي بي في مراد احده

ان يتصف بالشجاعة وان يستوى عنده طول الحياة أو قصرها ، ان يموت
على فراشٍ وثير أو على سهوة جواده في سوح الوغى ، لانه يرى ان الحياة
لا تؤخذ الا غلابا ، ولا ينتصر فيها الا الجلد الصبور الذي لا تزغزه
الهزاهز والذي يخاطر بالمهجة والروح في سبيل الفوز في ما يصبو اليه
ويتبعه . قال :-

ايا عبدٍ الاله معاذ اني
خفي عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسيم ما طلبي وانا
نخاطر فيه بالمهج الجمام
امثلي تأخذ النكبات منه
ويجزع من ملاقاته الجمام

ولو برز الزمان اليّ شخصاً
لخضب شعراً مفرقته حسامي
وما بلغتْ مشيتها الليالي
ولا سارت وفي يدها زمامي
اذا امتلأتْ عيون الخيل مني
فويلٌ في التيقظ والمنام

وقال :-

فالموت أعذرٌ لي ، والصبرُ أجملُ بي ،
والبرُّ أوسع ، والدنيا لمن غلبا

* * *

كانت غاية المتنبى بلوغ المجد ، او كرع جام الحمام . فسعى بكل
طاقته لبلوغ امنيته ، فما كلت عزيمته ، ولا وهنت ارادته ، ولا فترت
همته . ناضل وكافح في سبيل غايته حتى وصل الى بعض ما كان يصبو اليه
من سوؤدد ، وجاه عريض ، وثرء عظيم ، مما اثار حفيظة الحساد
والكائدين . فلم يضعف من عزمه ، او يخضد من شوكته عدو مهما بلغ
بأسه ، وعظم مراسه . فكان للمتنبى سيف بتار يقطع الرقاب ، ولسان
ناري يقضم الظهور ، وعزم جبار يصغر لديه عظام الامور . وكانت روحه
الوثابة تأبى الذل ولو كان دون العز خرط القتاد ، كما قال :-

واحتمالُ الاذى ورؤيةُ جانبه
غذاءٌ تضوى به الاجسام
ذلٌّ من يغبطُ الدليلَ بعيشِ
رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحمام

من يَهْنُ يسهل الهوانُ عليه
ما لجرحٍ بميِّتٍ ايلام
وقال :-

وما منزل اللذات عندي بمنزل
اذا لم ابجلَّ عنده واكرم
سجية نفس ما تزال مليحة
من الضميم مرمياً بها كل محزم
وقال :-

والا تمت تحت السيوف مكرماً
تمت وتقاسي الذل غير مكرم
فبِ واثقاً بالله وثبة ماجد
يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم
وقال :-

انما انفس الانيس سباع
يتفارسن جهرةً واغتيالاً
من اطاق التماس شيء غلاباً
واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كل غادرٍ لحاجةٍ يتمنى
ان يكون الغضنفر الرئبالاً^(٥)
وقال في تعظيم الشجاعة والاقدام وتحقير العجز والجبن :-

(٥) الغضنفر : الاسد . الرئبال : الذئب ويطلق على الاسد احياناً .

إذا غامرتَ في شرفٍ مَرُومٍ
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعمُ الموتِ في امرٍ حقيرٍ
كطعمِ الموتِ في امرٍ عظيمٍ
يرى الجبناء أن العجز عقلٌ
وتلك خديعة الطبع اللثيم
وكل شجاعة في المرء تفتى
ولا مثل الشجاعة في الحكيم
وقال :-

ذريني أنل ما لا يُنال من العلا
فصعبُ العلا في الصعبِ والسهلُ بالسهل
تريدن أدراكَ المعالي رخصةً
ولا بدَّ دونَ الشهدِ من إبرِ النحل
وقال :-

عشٌ عزيزاً أو متٌ وائت كريمٌ
بين طعنِ القنا وخفقِ البُود
فرؤوسُ الرماحِ أذهبُ للغي
ظنٌ واشقى لغيرِ صدرِ الحقود
لا كما قد حيتَ غيرَ حميدٍ
وإذا مُتَّ متٌ غيرَ فقيدٍ
فاطلب العز في لظى ودع الذل
ل ولو كان في جنانِ الخلود

بقى علينا ان نعرف اين ترعرعت ملكته الشعرية ونضجت ، وكيف
نمت لديه صفة الطموح والكبرياء ، ولا يمكننا معرفة ذلك ما لم نتبع
حياته ونحللها تحليلا دقيقا .

ولد ابو الطيب المتنبى في حي كندة من احياء الكوفة حيث كان يسكن
اولئك الذين هم من اصل يمانى . وقد جاء ذكر ذلك الحي في شعر المتنبى ،
حيث قال :-

أمنسى السكون وحضرموتا
ووالدتي وكندة والسبيعا

والسبيع هو حي آخر من احياء الكوفة آنذاك .
كان اسمه أحمد بن الحسين ، وكانت مهنة ابيه السقى ، فهو سقاء .
ارسله ابوه وهو في ريعان الصبا الى البادية ، فشب على اخلاق
البادية وما تمثل به من فروسية وحرب وطعان ، وميل الى الحرية
والاعتزاز بالذات . كانت البادية اول مدرسة درس فيها المتنبى ، فكان لها
تأثير عظيم على ملكته الشعرية وعلى خياله الذي درج من افق البادية ، وفي
جو البادية نما . لذا نجد شعره لا يخلو من آثار سهيل الخيل ، وقعقة
السيوف ، وصرير العوالى . فلم تفارقه صور البادية حتى عندما كان
يجالس الملوك والامراء والوزراء في بيئة حضارية لها مشاهد رائعة وصفات
خلاقة تختلف عما تعكسه صور البادية . كما جاء في قصيدة يمدح بها
علي بن ابراهيم التتوخي ، وقد تصدى لوصف بحيرة طبرية :-

لولاك لم اترك البحيرة وال
سغور وفيها وماؤها شيم^(٦)
والموج مثل الفحول مزبدة
تهدر فيها وما بها قطم

(٦) شيم : بارد .

والطير فوق الجباب تحسبها
فرسان بلق تخونها للجم
كانها والرياح تضربها
جيشا وغي : هازم ومنهزم
كانها في نهارها قمر
حفا بها من جناها ظلم

فهو اذا اراد تشبيه الموج شبهه بهدير الفحول ، ولما اراد ان يشبه
الطير وهي فوق الجباب شبهها بفرسان خيل بلق ، ولما اراد تشبيه الرياح
وهي تضرب الطير شبهها بجيش وغي . وهذه كلها صور ومفاهيم بدوية
لاشك في ذلك .

ولم تفارقه شئسته في التغنى بصور البداوة ومفاهيمها حتى عندما
كان في افياء الترف والنعيم في مجالس سيف الدولة ، وكافور الاخشيدى ،
وعضد الدولة ، وابن العميد .

ولقد جهد المتنبي نفسه في شبابه في طلب الادب وعلوم اللغة
وكان كثير الدراسة والتتبع قالم الماما واسعا شعر ابي تمام الذي سماه
(استاذ كل من قال الشعر بعده) والبحتري وابن الرومي ومسلم بن الوليد
وبشار بن برد وابي نؤاس وابن المعتز وامرئ القيس والاعشى وعمرو بن
كلثوم والفرزدق وغيرهم . فشب المتنبي شاعرا مطبوعا واسع الخيال عزيز
العلم وافر الاطلاع .

قال ابو الحسن محمد بن يحيى العلوى : « كان ابو الطيب محبا للمعلم
والادب ، فصحب الاعراب في البادية ، وجاءنا بعد سنين بدويا قحا ، وكان
تعلم القراءة والكتابة فلزم اهل العلم والادب واكثر من ملازمة الوراقين
فكان علمه من دفاترهم » .

وقال الثعالبي : « ذكرت الرواة ان اياه سافر به الى بلاد الشام ، فلم يزل ينقله من ياديتها الى حضرها ، ومن مدرها الى وبرها ، ويسلمه من المكاتب ، ويردده في القبائل ، ومخايلة نواطق الحسنى عنه وضوامن النجج فيه ، حتى توفي ابوه ، وقد ترعرع ابو الطيب وشعر وبرع » .

وقال ابن خلكان : « واشتغل بفنون الادب ومهر فيها وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشبها ولا يسأل عن شيء الا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل ان الشيخ ابا على الفارسي صاحب الايضاح والتكملة قال يوما : كم لنا من الجموع على وزن فعلى ؟ فقال المنبىء في الحال : حجلى ، وظربي . قال الشيخ ابو علي : فطالعت الكتب ثلاث ليال على ان اجد لهذين الجمعين ثالثا فلم اجد » .

* * *

هذا ولما كانت العصبية القبلية ما تزال في عهد المنبىء قوية ، والمفاخرة بالنسب غيفة ، فلا غرو ان ترى المنبىء يشيد بمفاخر قومه من اليمانيين ، حيث قال :-

وانى لمن قوم كأن نفوسهم
بها انف ان تسكن اللحم والعظما

وقال في صباه :

ومجدى يُدلُّ بنى خندف
على أن كلَّ كريم يمان

وان من يفاخر بمجد قومه الى حد قوله ان كل كريم ما هو الا يمانى لا ريب ان يبلغ به الاعتزاز بنفسه والتفاخر بفداته المبلغ الذى قال فيه المنبىء :-

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسى فخرت لا بجدودي

وبهم فخرٌ كلٌّ من نطق الضاد
وعوذُ الجاني وغوث الطريد

فانه اعتقد انه ورث المجد كائرا عن كابر .

ولعل ما يسمى بمركب النقص من العقد النفسية قد دفعته الى المغالاة في التكبر والاستعلاء . فان مهنة ابيه من جهة ، وطموحه البعيد المدى من الجهة الاخرى جعلاه ينغمر بتحصيل العلم ، والتبحر بالادب ، واكتساب الثقافة الواسعة ، وتنمية الملكة الشعرية . ولما يز اقرانه في قول الشعر ، حتى لقد صار لتقصيده دوى رددت صدها جنبات الجزيرة العربية وغيرها من بلاد العرب ، واخذت تسير بذكره الركبان ، ويختشى شر لسانه الامراء والوزراء ، شعر بفضل نفسه ، وعلو مكائته ، حتى لقد غطى فضله على فضل قومه وجدوده ، كما قال :-

ولست بقانع من كل فضل
بان اعزى الى جد همام
وقال :-

انا ابن منْ بعضه يفوق ابا البا
حت والنجل بعض من نجله
انما يذكر الجدود لهم من
نفره وانفدوا حيله

* * *

ولقد ادب اعتداده المفرط بذاته ، وطموحه الذي لا حدود له الى ادعائه النبوة في حدائنه بادية السماوة ونواحيها فاجتمع حوله خلق من قبائل العرب ، فخرج اليه لؤلؤ امير حمص فقاتله واسره ، وشرذ اتباعه واعوانه ، وجبسه في السجن دهرا طويلا حتى كاد يتلف ، فمثل في امره ، فاستابه واطلقه .

وان تاريخ حياة المتنبى ، تنبىء ان نفسه وسوست له ان تجعل النبوة
سيلا الى الملك ، وعلى الخصوص بعد ان اجتمع له الشيء الكثير من اسباب
التأثير في عقول الاعراب من جملتها خبرته بالارض ، وفصاحته ، وحسن
بيانه .

ولما سدت امامه باب النبوة اخذ يشد الرحال ويضرب في مناكب
الارض جاثلا في الآفاق التماسا للرزق ، لما كان يكابد من خشونة في العيش
ورقة من حال . فاخذ يمدح هذا وذاك في دمشق وطرسوس وانطاكيه
وحمص وبعليك وغيرها من بلاد الشام فلم يحصل على ما كان يرجوه من
جوائز وهبات . وكان دائم الشكوى من سوء الحال :-

الى اي حين انت في زى محرم

وحتى متى في شقوة والى كم

وقال :-

لله حال^٧ أرجيها وتخلفني

واقضى كونها دهرى ويمطني^(٧)

وقال :-

ضاق صدري في طلب الـ

رزق قيامي وقل^٧ عنه فعودى

ابداً اقطع البلاد ونجمي

في نحوس وهمتي في صعود

ولعلنى مؤمل^٧ بعض ما ابلغ

باللطف من عزيز حميد

لسرى لباسه خشن القطن

ومروي مروى لبس القرود

(٧) يمطل : يسوف .

فكان سوق شعره في بادىء امره في كساد ، فلم يحفظ ممن مدحهم الا النزر
القليل من الثواب ، ولعله لم يكن يحسن اختيار ممدوحيه . قال :-

الى كم ذا التخلف والتوانى
وكم هذا التماذى في التماذى

وشغل النفس عن طلب المعالي
بيع الشعر في سوق الكساد

وفوق هذا وذاك لم يكن يخلو من حسد الحاسدين وشماتة الشامتين الذين
فضوا مضجعه ، وافلقوا راحته ، قال :-

فلو انى حسدت على نفيس
لجذت به لذى الجد العثور

ولكنى حسدت على حياتي
وما خير الحياة بلا سرور

* * *

بقى المتنبى على حالته تلك حتى لجأ الى كنف سيف الدولة وتقياً
بظلاله ، وعندئذ تغيرت احواله ، وكثرت امواله ، وانهالت عليه الهبات
والجوائز والخلع والجوارى والاقطاعات والعييد ، واخذ يظهر بمظهر
الامراء الموسرين ، اصحاب الخدم والحشم والعييد .

الا ان تريب سيف الدولة المتنبى ، واعجابه به ، قد خلق له حسادا
وكائدين ، نصبوا له شبك مكائدهم في مجلس سيف الدولة ، وكان
اهمهم ابو فراس الحمداني .

بالغ هؤلاء في الوقعة بالمتنبى ، حتى غيروا قلب سيف الدولة نحوه ،
فاعرض عنه ، فنظم القصيدة التي مطلعها :-

واحرّ قلباه ممن قلبه شيب
ومن بجسمي وحالي عنده سقم
حتى قال :-

ما لي اكنم حباً قد برى جدى
وتدعى حباً سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حباً لفرته
فليت أنا بقدر الحب نقسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة
وقد نظرت اليه والسيوف دم

.....
.....

يا اعدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصام وانت الخصم والحكم
.....
.....

سيعلم الجميع ممن ضمّ مجلسنا
بانتي خير من تسعى به قدم

انا الذي نظر الاعمى الى أدبي
واسمعت كلماتي من به صمم
الخيال والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

الى ان قال :-
ان كان سرّكم ما قال حاسدا
فما لجرح اذا أَرْضَاكُمْ ألم

ولم يغفل المتنبى عن شكوى الحسد الموجه ضده ، قال
لسيف الدولة :-

ازل حسد الحساد عني بكتبهم
فأنت الذي صيرتهم لي حسداً
ومن قوله :-

اعادى على ما يوجب الحب للفتى
واهداً والأفكار في تجول
سوى وجع الحساد داو فانه
إذا حلّ في قلبٍ فليس يحول
ولا تطمعن من حاسدٍ في مودّة
وان كنت تبديها له وتبيل

وأخيراً نجح كيد الكائدين ، وتمت الوقعة بين سيف الدولة والمتنبى ،
وانصرم جبل الالفه بينهما ، وما وسع ابا الطيب الا مفارقة سيف الدولة
بعد ما لازمه لمدة تسع سنين .

وهنا قال قصيدته التي تعرض بها من سيف الدولة :-

بم التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن
الى ان قال موجها الكلام الى سيف الدولة :-
رأيتكم لا يصون العريض جاركم
ولا يسدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل
وحفظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفقكم
حتى يعاقبه التنغيص والمنن
* * *

ثم شد المتنبىء الرحال الى دمشق بعد قطيعته مع سيف الدولة ، ثم
سار الى الرملة ، وهناك كتب كافور الاخشيدى حاكم مصر في طلبه .
ولما قدم ابو الطيب على كافور امر له بمنزل ، ووكل به جماعة ، وطالبه
بمدحه . وكانت اولى قصائده في مدح كافور تلك التي اولها :-

كفى بك داء ان ترى الموت شافياً
وحسبُ النسايا ان يكنَّ امانيا
ولقد افرغ المتنبىء ما في جعبته من طموح في هذه القصيدة حيث
قال :-

وغير كثير ان يزورك راجلٌ
فيرجع ملكاً للعراقين واليا

.....

.....

حيبتك قلبي قبل حبك من نأى
وقد كان غدرأ فكن انت وافيأ
وأعلمُ أنَّ البينَ يشكيك بعده
فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا
فان دموعَ العين غدر برهبأ
اذا كنَّ اثر الغادرين جواريا
اذا الجود لم يرزق خلاصا من الاذى
فلا الحمد مكسوبأ ولا المال باقيا

وللنفس اخلاق تدلُّ على الفتى
أكان سخاءً ما أتى أم تساخيا

اخذت نفس المتنبىء تسامى الى افق ابعد من افق المال ، وامتدت
رغبات نفسه الى المفاخر والجاه العريض حيث قال :-

وما رغبتي في عسجد استفيده
ولكنها في مفخر استجده
وصارح كافورا بما كان يختلج طي ضلوعه من امانتي وآمال :-
اذا لم تط بي ضيعة أو ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يسلب
وطالبه بانجاز وعوده :-

أرى لي بقربي منك عيناً قريبة
وان كان قريباً بالبعاد يشاب
وهل نفعي ان ترفع الحجب بيننا
ودون الذي أملت منك حجاب
وفي النفس حاجات وفك فطانة
سكوتي بيان عندها وخطاب

ولكن كافورا لم ينجز ما وعد لانه خاف المتنبى لما رأى من تعاليه
واعتداده بنفسه ، فعوتب فيه ، فقال : « يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد
صلى الله عليه وسلم ، اما يدعى الملكة مع كافور ، فحسبكم » .
ولم يخل المتنبى ممن كانوا يفضونه ويكيدون له أثناء اقامته في
مصر ، ومن جملتهم ابن مرابة وزير كافور . وكان هؤلاء يوغرون صدر
كافور عليه . ولم يستطع المتنبى بعد كل هذا ان يطيل الإقامة في مصر ،
فعزم على الرحيل . فشد الرحال الى الكوفة بعد ان اقام في مصر مدة تقارب
الخمس سنوات .
وليس من العجب ان ينفجر المتنبى بسيل من الاهداجي المقذعة في
كافور ، كما قال :-

أميناً واخلاقاً وغدراً وخسة
وجبناً، أشخصاً لُحِتَ لي أم مخازياً^(٨)

(٨) المين : الكذب .

وقال :-

من علّمَ الاسودَ المخصّيَ مكرمةً
أقومه البيضُ أم آباؤه الصيد
أم أذنه في يد النخّاس دامية
أم قدره وهو بالفلسين مردود
أولسى اللثام كوفير" بمعذرة
في كلّ لؤم وبعض العذر تفنيد
وذاك أنّ الفحولَ البيضَ عاجزة
عن الجميل ، فكيف الخصية السود

* * *

وكانت آخر مراحل المتبىء لدى عضد الدولة في شيراز . فحط
رحاله هناك ، واستطاب الإقامة بظل عضد الدولة ، فربحت تجارته
بحضرتة ، ووصل اليه من صلاته الشيء الكثير . ثم استأذنه في الرحيل
فأذن له وامر بان تخلع عليه الخلع الخاصة ، فسافر ومعه ابنه المحسد
وغلامه ، ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والطيب والكتب
الثمينة والآلات . فتعرض له فأتك على رأس عشرين رجلا من بني عمه
فقتلوه وابنه محسدا وغلامه . وهكذا انطفأت تلك النار المستعرة ، وخبث
شعلة تلك النفس المضطربة التي ملأت الدنيا وشغلت الناس ، وسكت ذلك
القلب الذي لم يكن له مدى محدود في طموحه وعليائه ، كما قال :-

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلدّه
ولكن قلباً بين جنبيّ ماله
مدى ينتهى بي في مرادٍ أحدّه

المدح

في شعر ابن هاني الأندلسي

فن المديح في الشعر هو وليد عاطفة الإعجاب التي تثير في نفس المدوح الانفعالات التي تدفعه الى نظم الشعر في اظهار صادق شعوره نحو المدوح سواء أكان ذلك المدوح فرداً أم كانوا جماعة .

المديح اظهار للمزايا الفاضلة وتعداد للشمائل الكريمة والصفات الطيبة التي تتوفر لدى المدوح وتعداد للاعمال الجليلة التي يقوم بها العظماء من الناس .

ويعتبر المديح ابرز الفنون الشعرية عند العرب منذ ان بدأ الشعر العربي ولم يطرأ عليه أي ضعف أو وهن ولقد امتلأت الدواوين الشعرية بهذا الفن منذ العصر الجاهلي اذ ان طبيعة الحياة الاجتماعية والنظم المعيشية التي كانت سائدة آنذاك ساعدت على انتشار هذا الفن وشيوعه . ويمكن ان يعتبر فن المديح مدرسة اخلاقية لما يحتويه من ذكر للفضيلة وتمجيد للبطولة وتعداد لمحاسن الاخلاق .

ولقد كان لهذا الفن بين فنون الشعر القدر المثل في التراث العربي منذ ان جاء الشعر سليقة على لسان العرب في جاهليتهم حتى يومنا هذا . فلقد اطنب الشعراء بمدح رؤساء قبائلهم وملوكهم وعظمائهم وخلدوا اسماءهم بقصائد عصماء ستبقى خالدة خلود الفرقدين .

ولم يكن من بين شعراء العربية من اختص شعره بالمدح ، فكان هذا الغرض مادة شعره وعموده الفقري كابن هاني الأندلسي .

ومما يمتاز به شعر ابن هانيء انه صادر من القلب ونابع من الروح والوجدان • فشعره شعر ايمان وعقيدة وليس شعر تكسب واستجداء كما كان شأن غيره من الشعراء • ولقد تأثر شعره بالعقيدة الاسماعيلية التي جاءت ارضا من ابيه • اذ كان ابوه هانيء داعيا من دعاة الاسماعيلية ، بالاضافة الى كونه شاعرا واديباً • فانتقل من المهديّة في افريقيا وهي معقل الدعوة الاسماعيلية الى الاندلس ليجعلها مركز دعوته الى العقيدة التي كان يعتقدّها وفي اشبيلية ولد له ولد سماه محمد بن هانيء ، وهو شاعرنا موضوع البحث • فنشأ ابن هانيء في اشبيلية ثم تأدب بدار العلم في قرطبة • وكان مع مهارته في الشعر ، حاذقا بالفلسفة والتاريخ والفلك وعلم الهيئة وملما بفك (المعنى) وكان ذلك ما يطلب ممن يريد ان ينتظم في سلك الدعاة الاسماعيليين •

فأصل ابن هانيء بصاحب اشبيلية الذي اعزه واكرمه فصار ذا حظوة لديه ومكانة ممتازة في كنفه • الا ان اعلان تشييعه ودعوته الى امامة الفاطميين قد اثار نقمة اهل اشبيلية عليه مما ادى باميرها الى التخلي عنه ، فأشار اليه بوجود الابتعاد خوفا من الجمهور الغاضب • فترك ابن هانيء الاندلس قاصدا المغرب • وبهذا يقول :

وما نعموا الا قديم تشييعي

فجأ هزبرا شده المتدارك

وفي المغرب لقي ابن هانيء جوهر الصقلي قائد الجيوش الفاطمية الكبير فامتدحه ثم امتدح جعفر بن فلاح وجعفر بن علي ، وظل بالقرب من هذا الاخير حتى سمع باشعاره المعز لدين الله الفاطمي فاستدعاه وعينه شاعرا بلبلطه • فنظم الدرر عقودا في مدح المعز وشدا بذكره والاطراء عليه في قصائد خالدة وروائع تصح ان تكون دررا في جبين الشعر العربي • وانها وان كانت تصف بالغلو مما يجعلها تظهر بمظهر الكفر احيانا ،

الا انها كانت تتمشى مع عقيدة الشاعر الاسماعيلية التي تؤمن بمذهب
 الحلول و قدسية الامامة . فالامام ، في نظر الاسماعيليين هو « علة
 المخترعات ، و حياة الكل ، و به ترتب الخلق والدين ، تأنس بواحد
 للوجود ، وهو موجود غير مفقود ، لا يدركه الزمان ، ولا يدخل تحت
 حوادث الايام » وانه « الموجود للانام ، لا يخلو منه مكان ، ولا يحوزه
 مكان ، لانه آلهي الذات ، سرمدى الحياة ، ولو لم يتأنس بالحدود والصفات
 لما كان للخلق الى معرفته وصول ، فهو شمس فلك الدين ، وآية الله في
 السموات والارضين ، و به صلاح العالم بأسره ، وهو قلب هذا العالم ومدبره
 وممده . فمعرفة وطاعته والتخلى عن ضده صلاح المؤمنين ، وهو فرد
 الحقيقة ، ومرتب الدوام ، وموجد النظام وهو القائل عن نفسه : ظاهرنا
 امامة ، وباطننا غيب لا يدرك^(١) » وان النفس الكلية والعقل الكلي يحلان
 في نفس الامام فيصبح مشاركا في تدبير هذا العالم وان روح الامام « تعود
 الى ما يجانسها فتصبح نفس الامام عقلا من العقول المدبرة للعالم ، فلا
 تناسخ ولا تلاشي »^(٢) .

فليس اذن غلو في نظر الشاعر اذا ما قال في المعز لدين الله الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار

فاحكم فانت الواحد القهار

اذ ليس في هذا القول معارضة للعقيدة التي يعتقها ويؤمن بها في صميم
 قلبه وفي قرارة نفسه - العقيدة الاسماعيلية الباطنية .

وان ما اتصف به ابن هاتمي من صفات حميدة تجعله فوق مصاف
 الشعراء الآخرين - حتى المتنبى - الذين كانوا يتكسبون في مديحهم
 ويستجدون الاكف . فلقد تحلى بالصدق كما قال :

(١) عارف ثامر : اربع رسائل اسماعيلية .

(٢) محمد كامل حسين : في ادب مصر الفاطمية .

وما غاظ حسادي سوى الصدق وحده

وما من سجايا مثلي الافك والحبوب
كما تحلى بالعفّة التي تجعله اسمى من ان ينظم القريض ليضرع به الى
مددوحي كمي ينال هبة او يعفو عنه عن ذنب اقترفه كما قال :
وما قصد مثلي في القصيدِ ضراعة

وما من خلالي فيه حرص وترغيب
فالمديح عند ابن هانيء نابع من عقيدة اعتقها مختاراً فجاء مديحه
تقياً تقاء الماء الزلال الذي يجري نميراً وصافياً صفاء السماء المشرقة التي
لا تكدرها سحب او غيوم . اذ قال عن نفسه :
لسي صارم وهو شيعي كحامله

يكاد يسبق كراتي الى البطل
اذا المعزُ معزُ الدين سلطه

لم يرتقب بالمنايا مدة الاجل
وقد استعمل صارمه ولسانه الذرب وقريحته الوقادة للدفاع عن
الفاطميين والدعوة الى عقيدتهم والتغني بامجاد خلفائهم والمفاخرة باعمالهم
والمناظرة بينهم وبين اعدائهم من امويين وعباسيين معتصبي الخلافة الاسلامية
من اصحابها الشرعيين آل محمد الابرار . فقال في الامويين مذكراً الناس
بفاجعة الحسين وسبي النساء وتعذيب الشيوخ والاطفال وهو يرسم تلك
الواقعة لوحه يثير بها سخف الناس على الامويين وكرهيتهم :-

ألا ان يوماً هائماً أظلمهم
يطير فراش الهام عن كل مجثم
كيوم يزيد والسبايا طريدة

على كل موار الملائع عثم (١)

(١) الموار : المتحرك . الملائع : الجانب (اراد به الجمل السريع
السير) . العثم : الجمل الشديد الطول .

وقد عصت البيداء بالعين فوقها
 كرائم أبناء النبي المكرم
 ذُعرن بأبناء الضباب وأعوج
 فأبكين أبناء الجدِيل وشدقم^(٢)
 يشلونها في كل غارب دوسر
 عليه الولايا بالخشاش مخزَم^(٣)
 فما في حريم بعدها من تحرُج
 ولا هتك ستر بعدها بمحرَم
 وقال في العباسين - وهو ينسبهم الى نَسِيلة جدتهم التي كانت أمة -
 مفاخرأ بالعلوين الذين هم اشرف نساباً :-
 أفي ابن أبي السبطين ام في طليقكم
 تنزلت الآيات والسور الغر^(٤)
 بنى تلة ما اورث الله تلة
 وما نسلت هل يستوى العبد والحر^(٥)
 واني بهذا وهي أعدت برقتها
 أباكم فاياكم ودعوى هي الكفر

(٢) الضباب : اسم فرس سهيرة • أبناء الجدِيل وشدقم : الأبل
 • نسبة الى فحلين مشهورين •

(٣) الدوسر : الجمل الضخم • الولايا : اكسية وثياب • المخزم :
 المتحلى بالخزامة •

(٤) ابن ابي السبطين : ابن علي بن أبي طالب • الطليق : عباس
 ابن عبدالمطلب جد العباسيين •

(٥) بنى تلة : الاصل نتيله وهي أم عباس بنت جناب بن كليب •

ذروا الناس ردوهم الى من يسوسهم
فما لكم في الامر عرف ولا نكر

وهكذا نرى ان ابن هانيء كان لسان المعز الفاطمي يذود عن حياضه
ويدعو لطاعته ويمجد فضائله وشمائله وبطولاته ويدافع عن العقيدة
الاسماعيلية داعيا الناس الى نصرة آل علي وطاعتهم ؛ فطاعتهم فيها
النجاة ومعصيتهم هي الخسران المين . فقال مخاطبا العباسيين :-

لستم كأبناء الطليق المرتدى
بالكفر حتى عض فيه أسار

ابناء تلة ما لكم ولمشرك
هم دوحه الله الذي يختار

ردوا اليهم حقهم وتكبوا
وتحملوا فقد استحم بوار (٦)

ودعوا الطريق لفضلهم فهم الألى
لهم بمجهلة الطريق منار

ولقد تعالى صوته في مدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وفي عظماء
الرجال الذين ادوا خدمات جلى الى الدولة الفاطمية والى العقيدة الاسماعيلية .
فقد مدح ابا الفرج محمد عمر الشيباني . وقال فيه :

فنى كل سعي من مساعيه قبله
يصلى اليها كل مجد ونائل
وفي كل يوم فيه للشعر مذهب

على أنه لم يبق قولاً لقائل

(٦) تنكبوا : تجنبوا . تحملوا : رحلوا . استحم : بمعنى حم أي
قضى الامر .

وقال فيه ايضا :

حلفت بالسابغات البيض واليلب
وبالاسنة والهنديّة القضب^(٧)

لأت ذا الجيش ثمّ الجيش نافلة
وما سواك فلفو غير محتسب

ولو أشرت الى مصر بسوطك لم
تحوجك مصر الى ركض ولا خب

ولو ثبت الى أرض الشام يداً
ألتك اليك بايدي الذلّ من كتب

انت السيل الى مصر وطاعتها
ونصرة الدين والاسلام في حلب

واين عنك بأرض سيّتها زمناً
وازدان باسمك فيها منبر الخطب

أست صاحب أعمال الصعيد بها
قدماً وقائد اهل الخيم والطنب ؟

وان مدائح ابن هاني في جوهر الصقلي قائد جيوش المعز لدين الله
جليله اظهر فيها عظمة هذا القائد الذي كان عاملاً قويا في بناء صرح الدولة
الفاطمية وتوطيد اركانها وفرض هيبتها بفتوحاته العديدة وانتصاراته
الباهرة . قال فيه :

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع
وقد راغني يوم من الحشر ازوع

(٧) السابغات : الدروع الطويلة . اليلب : الترس أو الدرع
المصنوع من الجلد .

غداة كأن الأفق سداً بمثلها
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فقد ضرعت منه الرواسي لما رأته
فكيف قلوب الأنس والأنس أضرع
فلا عسكر من قبل عسكر جوهري
تخب المطايا فيه عشراً وتوضع
تسير الجبال الجامدات بسيره
وتسجد من أدنى الحفيف وتركع^(٨)
إذا حل في أرض بناها مدائناً
وان سار عن أرض ثوت وهي بلقع^(٩)
فسر أيها الملك المطاع مؤيداً
فللدين والدينا اليك تطلع
وقال في مدح الأميرين طاهر والحسين أخوي المعز كيف لا وهما
من الأسرة الفاطمية وينحدران من الدوحة النبوية ، فهما السيدان اللذان
انتقاد لهما الدهر العنيد وطأ رأسه لها اجلالاً واكباراً وهما اللذان خلقهما
الله وجعلهما أمينين على حوض الكوثر يوردان من مائه من شاء ، ويصدان
عنه من شاء ، فقال :
امسحوا عن ناظري كحل السهاد
وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد^(١٠)

(٨) الحفيف : الصوت الخفيف .

(٩) البلقع : الخالي .

(١٠) القتاد : شجر صلب له شوك كالابر .

اوخذوا مني ما ابقيتهم
لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد

هل تجيرون مجباً من هوى
او تفكون أسيراً من صفا^(١١)

بكما انقاد لنا الدهر على
بعد عهد الدهر منا بانقياد

اهل حوض الله يجرى سلسلاً
بالظهور العذب والصفو المراد

أسواهم ابتغى يوم الندى
أم سواهم ارتجى يوم المعاد

هم أباحوا كل ممنوع الحمى
واذآوا كل جبار الغناد

تطلع الاقمار من تيجانهم
وعليهم سابعات كالآدآد

هم أماتوا حاتمأ في طيب
ميتة الدهر وكعبأ في ايباد

لهم الجود وان جاد الورى
ما يحار مترعات من ثماد ؟

هذا ولقد وصل ابن هانيء الذرورة في مدائحہ للمعز لدين الله الفاطمي
فشدأ بمدحه واطراء شمائله وغنى بطيب ارومته وعصره • فهو في نظر
ابن هانيء لوقورن بالدنيا والبحر لكان البحر نفثة من نقشات جوده ، والدنيا

(١١) الصفاة : القيد •

كالغناء الذي يجيء به السيل ، كما قال :
 وطفقت اسأل عن اغرٍ محجّل
 فاذا الاتام جبلة دهماً (١٢)
 حتى دفعت الى المعز خليفة
 فعلمت ان المطلب الخلفاء
 جود كأن اليم فيه نفاة
 وكأنما الدنيا عليه غاء (١٣)

فالمعز هو علة الدنيا ، ولقد خلقت السموات والارض وكل ما هو حي
 وجامد لاجله ، وان وجوده نابع من ماء الوحي الصافي ومن شجرة الخلد
 الوارفة الظلال التي تفتت ثمراتها للاوفياء ، ومن شعلة النار المقدسة التي
 انارت الطريق للنبي موسى :

ملك اذا نطقت علاه بمدحه
 خرس الوفود وأفحم الخطباء
 هو علة الدنيا ومن خلقت له
 ولعله ما كانت الاشياء
 من صفو ماء الوحي وهو مجاجة
 من حوضه ينبوع وهو شفاء (١٤)
 من ايكة الفردوس حيث تفتت
 ثمراتها وتقياً الأفياء

(١٢) الاغر المحجّل : كناية عن الرجل الجواد الكريم .
 (١٣) النفاة : النفخ الذي يخرج معه الريق من الشفتين . الغناء :
 ما يحمله السيل من الزبد والوسخ .
 (١٤) المجاجة : الريق . الحوض : مجتمع الماء . ينبوع : عين ماء
 متدفقة .

من شعلة القبس التي عرضت على
موسى وقد حارت بها الظلماء (١٥)

من معدنِ التقديس وهو سلالة
من جواهر الملكوت وهو ضياء

من حيث يُقْتَبَسُ النهارُ لمبصر
وتشف عن مكنونها الأنباء (١٦)

فان لطلعته سناء يعشى عين الشمس الساطعة ، ولقد اجمع الناس على
اجلاله وتفضيله • فهو شفيعهم لانه امين الله على خلقه :

والشمس ترجع عن سناء جفونها
فكانها مطروفة مرهأ (١٧)

للناس اجماع على تفضيله
حتى استوى اللؤماء والكرماء

هذا الشفيع لامة يأتى بها
وجدوده لجدودها شفعا

هذا امين الله بين عباده
وبلاده ان عُدَّت الامناء

وعلى مجياه نور رباني يضي عليه بهاء ، ويجعل سيماء يظهر
كسيماء النبي محمد • وان من كانت هذه فضائله وصفاته فلا ريب يمدد
الله بنصر من عنده ، وتنزل الملائكة لنصرته ، ويطيعه الصباح والنساء
والسفن التي تمخر عباب البحار والدهر والايام والخضراء والغبراء •

(١٥) القبس : شعلة نار •

(١٦) اقتبس : اخذ شعلة • المكنون : المستور •

(١٧) المرهأ : المصابة بالمره وهو مرض يصيب العين •

فعلية من سيما النبي دلالة
 وعليه من نور الآله بهاء
 نزلت ملائكة السماء بنصره
 واطاعه الاصباح والامساء
 والفلك والفلك المدار وسعد
 والغزو في الدماء والدماء (١٨)
 والدهر والايام في صريفها
 والناس والخضراء والغبراء (١٩)
 فالزمان رهن يديه يتحكم فيه كيفما اراد ، فاين المفر لمن يناسب المعز
 العداء وله البسيطان الثرى والماء :
 لا تسألن عن الزمان فانه
 في راحتك يدور كيف تشاء
 اين المفر ولا مفر لهارب
 ولك البسيطان الثرى والماء
 وقال في مدح المعز :

خابت امية منه بالذى طلبت
 كما يخيب برأس الأقرع المشط
 وحاولوا من حضيض الأرض اذ غضبوا
 كواكباً ، عن مرامي شأوها شحطوا (٢٠)

(١٨) الفلك السفينة • الدماء : البحر •
 (١٩) الخضراء : السماء • الغبراء : الارض •
 (٢٠) شحطوا : بعدوا •

هذا ، وقد فرّق الفرقان بينكما
 بحيث يفترق الرضوان والسخط
 الناس غيركم ، العرقوب في شرف
 واتسم ، حيث حلّ التاج والقرط
 ولست اشكو لنفسي في مودتكم
 لأنكم في فؤادي جيرة خلط (٢١)
 يا أفضل الناس ، من عرب ومن عجم
 وآل احمد ، ان شَبّوا وان شَمَطوا (٢٢)
 ليهنك الفتح ، لا أني سمعت به
 ولا على الله ، فيما شاء ، اشترط
 لكن تفاءلت ، والاقدار غالبية
 والله يبسط آمالاً ، فتبسط
 ولست اسأل إلا حاجةً بلغت
 سؤال الامام بها الركاضة النشط (٢٣)
 من فوق أدهم لا يجتاز غايته
 نجم من الأفق الشمسي منخرط
 يحثه راكب ضاقت مذهبه ،
 بادي التشعب ، في عنونه شحط (٢٤)

(٢١) جيرة خلط : جيران مخلصون .

(٢٢) شَمَطوا : خالطهم الشيب .

(٢٣) الركاضة النشط : الرسل المسرعون .

(٢٤) التشعب : اصفرار الوجه . العثنون اللحية . الشمط :

الشيب .

ان الملوك اذا قيسوا اليك معاً
فأنت ، من كثرةٍ ، بحرٍ وهم نقط
ولقد جعل ابن هانيء ممدوحه المعز في مرتبة لم يبلغها غيره من
الرجال الا اذا ذبل ان الشمس ادنى درجة منه فتراها خاشعة ضارعة
لعظمته ، اذ قال :

وما بلغ الاسكندرُ الرتبةَ التي
بلغتَ ولا كسرى الملوك وتبّع

سموتَ من العليا الى الذروة التي
تُرى الشمسُ فيها تحت قدرك تضرعُ
الى غايبة ما بعدها لك غايبة
وهل خلف افلاك السماوات مَطْلَع

الى اين تبغى ليس خلتك مذهب
ولا لجوادٍ في لحافك مطمع
ولقد شهدت السماء بمفاخر المعز وتضمن القرآن بطياته مديحا
له ، وانه لو لم تطلق عليه صفة الخلافة فانه يستحق ان يدعى بعد
المسيح مسيحا :

شهدتُ بمفخرك السماواتُ العلى
وتنزّلُ القرآنُ فيك مديحا

اقسمت لولا ان دُعيت خليفة
لدُعيت من بعد المسيح مسيحا
ولقد ارتبط الدين بالامام المعز ، ففي عصيانه الخسر وفي طاعته
الفوز المين . وان هذا الامام قد تملك هدى الملائكة التي هي افضل من
هدى الانبياء :

امام" رأيت الدين مرتبطاً به
فطاعته فوزاً وعصيانه خسر

فيا مالكا هدى الملائك هديه
ولكن نجراً الانبياء له جبر

وان المعز هو ضمير الكون والسر المكنون الذي قدرت المقدورات
وتكونت الاكوان من اجله • وانه النور الاوحد الذي هو فوق كل شيء •
وكل شيء دونه في القدر والكرامة :

هذا ضمير النشأة الاولى التي
بدأ الآله وغيها المكنون (٢٥)

هذا معد والخلاق كلها
هذا المعز متوجاً والدين

من اجل هذا قدر المقدر في
أم الكتاب وكون التكوين

وبذا تلقى آدم من ربه
عفواً وفاء ليونس اليقطين (٢٦)

النور أنت وكل نور ظلمة
والفوق أنت وكل فوق دون

لو كان رأيك شائعاً في امة
علموا بما سيكون قبل يكون

أو كان شرك في شعاع الشمس لم
يكسف لها عند الشروق جبين

(٢٥) النشأة الاولى : الدنيا •

(٢٦) اليقطين : الحوت •

الله يقبل نسكنا عنا بما
يرضيك من هدى وانت معين
فرضان من صومٍ وشكرٍ خليفة
هذا بهذا عندنا مقرون
فارزق عبادك منك فضل شفاعه
واقرب بهم زلفى فانت مكين
وانه الدليل لمعرفة الله ؟ وكل هداية دونه تضليل :

والله مدلول عليه صنعه
فينا وانت على الدليل دليل
من يهتدى دون المعز خليفة
ان الهداية دونه تضليل
فافخر ، فمن انسابك الفردوس ان
عدت ومن احسابك التزليل
شهد البرية كلها لك بالعلوى
ان البرية شاهد مقبول
هذا وان المعز كان عالما بمكنونات الله وباسرار الكون وبعلم الغيب ،
وانه لولا كونه مصدرا للشفاعة وسبباً للنجاة لم يغن الناس ايمانهم ،
فلايمان المستمد عن مصدر غيره انما هو ايمان ناقص مبتور :

وعلمت من مكنون علم الله ما
لم يؤت جبريلاً وميكائيلاً
له فيك سريرة لو اعلنت
أجبا بذكرك قاتل مقتولا

لو كان اعطى الخلق ما اوتيته
لم يَخْلُقُ التشييهَ والتمثيلاً

لولا حجابِ دون علمك حاجز
وجدوا الى علم الغيوب سيلاً

لولاك لم يكن التفكير واعظاً ،
والعقل رشداً ، والقياس دليلاً

لو لم تكن سببَ النجاة لأهلها
لم يُغْنِ ايمانُ العباد قتيلاً

لو لم تعرّفنا بذات نفوسنا
كانت لدينا عالماً مجهولاً

وان المعز ما هو الا نور في جسم آدمي ، فهو روح هدى في جسم
نور ، يمدّه شعاع من الاعلى لا ينقطع ، فهو عليم بسر الله علماً ذاتياً غير
مكتسب ، لذا غدا الناس ناكسي الاجصار امام هيئته وجليل قدره :

غَدَوْا ناكسي اجصارهم عن خليفة
عليمٍ بسرِّ الله غيرِ مُعلِّمٍ

وروح هدى في جسم نور يمدّه
شعاعٌ من الاعلى الذي لم يجسّم

ومتصل بين الآله وبينه
ممرٌّ من الاسبابِ لم يتصرّم (٢٧)

اذا انت لم تعلم حقيقةَ فضله
فائلٌ به الوحيَ المنزّلَ تعلم

(٢٧) الممر : المحكم الفتل • الاسباب : الحبال •

فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه
عن الله لم يعقل ولم يتوهم
ومدرة غيب لا معنى تجارب
ولا بس حلم لا معار تحلم

هذا وتختم بحثنا هذا برأيته التي نظمها في سنواته الأخيرة يوم كان
المعز يتأهب للرحيل إلى مصر بعد أن فتحتها جيوشه • وقد وصل بها ذروة
الغلو الأسماعيلي إذ أسبغ على المعز صفات الألوهية ، وهذه مقتطفات منها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فأحكم فأت الواحد القهار

وكنما أنت النبي محمد
وكنما انصارك الانصار

أنت الذي كانت تبشرنا به
في كتبها الاجبار والابخار

هذا امام المتقين ، ومن به
قد دوخ الطغيان والكفار

هذا الذي تُرجى النجاة بجه
وبه يُحط الأصر والأوزار

هذا الذي تجدى شفاعته غداً
حقاً ، وتخدم أن تراه النار (٢٨)

ابناء فاطم هل لنا في حشرنا
لجاً سواكم عاصم ومجار (٢٩)

(٢٨) النار : جهنم •

(٢٩) المجار : الملجأ والمعاذ •

اتهم أحياء الآله وآله
 خلفاؤه في أرضه الأبرار
 اهل النبوة والرسالة والهدى
 في الينيات وسادة اطهار
 والوحي والتأويل والتحريم والت
 حليل لا خلف ولا انكار
 ان قيل من خير البرية لم يكن
 الاكم خلق اليه يشار
 لو تلمسون الصخر لانبجست به
 وتفجرت وتدقت أنهار
 أو كان منكم للرفات مخاطب
 لبوا وظنوا أنه انشار (٣٠)
 امعز دين الله ! ان زماننا
 بك فيه بأو جل واستكبار (٣١)
 عطرت بك الأفواه اذ عذبت لك ال
 أمواه حين صفت لك الاكدار
 جللت صفاتك أن تحدد بمقول
 ما يصنع المصداق والمكثار (٣٢)

(٣٠) انشار : احياء بعد المات ، النشور .

(٣١) بأو : فخر .

(٣٢) المقول : اللسان .

والله خصك بالقران وفضله
واخجلتني ! ما تبلغُ الاشعار (٣٣)

هذا وان شعر ابن هانيء الاندلسي يتميز بسلامة التفكير ، وسلاسة
التعبير ، ورشاقة الاسلوب ، ومثانة التركيب ، ومعالجة الكثير من الحكم
واحوال الاجتماع وخلجات النفس . ولكنه مملوء بالمفردات الصعبة
والالفاظ الغريبة ، كقوله :

ملأوا البلادَ رغائباً وكتائباً
وقواضباً وشوازباً ان ساروا (٣٤)

وعواطفاً وعوارفاً وقواصفاً
وخوانفاً يشاقها المضمار (٣٥)

وجداولاً وأجادلاً ومقاولاً
وعوامللاً وذوابلاً واختاروا (٣٦)

عكسوا الزمانَ عوائتاً ودواخناً
فالصبحُ ليلٌ والظلامُ نهارٌ (٣٧)

ولقد فضل الكثير من النقاد ومؤرخي الادب ابن هانيء الاندلسي على
شعراء المغرب على الاطلاق .

(٣٣) القران : مسهل القرآن .

(٣٤) الرغائب : العطاء الكثير . القواضب : السيوف . الشوازب :
الخيول الضواهر .

(٣٥) العواطف : النوق ذات الاولاد . العوارف : النوق العسبورة .
القواصف : النوق الشديدة الصوت . الخوانف : النوق التي تميل برأسها
الى راكبها . المضمار : الموضع الذي تضمير فيه الخيل والدواب .

(٣٦) الجدول : النهر الصغير . الاجادل : الصقور . المقاول :
الملوك . العوامل : صدور الرماح . الذوابل : الرماح .
(٣٧) العوائن : الدخان . الدواخن : جمع دخان .

فقد قال عنه ياقوت الحموي في كتابه « معجم الادياء » :
« ابو القاسم الازدي الاندلسي اديب شاعر مفلق ، اشعر المتقدمين والمتأخرين
من المغاربة ، وهو عندهم كالمتنبى عند اهل الشرق » .

وقال ابن خلكان عنه : « وليس في المغاربة من هو في طبقته ، لا من
متقدميهم ولا من متأخريهم ، بل هو اشعرهم على الاطلاق ، وهو عندهم
كالمتنبى عند المشارقة » .

وقال كذلك عن ديوان ابن هاني : « لولا ما فيه من الغلو في المدح
والافراط المفضى الى الكفر لكان ديوانه من احسن الدواوين » .

الحكم والأعمال في شعر الطغرائي

الطغرائي هو أبو اسماعيل بن الحسين عميد الشعر العربي في عهد الدولة السلجوقية امتاز شعره بالفخر والحكم والامثال وكان معجبا بالمتنبي وشعر المتنبي حتى لقد حذا حذوه في اسلوبه ومعانيه . وان شعره يتسم بجزالته ومثانة قافيته وبديع الفاظه . وله ثمر يجارى شعره في احكام الصنعة ورصانة الاسلوب . لذا فقد اختاره السلاطين السلجوقيون لرئاسة ديوان الطغراء الذي يشمل ديوان الرسائل والانشاء . ويتولى صاحب هذا المنصب شؤون الوزارة في الصيد . ولقد وصف انه « لم يكن للدولتين السلجوقية والامامية من يضاھيه في الترسل والانشاء » .

ولد الطغرائي في مدينة اصبهان عام ٤٥٣ هجرية وهي من امهات المدن الاسلامية في ذلك الزمان مشهورة بجمال طبيعتها وبعذوبة مائها واعتدال مناخها وكثرة سائنها وفاكحتها حتى لقد تغنى الشعراء بها واكثروا من وصفها وابرار محاسنها . فقال شاعر :

يا بقعة هي دار الخلد او خلقت

انموذجا نعيم دائم فيها

وقيل فيها أيضا :

فمن حل جيا ليس يشي رحالها

وانسى حاجات باخرى انتظامها

لتشرب مياه الزندروود اذا اشتكت

من السقم نفس - كي يخف سقامها

و (جي) التي ورد ذكرها في الشعر اجمل بقعة في اصفهان ،

و (الزندروود) النهر الذي يخترق تلك المدينة الجميلة .

ولد الشاعر من اسرة عريقة ، قيل انها فارسية وقيل انها عربية تسمى

الى ابي الاسود الدؤلى . فتتقف واخذ العلم والادب من اجود مناهله ،

فألم بكل فنون ومعارف عصره ، وقال الشعر واجاد فيه ، وذاع صيته .

كان فاضلا واسع الاطلاع ، وكان طموحاً معتدا بنفسه يشعر بالاعتزاز

بذاته طامعاً يتسلق مراقى المجد بحصوله على مناصب عليا في الدولة . وهو

يشبه المتسبي بهذا كما يشبهه بمجاهته لكثير من الحماد والمناوئين الذين

دبروا له المكائد والذسائس حتى تمكنوا أخيرا من رميه بالسحر تارة

وبالاحاد أخرى كذبا وبهتاناً وعملوا على قتله ، فذهب الى مقره الاخير

شهيدا وقد جاوز الستين من عمره .

ولقد وصف الطغرائي انه كان « ذا فضل غزير وأدب كثير .. »

وكان « اذا انشأ تروى بطيا وتفكر مليا وغاص في بحر خاطره ، ثم اتى

بالمعاني البديعة والاستعارة الغريبة . »

وكان طموح الطغرائي يدفعه الى عدم القناعة والاكتفاء بمنصبه في

ديوان الطغراء ، بل كان يطمع بالوزارة . ولكن ذسائس طغمة الفت

المكائد واستساعت الكذب والباطيل كانت واقفة له بالمرصاد حتى تمكنت

من ابعاده عن منصبه في عدة مناسبات ، وهذا دعاء الى نظم قصائد رنانة

متهجما فيها على اولئك الكائدين الذين ناصبوه العداة والذين كانوا دونه

كفاءة واصالة ، فقال :

ما كنت اوتر ان يمتدَّ بي زمني

حتى ارى دولة الاوغاد والسفل

تقدمتني اناس " كان شوطهم'
وراء خطوي اذ امشي على مهل
وقال :-

تكاد ترى من لا يقاس نجاده
يشسعي اذا ما ضمنا صدر مشهد

(والشسع) زمام للنعل بين الاصبع الوسطى والتي تليها .

ومن اشعاره التي قالها في الفخر قصيدته التي مطلعها :

ابى الله ان اسمو بغير فضائي
اذا ما سما بالمال كل مسود

وان كرمت قبلي اوائل اسرتي
فاني بحمد الله مبدأ سؤدي

يذم لأجلي المهر ان يكب مرة
بجدي وان ينهض بجدي يحمد

وما منصب الا وقدري فوقه
ولو حط رحلي بين سر وفرقد

اذا شرفت نفس الفتى زاد قدره
على كل اسنى منه ذكرا وامجد

وكانت تلك القصيدة نفة حارة للتنفيس عما كانت تصطرع في نفسه
من رغبات وما كان يقاسيه من شدائد واحن وظروف قاسية عصبية .
وأخيرا حلت المصيبة الدهماء التي كان يخشاها فعزل الطغرائي من
منصبه عندما كان في بغداد . فظلم قصيدته العصاوين الراعتين وهما بائته
التي مطلعها :

اهاب به داعي الهوى فأجابا
وعاوده نكس الصبا فتصابي
والتي تضمنت ثورته على العراق واهله :

ملكت ثوائي بالعراق وملتي
رفاقي وكانوا بالعراق طرابا

اما القصيدة الثانية فهي لاميته الشهيرة بلامية العجم والتي مطلعها :

اصالة الرأي صاتني عن الخطل
وحلية الحلم زاتني لدى العطل

وهذه القصيدة اتمن درة في ديوان الطغرائي • طالما اعجب بها
المعجبون ، وشرحها الشارحون وعلى رأسهم الصفدي ، وطالما عارضها
الشعراء المعجبون بها امثال الصفدي بقصيدته :

الجد في الجد والحرمان في الكسل

فانصبَّ تُصبُّ عن قريب غاية الامل

والبارودي بقصيدته :

قلدت جيد المعالي حلية الغزل

وقلت في الجد ما اغنى عن الهزل

* * *

نظم الطغرائي لاميته في عام ٥٠٥ في بغداد بعد عزله من منصبه فادعها
كل ما كان يخامرهم من مشاعر وأفكار ، اودعها روحه وعقله واحاسيسه
فظهرت آية من آيات الروعة والجلال • وهي بالاضافة الى ذلك تسم
بفصاحة اللفظ وبديع المعنى وفخامة التركيب •

والقصيدة تبدأ بمقطع يعبر عن الفخر والكبرياء اللذان كانا يعمران
قلب الشاعر :

اصالة الرأي صانتي عن الخطلِ
وحلية الفضل ذاتني لدى العطلِ^(١)

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع^٢
والشمس راد الضحي كالشمس في الطفل^(٣)

وهو يعبر عن شعوره بالاعتداد بذاته فيقول ان فكره السليم صانه
عن المنطق الفاسد ، وان ما تحلت به نفسه من فضل وخلق قويم زانه
واظهاره بالمظهر اللائق المحترم عندما فقد منصبه ، اذ الاخلاق ، وليس
المنصب ، تظهر قدر الانسان . ثم يقول ان مجده قبل تعطله عن وظيفته
وبعده سواء ، حاله في ذلك كحال الشمس التي لا تتغير سواء كانت عند
شروقها أو عند الغروب .

قيم الإقامة بالزوراء لا سكتي
بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

ناء عن الاهل صفر الكف مفرد
كالسيف عرّي متناه عن الخلل^(٣)

فلا صديق اليه مشتكي حزني
ولا انيس اليه منتهى جذلي

(١) الخطل : المنطق الفاسد . العطل : البعد عن المناصب الحساسة .

(٢) شرع : سواء . راد الضحي : طلوع الشمس . الطفل : غروب
الشمس .

(٣) الخلل : بطائن كانت تغشى بها اجفان السيوف منقوشة
بالذهب .

وهنا يثور الشاعر على بغداد فتحدثه نفسه بتركها لما اصابه فيها من
خيبة أمل ، واصيب بأعز ما يملك وهي عزته وكبرياؤه . « فيم الإقامة
بالزوراء » تم عن مدى شعوره بالاسى المرير والالم الممض من مكوثه في
بلد لم يعرف قدره حيث لا أهل يسكن اليهم فيها ولا مال أو نسب ،
وحيدا ، بعيداً عن الأهل والأصحاب ، خالي الوفاض شأنه شأن المهند
الخالي من الحلبي والزينة .

طال اغترابي حتى حنَّ راحلتي
ورحلها وقرى العسالة الذبل^(٤)

وضيح من لغبٍ نضوى وعجَّ لما
يلقى ركابي ، ولجَّ الركب في عدلي^(٥)

وهنا تملكه الحنين الى وطنه واهله واجبائه حتى حنت ناقته وحنّت
رماحه الى حيث الدعة والاستقرار . ثم عاد يشتكي مما يقلق نفسه من
آلام مصدرها دسائس العذال والحاسدين .

أريد بسطة كفَّ أستعين بها
على قضاء حقوقٍ للعلى قبلي^(٦)

والدهر يعكس آمالي ويقتضي
من الغنمة بعد الكدِّ بالقفل^(٧)

ان ما كان يشغل باله طموحه نحو المعالي ورغبته الجامحة لتسلق
مراقي المجد صعدا وان سعة الحال هي الوسيلة لتحقيق ما كان يصبو اليه

- (٤) الراحلة : الناقة . قرى العسالة : اعالي الرماح . الذبل :
الخفيفة الدقيقة وهي صفة حسنة من صفات الرماح .
(٥) النضو : البعير المهزول .
(٦) بسطة كف : سعة في المال .
(٧) الكد : الجهد . القفل : الرجوع والخيبة .

اذ المال بيد الفاضل اداة خير وصلاح ووسيلة للوصول الى العلا • ولكن
الدهر الخؤون كان يعكس آماله ويوصد بوجهه ابواب النجاح ويقنعه
من الغنيمة بعد الجد بالنكوص على الاعقاب •

ثم يتبع ذلك مقطع في الغزل وكأنه يتغزل فيه بالمجد وليس بربات
الحجال • وتنتهي القصيدة بمقاطع تكاد لا تعثر في آياتها على بيت يخلو
من مثل سائر أو حكمة رائعة • وهذه المقاطع تبدأ بالآيات التالية :

حبُّ السلامة يشني همَّ صاحبه
عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فان جنحت اليه فاتخذ نفقاً
في الارض أو سلباً في الجو فاعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على
ركوبها ، واقتنع منهن بالبلل
رضى الذليل بخفض العيش مسكناً
والعز عند رسيم الاينق الذليل (٨)
فادراً بها في نحور اليد جافلة
معارضات مثاني اللجم بالجُدل (٩)
ان العلا حدتني وهي صادقة
فيما تحدت أن العز في النقل
لو ان في شرف الماوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

(٨) الرسيم : ضرب من سير الابل • الاينق : النوق (جمع ناقة) •
(٩) فادراً : جافلة • مسرعة • الجدل جمع جديل : وهو
زمام الناقة المجدول •

ففي هذه الأبيات يدعو الشاعر الى الأقدام والمغامرة في الحياة لان حب السلامة يميئ العزائم ويصد الانسان عن بلوغ المعالي • ومن جنح اليه فليتخذ له نفقا في الارض أو سلما في الجو فيعتزل الناس ، لان طبيعة الحياة تستوجب الحركة والسعي والاجتهاد ، ومن لم يجار سنة الطبيعة تسحقه عجلة الحياة ويداس تحت الأقدام • وان القناعة بخفض العيش انما هي ذل ومسكنة ، والعز عند ذلك الذي يبحث عن المعالي فيصيدها حتى لو كانت في الجوزاء • ولو كان في الكسل والسكون بلوغ الاماني لما واصلت الشمس حركتها ومسيرها بلا انقطاع •

ثم يعود الشاعر الى ذاته فيلعن حظه العائر ، ويعلل نفسه آملا ان يتنبه الحظ لفضله يوماً ما فيسغفه السعود ، قال :

اهبتُ بالخطِّ لو ناديت مستمعاً

والخطُّ عني بالجهال في شغل

لعله ان بدا فضلي وتقصهم

لعينه ، نام عنهم او تنبّه لي

أعلل النفس بالآمال أرقبها

ما اضيق العيش لولا فسحة الامل

لم ارتض العيش والايام مقبلة

فكيف ارضى بها وقد ولت على عجل

غالي بنفسي عرفاني بقيمتها

فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

وعادة النصل أن يزهي بجوهره

وليس يعمل الا في يدي بطل

واقبل على نفسه يشيد بفضلها ويفخر بقيمتها حيث انه قد صانها عن
رخيص القدر مبتذل ، وان شأنها شأن النصل الذي يزهي بجوهره
لا بمظهره . وعاد الى الشكوى من زمان قدم السفلة والاوغاد ، ثم اخذ
يسلّي نفسه بان لا عجب ، فله اسوة بانحطاط الشمس المنيرة عن زحل .
فقال :

ما كنت أوترُ أن يمتدّ بي زمني
حتى أرى دولة الاوغاد والسفل

تقدّمتي اناس كان شوّطهم
وراء خطوى اذ أمشي على مهل

هذا جزاء امرى اقرانه درجوا
من قبله فتمنى فسحة الاجل

وان علاني من دوني فلا عجب
لي اسوة بانحطاط الشمس عن زحل

فاصبر لها غير محتال ولا ضجر
في حادث الدهر ما يغني عن الحيل

ثم ينتقل الشاعر الى سبر غور النفس الانسانية وتحليل اخلاق الناس
فيقول :

اعدى عدوك أدنى من وثقت به

فحاذر الناس واصحبهم على دخل^(١٠)

وانما رجل الدنيا وواحد

من لا يعوّل في الدنيا على رجل

(١٠) الدخل : المكر والخديعة والمداينة .

وحسن ظنك بالايام معجزة

فظن شراً وكن منها على وجل

غاض الوفاء ، وفاض الغدر وانفرجت

مسافة الخلف بين القول والعمل

وشان صدقك عند الناس كذبهم

وهل يطابق معوج بمعتدل

ان كان ينجع شي في ثباتهم

على العهود فسبق السيف للمعدل

ينصح الشاعر ان يأخذ كل فرد حذره من الناس ، وان يصحبهم بالخدعة والمكر ، وان لا يثق باحد حتى لو كان اقرب المقرين اليه لان « اعدى عدوك ادنى من وثقت به » . وان الرجل الماجد الحصيف هو الذي لا يتكل الا على نفسه ، والذي لا يحسن الظن بالايام وبالناس ، حيث ان الوفاء قد انعدم ، والغدر قد استفحل امره ، والكذب قد راج شوقه ، (وهل يطابق معوج بمعتدل ؟) ، وهل يمكن ان يعيش امرؤ صادق مستقيم بين قوم شيمتهم الكذب والمؤم والغدر ؟ .

وأخيراً انحدر الطغرائي الى حالة من اليأس والقنائة واخذ يعاتب نفسه قائلاً :

يا وارداً سُورَ عيشٍ كلُّه كدرٌ

أنفقت صفوَك في ايامك الاول

فيم اقتحامك لِح البحر تركبه

وات يكفك منه مصّة الوشل

ملك القناعة لا يخشى عليه ولا
يحتاج فيه الى الانصار والخول^(١١)
ترجو البقاء بدارٍ لا ثبات لها
فهل سمعت بظلٍ غير متقل
ويا خيراً على الاسرار مطلقاً
اصمت ففي الصمت منجاة من الزل
قد رشحوك لامر لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل^(١٢)

فانتهى الشاعر بحالة من اليأس المطبق ، وقال مخاطباً نفسه ان العيش
كله كدر ، وان ايام الصفو قد ولت وزالت ، فعلام اقتحام لجج البحار في
الوقت الذي يكفي منه مصة الوشل . وان ملك القناعة لا يخشى عليه
ولا يحتاج للدفاع عنه الى الانصار والعييد . واخذ يحذر نفسه من أعدائه
الذين يضمرون له شراً ويسعون الى هلاكه ، وينصحها بالتزام الصمت ،
ففي الصمت منجاة من الزل . كما اخذ يعزى نفسه بان فقد المال والمنصب
اهون من فقد الحياة ؛ ولما كانت الحياة ليس لها قرار أو ثبات ، ففقد المال
أو المنصب يظهر تافهاً أمام الموت الي هو بانتظار كل انسان . . .
هذا وان عظمة هذه القصيدة اللامية تكمن في فخامتها وروعيتها ،
بقدر ما تكمن فيما تضمنته من امثال وحكم تداولتها الالسن وتناقلتها الافواه
في مختلف العصور والاجيال .

(١١) الخول : الحشم والعييد .

(١٢) الهمل : الأبل بلا راع .

الوصف

في شعر ابن خفاجه

كان الوصف ملازماً للآداب الإنسانية لأنه ملازم لطبيعة النفس البشرية منذ الحياة البدائية حتى حياة الحضرة والمدنية .

فكان الإنسان وما يزال يتغنى بما يشاهده من جمال الطبيعة المحيطة به فيعبر عن روعتها وعمما تخلق في نفسه من احساس تجاهها .

وصف الشعراء ، واطنوا في وصفهم ، محاسن الطبيعة من حدائق وبساتين وزهور وسفن ماخرة عباب البحور ومن مدائن ومباني وقصور ومجالس للطرب والشراب حيث تدار الخمور على أنغام الموسيقى التي تهز الشعور والحنان المفردات الشاديات اللائي يملأن القلوب بهجة وحبورا . وفي قمة ما احتوته الطبيعة من روائع المخلوقات تسنم المرأة عرش القلوب لذا نجد في الآداب الإنسانية وخاصة في الادب العربي غزارة في وصف المرأة وابداء محاسنها والتفنن في التعبير عن خلجات النفوس تجاهها . كما جاء في وصف دوقلة المنبجي حبيبته دعد في قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

هل في الطلول لسائل رد ام هل لها بتكلم عهد

والتي جاء فيها :

لهفي على دعد وما خلقت

الا لجر تلهفي دعد

بيضاء قد لبس الأديم بها
والحسن فهو لجلدها جلد

ويزين قودها إذا حسرت
ضافي الغدائر فاحم جمده

فالوجه مثل الصبح مبيض
والشعر مثل الليل مسود

ضدان لما استجمعا حسنا
والضد يظهر حسنه الضد

وجينها صلت ، وحاجبها
شخت المخطط أزج ممد

وكأنها ونى إذا نظرت
أو مدنف لآ يفق بعد

وتريك عريناً يزيئيه
شمم وخذاً لونه الورد

وتجيل موك الأراك على
رتل كأن رضابه الشهد

والجيد منها جيد جارية
تعطو إذا ما طالها المرء

وامتد من أعضادها قصب
فعم تله مرافق درد

والمعصمان فما يرى لهما
من نعمة وبضاضة زند

ولها بنان لو اردت له
عقداً بكفك امكن العقيد

وكانما سقيت ترائبها
والنحر ماء الورد اذ تبدو

وبصدرها حقان خلتها
كافورتين علاهما نهد

والبطن مطوى كما طويت
بيض الرياط يصونها الممد

وبخصرها هيف يزينه
فاذا تنوء يكاد ينقد

والتف فخذها وفوقهما
كفل يجاذب خصرها نهد

فقيامها منى اذا نهضت
من ثقلها وقعودها فرد

.....

.....

ما عابها طول ولا قصر
في خلقها فقوامها قصد

ان فن الوصف يتأثر بالبيئة والمحيط والتطور الفكري والعقلي أكثر
من أي غرض آخر من أغراض الشعر اذ يستعير الشاعر عادة صورة
وتشابهه من واقع بيئته .

فالبدائي تميل به ساطته الفكرية الى نزعة التقليد ، فينقل ما يرى

حوله وما يشاهد من آثار الطبيعة المحيطة به دون ان يصور خلجات نفسه
المتأثرة بتلك المشاهد والمؤثرات • بل هو يحاول تجسيد الظاهرة كما
تبدو للحواس • فوصفه أبدا وصف مادي •

اما المتحضر فان نفسيته المعقدة تقوده الى ان لا يكتفى بنقل الظواهر
نقلا تصويريا فقط بل يمزجها بفكره وأحاسيسه وضميره بصورة انسانية
حية • فنظرته تتعدى الظواهر الى الحقائق والمعاني التي تكمن وراءها
وحولها • فوصفه وصف وجداني تغلب عليه النزعة النفسية ، تنفيض
ذات الشاعر على الظواهر المادية وتسبغ عليها ملامح انسانية •

ومن دلائل تأثير البيئة في الشعر الوصفي المواضيع التي تطرق اليها
الوصف في مختلف العهود • فوصف الشاعر الجاهلي لم يتعد وصف
الطلل والصحراء والناقة والفرس والعقاب وما شابه ذلك كما قال امرؤ
القيس يصف جواده :

وقد اغتدى والطير في وكناتها
بمنجرد قيد الاوابد هيكلا
مكر مفر مقبل مدير معاً
كجلمود صخر حطه السيل من عل
له ابطالا ظبي وساقا نعامة
وارخاء سرحان وتقريب تَفَلَّ

اما الشعر الوصفي في العهد العباسي فقد تغير موضوعه بتغير الحياة
التي اخذت تسم في هذا العهد بالترف والرخاء والرفاهية ومظاهر الحياة
الحضارية • فلم تعد المساكن خياما وسط يبداء لا يرى فيها الا الرمال
التموجة ، بل أصبحت بيوتا انيقة وقصورا فخمة تحف بها الحدائق
العُسن المليئة بالاشجار المورقة الخضر والازهار والرياحين • ولم يعد

الشعر الوصفي مقتصرا على وصف الطلل البالي والناقة والفرس والذئب
والاسد بل تعداها الى الف موضوع وموضوع • نصار الشاعر يصف
الجائن الزهر والبرك والقصور الشمّ ومجالس المهو والشراب وما
تحتويه من مغنين ومغنيات وسقاة وساقيات •
ولقد اجاد البحري ايما اجادة في وصف بركة المتوكل بقوله :

تصبُّ فيها وفودُ الماء معجّلة
كالخيل خارجة من جبل مجريها

كأنما الفضة البيضاء سائلة
من السبائك تجرى في مجاريها

إذا علتها الصبا ابدت لها حبا
مثل الجواشن مصقولا حواشيها

فحاجب الشمس احيانا يضحكها
وريق الغيث احيانا يباكيها

إذا النجوم تراءت في جوانبها
ليلاً حسب سماء رُكبت فيها

ولقد اتخذ فن الوصف من الخمر مرتعا خصيا كما جاء بقول ابي
نؤاس في وصف مجلس للشراب :

اذكى سراجا وساقى الشرب يمزجها
فلاح في البيت كالمصباح مصباح

كدنا على علمنا بالشك نسأله
اراحنا نارنا ام نارنا الراح

اما الشعر الاندلسي فقد تأثر الى حد كبير بما منح الله تلك البلاد من

طبيعة فاتنة تستهوي الأفئدة والقلوب • فكانت اغنى بقاع المسلمين منظرا
واوفرها جمالا • وقد افاض المقرئ في وصف طبيعتها الفاتنة وجنانها البهيجة
حتى انتهى الى قوله : « محاسن الاندلس لا تستوفى بعبارة ، ومجارى فضلها
لا يشق غباره » •

وقد كان من اثر ذلك الجمال الفتان ان شغفت به القلوب فتعلق
بالاندلس سكانها وصاروا يستمتعون بمفاتنها وينظمون عقوداً من الآلىء
في وصف رياضها ومباهج جنانها كما قال ابن خفاجة :

يا أهل اندلس لله دركم
ماء وظل وانهار واشجار

ما جنة الخلد الا في دياركم
ولو تخيرت هذى كنت اختار

لا تخشوا بعدها ان تدخلوا سقراً
فليس تدخل بعد الجنة النار

ويكفى ان يهب نسيم عليل على الشاعر ابن خفاجة حتى يتذكر اندلسه
فيشدهو :

ان للجنة في الاندلس
مجتلى حسن ورياً نفس

فنا صبحتها من شنب
ودجى ظلمتها من لعس

فاذا ما هبت الريح صبا
صحت : واشوقى الى الاندلس

اذ أن كل ما هو جميل يذكر الانسان بارض الصبا والجمال •

والطبيعة عند شعراء الاندلس طروب تبعث روح الطرب والنشوة •
فوصفهم الطبيعة متصل بالغزل والخمر ، فهم لا يذكرون الطبيعة الا في
رحاب الحب ولا يذكرون الحب الا في رحاب الطبيعة الجميلة •

والمرأة عندهم صورة من محاسن الطبيعة ، فهي تمثل جمال الطبيعة
وفتنها • ولقد قال المقرئ عن شعراء الاندلس « انهم اذا تغزلوا صاغوا من
الورد خدودا ومن النرجس عيوناً ومن الآس اصداغاً ومن السفرجل نهودا
ومن قصب السكر قدودا ومن قلوب الموز وسرر التفاح مباسم ومن ابنة
العنب رضاباً » •

ولقد كان ابن خفاجة الاندلسي رائد الشعر الوصفي في الاندلس •
فقد وقف كل مواهبه لادراك الجمال وفهم ظواهره الرائعة المبتوثة في
انحاء الكون ، فاتجه بجميع قواه الفكرية والخيالية الى معالجة التعبير عن
هذا الجمال •

ولد ابو اسحق بن ابي الفتح بن خفاجة الاندلسي ببلدة شقر في
عام ٤٥٠ هجرية وعاش في عصر المرابطين في وقت بلغ نضج اللغة والادب
اقصاه ، وعاش الادباء في حياة لهو ومجون • ومتى استولى اللهو على
النفوس عشقت الجمال بكل انواعه وصبت الى التعبير عنه واظهار محاسنه
ومفاته ، كما قال ابن خفاجة :

وما الانسُ الا في مُجَاجِ زجاجة

ولا العيشُ الا في صريرِ صرير

واني ، وان جثت المشيب ، لمولع

بطرّة ظل فوق وجهِ غدير

وقد تفرد ابن خفاجة بوصف الطبيعة بكل مظاهرها الحسنة فكان

اوحدهم الناس فيه حتى لقد لقبه الشقندي بصنوبري الاندلس •

ولقد اضمح شاعرنا للطبيعة في جميع مظاهرها الرائعة وجمالاتها
الفتاة اصدق الحب والاعجاب ، فمزج احساسه بوصفه لتلك المظاهر
مما جعل لشعره روعة اى روعة ، اذ يخيل للقارىء انه ينظر في لوحة
تصوير فنية . فكأن قلمه ريشة مصور ماهر .

ومما اضفى على شعره المثانة والجزالة انه كان بطبيعته فناناً يحسن
اختيار الالفاظ والجمل كما يختار المصور الماهر الالوان الجميلة . فان
اسلوبه جميل وكلامه سائق للنفس لا تجد فيه اثرا للركاكة او التعقيد .
ولقد دبح شعره بزخرف البديع ، ووشاه بكثير من المجاز والتشبيه .

قال ابن خفاجة يصف زهرة :

ومائة تزهى وقد خلع الحيا
عليها حلياً حمرا واردية خضرا
يدوب لها ريق الغمام فضة
ويجمد في اعطافها ذهباً نضرا
وقال يصف نهرا ينساب في احد المروج متلويها كالحية الرقطاء :
لله نهرسار في بطحاء
اشهى وروداً من لمى الحسنا^(١)
متعطفٌ مثل السوار ، كأنه
والزهر يكنفه ، مجرُ سماء^(٢)
قد رقَّ حتى ظنَّ قرصاً مفرغاً
من فضة في بردة خضراء^(٣)

(١) البطحاء : المسيل الواسع . اللمى : سمرة مستحبة في الشفاء .

(٢) يكنفه : يحيط به .

(٣) شبه النهر بقرص مفرغ من فضة وما يحيط به من النبات ببردة

خضراء .

وغدت تحف به الغصون كأنها
هُدْبٌ يحفُّ بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه متحدراً
متلويّاً كالحيّة الرقطاء
والريح تعبت بالغصون وقد جرى
ذهبُ الاصيل على لجين الماء^(٤)

وقال يذكر زيارة طيف له واصفاً الليل والنجوم نم تكلم في الطيف
واصفاً اياه بارق ما يصف به حبيب حبيبه واحسن ما ينال عاشق من عشيقه
وقد دام ذلك حتى مطلع الفجر الذي اخذ يتجسس اخبارهما من وراء
ستائر الغمام :

ورداء ليل بات فيه معانقي ،
طيفٌ ألمّ لظيئة الوعساء^(٥)
فجمعت بين رضابه وشرابه
وشربت من ريق ومن صهبا
ولثمت ، في ظلماء ليلة وفرة ،
شفقاً هناك لوجنة حمراء
والليل مشمطُ الذوائب ، كبيرة
خرفي يدب على عصا الجوزاء^(٦)

(٤) يشير الى اشعة الشمس المحمرة عند المغيب ضاربة وجه الماء
القرقراق وهو كصفحة من لجين .

(٥) رداء الليل : شدة الظلمة . الوعساء : رابية رملية .

(٦) مشمط الذوائب : ذو جدائل اختلط بها السواد بالبياض .

ثم اتنى والسكر يسحب فرعه
ويجر ، من طرب ، فضول رداء
تدى فيه اقحوانة أجرع
قد غالتهما الشمس غيباً سماء
وتيس في اثوابه ريحانة
كرعت على ظمأ بجداول ماء
نقاعة الانفاس الا انها
حذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتاقاً حبها
فيه بقطر الدمع من انواء
والفجر ينظر من وراء غمامة
عن مقلّة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنورة
أغررى لها ينفج الظلما (٧)
وقال في وصف غلام يسقى الخمرة في مجلس للشراب :
وأغيد في صدر الكلام لحسنه
حلى وفي صدر القصيد نسيب
من الهيف اما ردفه فمنعم
خصيب واما خصره فجديب
يرف بروض الحسن من نور وجهه
وقامته نوازة وقضيب

(٧) النورة : زهرة بيضاء .

جلاها وقد غنى الحمام عشية
عجوزا عليها للجباب مشيب

وجاء بها حمراء ، أما زجاجها
فماء ، وأما ملؤه فلهيب

على لجة ترتج ، أما حبابها
فنور ، وأما موجهها فكثيب

تجافت بها غا الحوادث برهة
وقد ساعدتا قهوة وحييب

وغآزَلْنَا جفنَ " هناك كترجس
ومبَسَّمٌ " للافحوان شيب

فله ذيل للتصابي سحبه
وعيش باطراف الشباب رطيب

وقال يصف البرد الذي يتساقط من السماء فكأنه رجم للبيطة
الزانية :

يا رَبِّ قطري جامد حلتى به
نحر الثرى برَدٌ تحدّر صائب

حصب الاباطح منه ماء جامد
غشى البلاد به عذاب ذائب^(٨)

فالأرض تضحك عن قلائد انجم
نُشِرَتْ بها والجو جهم^(٩) قاطب

(٨) حصبه : رماه بالحصى .

(٩) جهم قاطب : عابس .

فكأنما زنت البسيطة تحته
فأكبَّ يَرجمها الغمام الحاصب
ولقد سال كلامه رقة وابدع التصوير في قوله واصفاً شاباً جميلاً
يسبح :

وصقيل إفرند الشباب بطرفه
سَقَمٌ وللعَضْب الحام ذباب^(١٠)

يمشى الهويئنا نخوةً ولربما
اطرته طوراً نشوةً وثباب^(١١)

شتى المحاسن ، للموضاة ربطة
ابدا عليه ، وللجاء نقاب^(١٢)

وبعطفه للشيبية منهل
قد شفَّ عنه من القميص سراب

عبر الخليج سباحة فكأنما
أهوى فشق به السماء شهاب

تطفو لغرته هناك جابية
ويموج من ردف ألف عباب^(١٣)

ويصور الشاعر في المقطوعة التالية الحالة النفسية لمن يسير وحيداً
في ليل حالك الظلام الذي يثير في النفس الخوف والرهبة والخيالات
المرعبة :

(١٠) العضب : السيف • الذباب : الحد •

(١١) اطرته : عطفته وثنته •

(١٢) الربطة : الملاءة •

(١٣) الردف الألف : الضخم السمين •

ومفازةٍ لانجم في ظلماتها
يسرى ولا فلك بها دوار
تلهب الشعري بها وكأنها
في كف زنجي الدجى دينار
ترمى به الغيطان فيها والربى
دولاً كما يتموج التيار
قد لفتى فيها الظلام وطاف بي
ذئب يلثم مع الدجى زوار
طراق سادات الديار مساور
خال ابناء السرى غدار^(١٤)
يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا
في فروة قد مسها افشمرار
فعموت في ظلماء لم تُقدح بها
الا لمقلته وبأبى نار
ورفلت في خلع علي من الدجى
عقدت لها من انجم أزرار^(١٥)
والليل يقصر خطوه ولربما
طالت ليالي الراكب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق
فيها ومن خط الهلال عذار

(١٤) مساور : موائب • ختال : خداع •

(١٥) رفلت : تبخترت •

وفيما يلي وصف بديع لحديقة زاهية بعير زهورها وتشابك غصون
اشجارها وشدو غنادلها وحمامها :

وصقيلة الانوار تلوى عطفها
ريح " تلف " فروعها معطار
عاطى بها الصهايا احوى احوار
سحاب اذيال السرى سحار
والنور عقد والغصون سوائف
والجدع زند والخليج سوار
بحديقة ظل اللمي ظلاً بها
وتطلعت شنباً بها الانوار (١٦)
رقص القضيبي بها وقد شرب الثرى
وشدا الحمام وصفق التيار
غناء ألحف عطفها الورق الندي
والنف في جنباتها التوار
فطلعت في كل موقع لحظة
من كل غصن صفحة وعذار
ويصف نورية المجيا :

لله نورية المجيا
تحمل نارية الحميا
والدوح رطب المهز لدن
قد رق رينا وطاب رينا
تجسم النور فيه نوراً
فكل غصن به ثرياً

(١٦) الشنب : بياض الاسنان وحسنها .

ولم يفته في وصف محاسن حصانه الاغر الكريم ان يوسع محاسن
الطبيعة ومفاتها وصفاً بقوله :

تخيره من رهط اعوج ساجحاً
اغرّ كريم الوالدين نجيباً
خفيفاً ولم يحلم بسوطٍ كأنما
يفوت عدواً او يؤم حبيبا
سرى واتمى برق بنى الائل ليلة
فبات بها هذا لذك نسيبا
وحن الى سفر فطار الى الشرى
يخوض خليجا او يجوب كيبا
يؤم بها ارضا عليّ كريمه
ومرتعا فيها السي حيبا
ونهرا كما ابيض المقبل سلسلا
وجزعاً كما اخضر العذار خصيبا
ورب نسيم مرّ بي وهو عاطر
رقبق الحواشي لا يُحَسُّ ديبا
وجدت به من ذلك الماء بلّة
ومن نورٍ هاتيك الاباطح طيبا
فضافت ريان النسيم تشوّفاً
اليها ولازمت القضيب رطيبا
وقد قلّد النوار جيداً لربوة
هناك ونحراً للفضاء رحيبا

وأفصحت الورقاء في كل تلعة
 شيدا وقد رق النسيم نسيبا^(١٧)
 وكان على عهد الشباب تغنيا
 يشوق اخا وجد فعاد نجيا
 دعا لغروب الدمع والدار غربة
 فلم ار الا داعيا ومجيبا
 وقال في وصف ليل كجناح الغراب حلقة وسوادا :
 ابي البرق الا أن يحن فؤاد
 ويكحل اجفان المحب سهاد
 فبت ولسي من قانيء الدمع قهوة
 تدار ومن احدى يدي وساد
 توح لي الورقاء وهي خلية
 وينهل دمع المزن وهو جماد
 وقد كان في خدي للشهب ملعب
 فقد صار فيه للوراد طراد
 وليل كما مد الغراب جناحه
 وسال على وجه السجل مداد
 به من وميض البرق ، والليل فحمة
 شراد ترامي والغمام زناد
 سريت به احبه لا حية السرى
 تموت ، ولا ميت الصباح يعاد

(١٧) التلعة : ما علا وارتفع من الارض .

يقلّب مني العزمُ اسنانَ مقلّةٍ
 لها الأفقُ جفنٌ والظلامُ سواد
 بخرق لقلب البرق خفقة روعة
 به ولجفن النجم فيه سهاد
 سحيقٍ ، ولا غيرَ الرياح ركائبٌ
 هناك ولا غيرَ الغمام مزاد
 كأنني واحشأ البلاد تجنّني
 سريرةٌ حبٌّ والظلامُ فؤاد^(١٨)
 اجوب جيوب اليد والصبح صام
 له الليل غمدٌ والمجرّ نجاد
 وفي مصطلى الآفاق جمر كواكب
 علاها من الفجر المطلق رماد
 ولما تفرّيت من دجى الليل طحلبٌ
 وأعرض من ماء الصباح ثماد^(١٩)
 حننت وقد ناح الحمام صبابة
 وشقّ من الليل البهيم حداد
 على حين شطت بالحبائب نية
 وحالت فيافي بيتنا وبلاد
 عشية لا مثل الجواد ذخيرة
 ولا مثل رقرق الحديد عماد^(٢٠)

(١٨) تجنّني : تسترني .

(١٩) الثماد : الماء القليل .

(٢٠) رقرق الحديد : فرند السيف .

إذا زار خطب خفرتي ثلاثة
سنانٌ وعضبٌ صارم وجواد
فبتٌ ولا غيرَ الحسام مضاجع
ولا غيرَ ظهر الاعوجي مهاد
معانقَ خيلٍ لا يُخلُّ وانما
مكان ذراعيه على نجاد^(٢١)

وقال واصفاً يوم الطعان حينما ماس شجر القنا وجرى به ماء الحديد
فساحاً ، فأجاد في وصفه ايما اجادة وابدع بأسلوب قوي يشابه قوة ذلك
اليوم الذي تقارعت فيه الصوارم البتارة فسالت فيه الدماء انهارا :

ركضوا الجياد الى الجلاذ صباحا
واستشعروا النصر العزيز سلاحا

واستقبلوا أفق الشمال بجحفل
نشر القتام على الشمال جناحا

قد ماس في ارجائه شجر القنا
وجرى به ماء الحديد فساحاً^(٢٢)

مطر الاعاجم منه عارض سطوبة
برق الحديد بجانيه فلاحا

حتى اذا قصم المهند نبوة

واندق صدر السمهرى فطاحا

(٢١) الخل : الصديق ويعنى به هنا السيف . لا يخل : لا يقصر .

(٢٢) ماس : تمايل . شجر القنا : الرماح . ماء الحديد : السيوف .

زحمت مناكبه الاعادي زحمة
 بسطتهم فوق البطاح بطاحا
 قتلى بحيث ارفض دمع المزن لا
 رحمي ، فأسعدہ الحمام فباحا
 قد تُرَبَّت منهم صحائف اوجه
 جعلت تمزقها السيوف جراحا
 فلو اطلعت لما اطلعت على سوى
 سهم تلمم في قبيل طاحا
 فحمت حريم المسلمين مصارع
 تركت حريم المشركين مباحا
 مسودّ ساحات المنازل وحشة
 مملوءة اقبية الديار نباحا
 تأتي صقور منهم منقضة
 قدراً على مهج العدو متاحا
 ملأوا ضلوع الليل زرق أسنة
 سالت على اعطافه اوضاحا
 وتخيلت بهم الجياد كأنما
 شربت معاطف كل طير في راحا
 من كل منصور اللواء اذا سرى
 مثلت له عقبي السرى فارتاحا
 فانصاع يضحك وجهه عن غرة
 سالت ويلعب في العنان مراحا (٢٣)

(٢٣) انصاع : ارتد .

يسرى بالبلج ما ادلهمت روعة
 الا تلاً وجهه مصباحاً (٢٤)
 واقام فوقهم العجاجة كلة
 وادار بينهم الردي اقداحاً (٢٥)
 ايسار حرب كلما اشتجر القنا
 لم يعملوا الا الرماح قداحا
 طالوا العوالي بسطة فكانما
 ركزت يد الهيجا بهم ارماحا
 من كل هضبة سودد هز الندى
 اعطافه طرباً فسال سماحا
 ادمى اللقاء من القنا ظفراً له
 ذرباً ومد من اللواء جناحا
 فانجاب ليل الخطب عن افق الهدى
 وتطلع الفتح المين صباحا
 وقال في وصف رشاً أهيف يسقى القوم خمرا لونه لون خديه :
 واهيف قام يسقى والسكر يعطف قدّه
 وقد ترنح غصناً واحمرّت الكأس وردّه
 وألهب السكر خدّاً اورى به الوجد زنده
 فكساد يشرب نفسي وكدت اشرب خده

(٢٤) الابلج : الطلق الوجه .

(٢٥) العجاجة : غبار الحرب . الكلة : الستار .

وقال يصف غلاما اغر كاد ينساب ماء للطافته ورقته :

وأغرَّ كاد لطافةً وطلاقةً

ينساب ماءً بيننا مسكوبا (٢٦)

وسنانٌ يُدرك كل قلب طالباً

ويفوت كل مقيم مظلوبا (٢٧)

قد قام في صدر الندامى فاستوى

فحسبته ألفاً به مكتوبا

واكبَّ يشربها وتشرب ذهنه

فرايت منه شارباً مشروبا

مشمولةً ، بينا تُرى في كفه

ماء ، تُرى في خده ألّهوبا (٢٨)

وقال يصف شابة ترقرق ماء الشباب بوجهها وفاض به الحسن ماء

فوقها وطقا به الدرّ النفيس حبابا :

فتقّ الشباب بوجتها وردةً

في فرع اسحلة تميد شبابا

وضحت سوائف جيدها سوسانة

وتوردت اطرافها عتابا

بيضاء فاض الحسن ماءً فوقها

وطقا به الدرّ النفيس حبابا

(٢٦) الأغر : الابيض الجبين .

(٢٧) وسنان : ناعس .

(٢٨) الالهوب : الذهب .

بين النحور قلادةً ، تحت الظلام
غمامةً ، دون الصباح نقاباً
نادمتها ليلاً وقد طلعت به
شمساً وقد رقّ الشراب سرايا
وترنمت حتى سمعت حمامة
حتى اذا حسرت زجرت غراباً^(٢٩)
وقال في مجلس لهو :

سقى ليوم قد أنختُ بسرحة
رياً تلاعبها الشمال فلعب^(٣٠)
سكرى يغنيها الحمام فتشي
طرباً ويسقيها الغمام فتشرب
يلهو فترقعُ للمشيية رايةً
فيه ويطلع للبهارة كوكب^(٣١)
والروض وجه "ازهر" ، والظل فرع
اسود ، والماء ثغر اشنب
في حيث أطربنا الحمام عشيةً
فشدنا يغينا الحمام المطرب
واهتز عطف الغصن من طرب بنا
واقترَّ عن ثغر الهلال المغرب

(٢٩) أراد بالغراب شعرها الاسود .

(٣٠) انخت : نزلت .

(٣١) البهارة : الجمال .

فكانه والحسن مقترن به
طوق" على بُرد الغمامة مُذهب

في فنية تسرى فيصدع الدجى
عنها وتنزل بالجديب فيخصيب

كر'موا فلا غيث السماحة مُخلف
يوماً ولأ برق اللطافة خلب

من كسلٍ أزهراً للنعيم بوجهه
ماء يرققه الشباب فيسكب

وقال في بانه فيبانه وكأنه يتصورها امردًا ذا فتنة وبهاء :

يا بانه تهتز فيبانه

وروضة تفوح معطارا

لله اعطافك من خوطه

وحبذا نورك نوارا

عليقت طرفاً فاترا

منك وغيراً منك غرّارا

ونابلاً مستوطناً بابلاً

نفاك لحظ العين سحّارا

إذا رنا يجرحني طرفه

لحظته اجرحه نارا

فيصبع الدر عقيقاً به

واصبع النوار ازهارا

وجه" به من بدع الحسن ما
يقيم للعشاق اعذارا
قد طبع الحسن به درهماً
تسبك منه العين ديناراً
من يلق من لاعج وجد به
ريحاً فقد لاقيت اعصاراً
تخفق أحشائي به دوحه
وتشر الأعين نواراً
تدور بالعين من وجهه
كعبة حسن حيثما دارا
فلي به عين" مجوسية
تبعد من وجته ناراً

وله في وصف المطر وهو يساقط رذاذا كجبات اللؤلؤ فتمتلئ
الاجواء منه عيرا كعير العنبر :

ندى النسيم فما أرق واعطرا
وهفا القضيب فما اغض وانضرا
فزفتها بكراً اذا قبلتها
ألت على وجهي قناعاً احمرأ
ورفلت بين قميص غيم هلهل
ورداء شمس قد تمزق اصفرا
والريح تنخل من رذاذ لؤلؤاً
رطباً ، وتفتق من غمام عنبرا

وقال يصف منزلاً مائلاً للانهيان من اثر الغيث المنهمر ، فسقفه اخذ
يعنى وجدرانه كحالة السكران اخذت تمايل سطرًا على سطر :

اما ومسيلٍ مائلٍ الغيث كالسطر
كما اترع الساقى الزجاجه بالخمر

لقد بت بين الرعد والقطر اشتكي
بسمعي من وقر ، وظهري من وقر

وها انا مبلولُ الجناح من الحيا
يصوب ، ومدعور الفراخ من الوكر

واسقيتها من ديمهٍ ائرهٍ ديمه
فمالت بها الجدران سطرًا على سطر

فمن عارضٍ يسقى ومن سقف مجلس
يعنى ومن بيتٍ يميلُ من السكر (٣٢)

اذا ما هوى ركنٌ فاهوى ، فاني
لأشجى من الخساء تبكى على صخر

وقال واصفا محاسن المرأة مقارنة اياها بمحاسن الطبيعة :

يا ربَّ ليلٍ بئسه
وكأنه من وحف شعركُ

تهل منزلة دمعتي
فيه ويندى نور ذكرك

اتبعت فيه وقد بكيت
عقيق خدك درَّ نغرك

(٣٢) العارض : السحاب .

وشرفت فيك بعبرة
قد وردتها نار هجرك
فكأنما ينفض عن
حب لها رمان صدرك
ولرب ليل قد صدع
ت ظلامه بجين بدرك
ولهوت فيه بدرة
مكنونة في حق خدرك
تدي شقائق وجني
ك به وتفتح ربح نسر ك
وقد استدار بصفتي
سوسان جيدك طل درك
حيث الجبابة دمع
تجري بوجنة كأس خمرك
وتهز منك فتشي
بقضيب قدك روح سكر ك
وتعب من رجراج ردف
ك موجة في شط خصر ك

التصوف

في شهر ابن الفارض

ان كل حركة دينية ترافقها حركة تدعو الى الزهد والورع والتسك والاعراض عن زخارف الدنيا والانقطاع الى العبادة آناء الليل واطراف النهار .

والزهد كان شائعا عند العرب في جاهليتهم ولكنه نما بعد الاسلام . ولقد اشتدت حاجة المجتمع الاسلامي الى الزهاد كلما عم الرخاء وزادت الثروات وانغمس الناس في حياة اللهو والمجون حتى الذقون وركضوا وراء الملذات الدنيوية يعرفون منها ويكرعونها حتى التمالة .

ولقد اشتهر بالورع والزهد والصلاح في القرنين الاولين للمهجرة سعيد بن جبير وابراهيم بن ادهم وأبو سليمان داود بن نصر الطائي والفضيل بن عياض . ومن أهم من اشتهر بالورع والتقوى والصلاح في هذا الدور الحسن البصري المتوفى عام ١١٠هـ وكان من ابرز أهل عصره في حسن الخلق واصابة الرأي . ومن اعظم الزهاد في هذا الدور ام الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية المتوفاة في البصرة في عام ١٨٥هـ وكانت مشهورة بالصلاح والزهد . ولرابعة العدوية اهمية كبرى في حركة الفكر الصوفي ، فهي أول من دعا الى حب الله لذاته لا حبا بالجنة أو خشية من النار . وهي التي قالت ان حبا لله لم يدع في قلبها مكانا لكره ابليس ، فقد تملك الحب الالهي كل قلبها ولم يترك لها مجالا للانشغال بغيره .

اما الذين اشتهروا بالزهد والتقشف في القرنين الثالث والرابع للمهجرة فأهمهم أبو سليمان عطية بن عبدالرحمن الداراني المتوفى عام ٢١٥هـ وكان

الداراني ، بالإضافة الى تشدده في التقشف ، يمثل الحب الالهي نميلاً صحيحاً • ولما سئل عن كثرة بكائه أجاب : « ولم لا أبكي ؟ واذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه واقترش اهل المحبة اقدامهم (كناية عن قيامهم الليل في الصلاة والدعاء) وجرت دموعهم على خدودهم وتقطرت في محاربيهم اشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى : يا جبريل ! بعيني من تلذذ بكلامي واستراح الى ذكرى • واني لمطلع عليهم في خلواتهم اسمع انيهم وأرى بكاءهم ••• انهم اذا وردوا عليّ يوم القيامة لا كشفن لهم عن وجهي حتى ينظروا اليّ وانظر اليهم • »

ومن زهاد هذا العصر أبو عبدالله الحارث بن اسيد المحاسبي المتوفى ببغداد في عام ٢٤٣هـ • وكان يقول : « من صحح باطنه بالمراقبة والاخلاص زين ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة » •

ومن الذين يشار اليهم بالبنان في هذا الدور ذو النون المصري وكان شديد الحث على الفقر والتواضع وحياة التقشف فهاجم أهل عصره وخاصة علماء جيله لافراطهم في الاقبال على الدنيا وطلب الجاه والمال ، وكان يقول : « من علامة المحب لله عز وجل مبايعة حبيب الله في اخلاقه وافعاله واوامره وسنته » •

وكان أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي المتوفى عام ٢٦١هـ أول من ادخل العناصر الاجنبية على الفكر الصوفي وكان أول من تكلم في الفناء ، وهي النظرية المستمدة من (النرفانا Nirvana) الهندية • ومن أقواله : « عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله • وللخلق احوال ولا حال للعارف لانه محيت رسومه وفنيت هويته لهوية غيره ، وعيت آثاره لآثار غيره » •

وكان من أهم الصوفية في هذا العهد أبو محمد سهل بن عبدالله

التستري المتوفى عام ٢٨٣هـ ، وأبو القاسم الجنيدي بن محمد المتوفى ببغداد عام ٢٩٧هـ الذي يعتبر سيد الصوفية وامامهم وطاووس العلماء .

ويتمي الى هذا العهد أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج المتوفى عام ٣٠٩هـ وأبو بكر محمد بن موسى الواسطي المتوفى عام ٣٣١هـ وأبو بكر دلف بن جحدر الشبلي المتوفى في عام ٣٣٤هـ .

ومن أقطاب الصوفية عبدالقادر الجيلاني المتوفى ببغداد عام ٥٦١هـ وكان كثير التقوى والتعبد منصرفا عن الدنيا لم يزر وزيرا ولا سلطانا ولم يلم بباب العظمة والاعيان . وكان يقول : « متى ذكرته (أي الله) فأنت محب ، ومتى سمعت ذكره لك فأنت محبوب . والخلق حجابك عن نفسك ، ونفسك حجابك عن ربك . ما دمت ترى الخلق لا ترى نفسك ، وما دمت ترى نفسك لا ترى ربك . الدنيا اشغال ، والآخرة أهوال ، والمرء بين الاشغال حتى يستقر قراره فاما الى جنة واما الى نار . »

اما شهابالدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي المتوفى عام ٦٣٢هـ فكان من تلاميذ عبدالقادر الجيلاني وكان فقيها فاضلا صوفيا ورعا سلك طريق الرياضة النفسية ولازم الخلوات وكان كثير العبادة والذكر والصوم والصلاة .

ومن ابرز شعراء الصوفيين العرب وابعدهم شهرة محي الدين بن عربي المتوفى عام ٦٣٨هـ وابن الفارض المتوفى عام ٦٣٢هـ .

فما هو التصوف ؟

بدأ التصوف أول ما بدأ كما ذكرنا آنفا دعوة الى حياة الزهد والتشرف وسلوك طريق الرياضة النفسية في ترك الملذات الدنيوية والقضاء على الشهوات النفسية وملازمة الخلوات ومواصلة العبادة والصلوات . ولقد عرف معروف الكرخي التصوف بأنه « الاخذ بالحقائق واليأس مما في ايدي الخلائق » .

وفي أثناء القرن الثالث الهجري طلعت على التصوف اتجاهات جديدة
في البحوث النظرية والكلام في وحدة الوجود ونظرية الشمول الإلهي •
فقد دخلت مؤثرات عديدة من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ومذهب
الغنوصية والديانتين الهندية والبوذية •

وكان البسطامي أول من أدخل نظرية الفناء على التصوف الإسلامي
فوجهه الوجهة الجديدة التي تتمص مبدأ وحدة الوجود •

والقلب هو المحور الذي يدور حوله التصوف • إذ يقسم الصوفية
الاعمال الى قسمين : الاعمال الظاهرة أي العبادات والاعمال الباطنة مثل
الايمان والمعرفة والتوكل والمحبة والتقوى والشوق • ومركز هذه الاعمال
الباطنة القلب • فالمعرفة عند الصوفي تأتي عن طريق القلب لا عن طريق
الحواس أو العقل •

وغاية الصوفي من المعرفة ان يتوصل الى معرفة الله • وطريقته
للموصول الى تلك المعرفة العبادة المستمرة والرياضة النفسية وتوضيحية
الريجات الدنيوية فتكشف أمامه السر وتنقشع الحجب ويحدث (التجلي)
وإذا به أمام الله وجهها لوجه فيمتلئ قلبه حبا بالله فلا يبقى مكان فيه لسواه •
كما قالت رابعة العدوية انها لا تخاف عذاب الله ولا ترجو ثوابه ، وان
حبها لله قد شغلها حتى عن حب رسوله ، لانها لم يعد في قلبها مكان
لسوى الله •

وعندئذ يدخل الصوفي في حالة (الوجد) وهي بدء التثوية في نفسه
للاقتراب من الله فتصرف حواسه عن كل ما حوله وتقتصر على التأمل في
الواحد الاحد الذي هو جوهر الوجود •

وتتلو تلك الحالة حالة (الفناء) حينما يبطل شعور الصوفي بكل
ما حوله وتتعطل حواسه فيفنى بالذات الالهية الفناء كله • وعند فئانه بالذات

الالهية تبرز حالة (البقاء) ، فقد فقد المخلوق ووجد الخالق ، ففى الانسان
وبقى الله ، بطلت مفردات الموجودات وتحققت ذات الوجود ، فلم يبق
فى الوجود شيء الا الله . فأصبح الوجود وحدة كلية ليس فيها خالق
ومخلوق .

اما الادب الصوفي فهو أدب رمزي بطبيعته مغرق فى اوجه البلاغة
وخصوصا الاستعارة . ويتخذ هذا الادب من الغزل والخمرية ستارا .
فاذا ما تغزل الصوفي بحبيب ، فما حبيبه الا الله . واذا ما وصفت حال
المخمور فيقصد بذلك حالة الوجد والشوق الى الله وحالة الرضا والقناعة
النفسية عند التوصل الى معرفة الله .

وكانت رابعة العدوية من أوائل الصوفية الذين مدوا الادب العربي
الصوفي بنتاج قرائحهم . وقد اشتهر عنها الايات التالية فى الحب الالهى :

احبك حبين : حب الهوى

وحباً لانك اهل " لذاكا

فاما الذي هو حب الهوى

فشغلي بذكرك عمى سواكا

واما الذي انت اهل له

فكشفتك لي الحجب حتى اراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى

ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

اما ابن الفارض فقد كان اشعر الشعراء الصوفيين العرب بلا منازع .
وكان منذ اوائل شبابه ينزع الى التدين . وكان يهرع الى كهف فى جبل
المقطم يحتل فيه للعبادة والتأمل .

اتسم شعره بالجزالة والرقّة وحسن الاسلوب وهو اكثر الشعراء

تعملاً للكلام وتكلفاً للبديع وولوعاً بالجناس والطباق • ويعتبر ابن الفارض
موجد الطريقة الرمزية في الشعر العربي حيث انه بغزله وذكره للخمر
يرمز الى الذات الالهية •

ومن روائع قصائده ما يلي مع شروحيها :

سائق الاطعان يطوى اليدَ طي

منعماً عرَّجَ على كئبان طي^(١)

وبذات الشيخ غني ان مرر

تَ يحيى من عريب الجزع حي^(٢)

وتلطَّفَ واجرِ ذكرى عندهم

علَّهم ان ينظروا عطفاً الي^(٣)

قل تركت الصبَّ فيكم شجاً

ما له مما براه الشوق في^(٤)

خافياً عن عائد لاح كما

لاح في برديه بعد النشر طي^(٥)

صار وصف الضر ذاتيا له

عن غناء والكلام الحي لي^(٦)

(١) كئبان طي كناية عن المقامات الحمديدية يلتبس ابن الفارض
الوصول اليها •

(٢) المقصود عطر الشيخ أي ان المحبوب كالعطر لا يرى بالبصر •
(٣) لقد تكثفت في الاطعان المادة فهو يدعو الى تلطيف هذه المادة
ليتقرب بالتلطف الى محبوبه •

(٤) انه قد ذاب حبا حتى اضمحل ولم يعد لجسمه ظل ينطرح •
(٥) قد اشتد زواله وفناؤه حتى لم يبد لزاثره منه غير ملح سراب •
(٦) صار وصفه عين ذاته وقد التبس الكلام حتى اختلط ما كان
واضحا من قوله •

مثلَ مَسْلُوبٍ حِيَاةٍ مَثَلًا
 صَارَ فِي حِكْمٍ مَسْلُوبٍ حَيٌّ (٧)
 مَسْبَلًا لِلنَّأَى طَرْفًا جَادَ ان
 ضُنْ نَوْءِ الطَّرْفِ اذْ يَسْقُطُ حَيٌّ (٨)
 بَيْنَ اَهْلِيهِ غَرِيبًا نَازِحًا
 وَعَلَى الْاَوْطَانِ لَمْ يَعْطِفْهُ لِي (٩)
 جَامِحًا اِنْ سِيمَ صَبْرًا عَنْكُمْ
 وَعَلَيْكُمْ جَالِحًا لَمْ يَتَأَيَّ (١٠)
 نَشْرَ الْكَاشِحِ مَا كَانَ لَهُ
 طَاوَى الْكَشْحِ قَيْلَ النَّأَى طَيِّ (١١)
 فِي هَوَاكُم رَمَضَانَ عَمْرَهُ
 يَنْقُضِي مَا بَيْنَ اَحْيَاءِ وَطَيِّ (١٢)

- (٧) مَسْلُوبٌ : مَلْدُوغٌ (الْمَعْنَى) مِثْلُهُ مِثْلُ السَّالِكِ وَقَدْ لَدَغْتَهُ اَفْعَى شَهْوَاتِهِ ، فَمَاتَ مَوْتًا اِرَادِيًا لِيَقْهَرِ الْجِسْمَانِيَّةَ فِيهِ .
- (٨) اِنْ هَذَا الْمَحْبُوبُ فَاضَتْ بِمَاءِ الْحَيَاةِ عَيُونَ قَلْبِهِ عَلَى اَرْضِ النَّفُوسِ الْغَافِلَةِ حَتَّى بَخَلَتْ عَلَيْهِمْ كَوَاكِبُ اَرْوَاحِهِمْ بِالْفَيْضِ الْاِلَهِيِّ .
- (٩) اِنَّهُ غَرِيبٌ فِي هَذَا الْعَالَمِ بَيْنَ اَهْلِهِ وَخَلَانِهِ لِانْ اَثَرَ الْبَشَرِيَّةَ عَالَقَ بِهِ فَيَحْوِلُ دُونَ اتِّصَالِ بِالْغَيْبِ اَيَّ بَعَالَمِ الْمَحْبُوبِ .
- (١٠) اِنْ مَشَقَاتِكُمْ تَضْنِيهِ وَهُوَ صَابِرٌ عَلَيْهَا ، فَفِي حَبِّهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَالُ الْمَشَقَّةِ .
- (١١) الْكَاشِحُ : مِنْ اَضْمَرِ الْعِدَاوَةِ . وَهُوَ هُنَا الَّذِي يَحْمِلُ الْمَرْءَ عَلَى مَلَذَاتِ الدُّنْيَا . وَكَانَ هَذَا يَضْمُرُ الْعِدَاءَ قَبْلَ الْبَعْدِ ، فَلَمَّا نَأَى الْحَبِيبُ نَشَرَ بَغْضَهُ .
- (١٢) صَامَ عَمْرَهُ كُلَّهُ عَنْ رُؤْيَةِ الْاَغْيَارِ مُنْتَظِرًا فَيْضَ الْاَسْرَارِ عَلَى قَلْبِهِ وَالتَّجَلِّيَاتِ . يَسْهَرُ فِي الطَّاعَةِ لَيْلَ غَفْلَتِهِ وَنَهَارَ يَقْظَتِهِ .

صاديا شوقاً لصدأ طيفكم
جيداً ملتاح الى رؤيا وري (١٣)

حائراً فيما اليه امره
حائر والمرء في المحنة عي (١٤)

.....
.....

والذي ارويه عن ظاهر ما
باطني يزويه عن علمي زي (١٥)

.....
.....

ومتي اشك جراحاً بالحشا
زيد بالشكوى اليها الجرح كي (١٦)

.....
.....

سقمي من سقم اجفانكم
وبمعسول الثنايا لي دوي (١٧)

(١٣) ظمآن الى طيفكم وسبب الظمآن انه اغترف من بحر التوحيد
بعد ان تجلى له الحبيب ، وكل من شرب من هذا البحر يظل ظامئاً اليه .
ولا دواء له لكي يروى ظمأه الا الاضمحلال بالكلية .

(١٤) ان هذا الصب حائر في امره وهي حيرة معجزة .

(١٥) لم اخترع ما اذكره لكم من المعاني الالهية . لقد تجمعت معاني
الحق في باطني .

(١٦) في باطني جراح كلما شكوت منها ازداد قلبي اشتعالاً .

(١٧) في سقم الاجفان تنزيه للحق تعالى ، ومعسول الثنايا كناية
عن اسماء الله الاربعة : الحي ، العالم ، المرید ، القادر .

.....

.....

نِعْمَ مَا زَمَزَمَ شَادٍ مُحَسَّنٌ

بِحَسَانٍ تَخَذُوا زَمَزَمَ جِي (١٨)

وَادْرَاعِي حَلَلِ النَّقْعِ وَلِي

عِلْمَاءَ عَوْضٍ عَنِ عِلْمِي (١٩)

وَاجْتِمَاعِ الشَّمْلِ فِي جَمْعٍ وَمَا

مَرَّ فِي مَرٍّ بِأَفْيَاءِ الْأَشْيِ (٢٠)

لِنِي عِنْدِي الْمَنَى بُلِّغْتَهَا

وَاهْلِيوهُ وَإِنْ ضُنُّوا بِمِي (٢١)

.....

.....

لَمْ يَرِقْ لِي مَنْزَلٌ بَعْدَ النَّقَا

لَا وَلَا مُسْتَحْسِنٌ مِنْ بَعْدِ مِي (٢٢)

(١٨) انه ينهل الشراب الالهي الذي يغنيه عن شراب الجسم وطعامه .

(١٩) الحقيقة المحمدية مادة العوالم الكونية . ويتحدث ابن الفارض هنا عن الانتشاء بجلال الله وجماله بعد ان ورد شرعته .

(٢٠) اجتماع الحقيقة الانسانية بالحقيقة المحمدية أو بروح الله الاعظم .

(٢١) لقد بخل على اهل مني ولم يبذلوا لي ما يجذبني اليهم ، ولكنهم هم عين مطلوبي .

(٢٢) لقد دخلت طريق الحق بعد مجاهدات جمة في طريق السلوك فبان لي ان المقامات كلها تجتمع في المقام المحمدي ، فلم يرق لي أي شيء آخر بعد استجلائي لهذا السر المحجوب .

.....
.....
نحلت جسمي نحولا خصرها
منه حال فهو ابهى حلتي (٢٣)

.....
.....
عدت مما كأبدت من صدها
كبدي حلف صدى والجفن ري (٢٤)
واجدا منذ جفا برقعها
ناظري من قلبه في القلب كي (٢٥)

وكذلك القصيدة التالية :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم (١)
لها البدر كأس وهي شمس يديرها
هلال وكم يبدو اذا مزجت نجم (٢)

(٢٣) الخصر : كناية عن نفس السالك . وهي وسط بين عالميه
الارض والالهي . والنحول : الضعف . وهو من محاسن الصورة الالهية .
(٢٤) صددت الحبيبة فارتوى جفني بالبكاء وظل كبدي حلف
صدي .

(٢٥) كنى بالبرقع ما حال بينه وبين مشاهدة محبوبه .

(١) الحبيب : ذات جوهر الوجود . المدامة : المعرفة الالهية . قبل
ان يخلق الكرم : قبل الوجود .
(٢) البدر : العارف الصوفي الكامل . الخمره : المعرفة الالهية .
ومتى شرب المرید من الخمره فنى في الكم والكيف . النجم : سبيل
الهدى .

ولولا شذاها ما اهتديت لجانها

ولولا سناها ما تصورها الوهم^(٣)

.....

.....

ولو خضبت من كاسها كف لأمس

لما ضل في ليل وفي يده النجم^(٤)

.....

.....

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا

ونور ولا نار وروح ولا جسم^(٥)

تقدم كل الكائنات حديثها

قديما ولا شكل هناك ولا رسم^(٦)

وقامت بها الاشياء ثم لحكمة

بها احتجبت عن كل من لا له فهم^(٧)

-
- (٣) الحان : كناية عن الحضرة الالهية . فكانما عطر القوة الازلية
قد شاع في الاكوان فملاها ارجاً .
- (٤) كان الروح الالهية بكف الشارب نور يتألق ونجم يهتدى به .
واذا وضع المرید يده في يد الشيخ الكامل المرشد فقد بلغ الحق .
- (٥) انها روحانية منزهة عن العناصر الاربعة : الماء والهواء والنار
والتراب .
- (٦) ان القوة الازلية سبقت كل الكائنات قبل ان يكون أي شكل
أو رسم .
- (٧) ان جميع الاشياء قامت بارادة تلك القوة الازلية لحكمة احتجبت
عمن لم يفهموها من كلام العارفين .

وهامت بها روحي بحيث تمازجا ات
سجداً ولا جِرمٌ تخلله جرم (٨)
فخمر ولا كرم وآدم لي أب
وكرم ولا خمر ولي أمها أم (٩)

.....

.....

وقد وقع التفريق والكل واحد
فارواحنا خمر واشباحنا كرم (١٠)
ولا قبلها قبل ، ولا بعد بعدها
وقبليّة الأبعاد فهي لها حتم (١١)

.....

.....

وعندي منها نشوة قبل نشأتي
معي أبدا تبقى وان بلى العظم (١٢)

.....

.....

-
- (٨) تمازج روحانا واتحدت ولكن ليس كاتحاد الاجسام بالاجسام .
(٩) انى في الظاهر من جملة الممكنات المنعدمة ، وفي جوهر وجودي
متصل بذات الحق الازلي .
(١٠) هذا البيت تفسير لسابقه . (معناه) ان جميع الاشياء في
الكون ولو انها مجزأة في ظاهرها الا انها كلها شيء واحد يسير فيها اكسير
الروح الالهي في وحدة شاملة .
(١١) ان الحضرة الازلية منزهة عن قيود المكان والزمان . وهي
واحدة منذ الازل حتى الابد .
(١٢) ان هذه النشوة الالهية كانت معي قبل نشأتي وستبقى معي
الى ما لا نهاية وان بلى العظم .

على نفسه فليكن من ضاع عمره
وليس له فيها نصيب ولا سهم (١٣)
وهذه قصيدة أخرى :

قلبي يحدثني بانك متلفي
روحي فذاك عرفت ام لم تعرف (١)
لم افض حق هواك ان كنت الذي
لم افض فيه اسي ومثلي من يفني (٢)
مالي سوى روعي وباذل نفسه
في حب من يهواه ليس بمسرف (٣)
فلئن رضيت بها فقد اسعقتني
يا خيبة المسعى اذا لم تسعف (٤)
يا مانعي طيب المنام ومانحي
ثوب السقام به ووجدني المتلف (٥)

.....

.....

فالوجد باق والوصال مماظلي
والصبر فان واللقاء سوفي (٦)

(١٣) من لم يفن في مشاهدة الحق عمره فقد فقده وليبك على نفسه .

- (١) هو حديث القلب من امر الله .
- (٢) بعد ان تجلى لي الحبيب اديت حق هواه بالفناء الكلي فما بقي الا . ومن احب مثلي فني وانعدم في وجود الحبيب .
- (٣) مالي سوى روعي ابذلها للفناء في من اهواه .
- (٤) اذا لم تسعف : اذا لم تساعد روعي على اللحاق بالروح الاعظم .
- (٥) ترى في البيت السهاد والسقام والوجد حتى التلف .
- (٦) الوجد : ما يجده المحب من شدائد حبه .

ان لم يكن وصل لديك فعد به

أملني وماطل ان وعدت ولا تقي^(٧)

.....

.....

اخفيت حبكم فأخفاني اسي

حتى لعمرى كدت عنه اخفي^(٨)

وكنتمه عني فلو ابديته

لوجدته اخفي من اللطف الخفي^(٩)

.....

.....

دع عنك تعيفي وذق طعم الهوى

فاذا عشقت فبعد ذلك عتف^(١٠)

.....

.....

وان اكفي غيري بطيف خياله

فانا الذي بوصاله لا اكفي^(١١)

(٧) ان لم يتح لي الرجوع اليك بعد ان فنيت فيك فلا تقطع رجائي بوصالك من جديد . ففي وعدك ، وان لم تف به ، سعادة لنفسي .

(٨) اني كنتمت هواي حتى شفني وبراني وكادت ذاتي لا ترى ذاتي .
(٩) اني لم ابح بهذا الهوى ، ولو اني فعلت لرأيتني اخرج عن الاعتبار التي يمكن ادراكها .

(١٠) يلمع هذا البيت الى التجربة الروحية في الحب لدى المتصوفة اذ لا يدرك نعيم هذا الهوى من لم يتحسسه .
(١١) يشير الى مبدأ الترقى في مدارج الاتحاد .

.....
.....
مني له ذل الخضوع ومنه لي
عز المنوع وقوة المتضعف^(١٢)

يا ما اميلح كل ما يرضى به
ورضابه يا ما احيلاه بقى^(١٣)

.....
.....

وعلى تفنن واصفيه بحسنه
يقنى الزمان وفيه ما لم يوصف^(١٤)

.....
.....

فالعين تهوى صورة الحسن التي
روحي بها تصبو الى معنى خفي^(١٥)

(١٢) في هذا البيت خضوع العاشق وعذابه وذله وامتناع المعشوق
وقد عز وصاله .

(١٣) الرضاب : الريق . (الشرح) يلقي المحبوب في قلبي العلوم
الالهية والحقائق الربانية فيتلج صدري وتهنأ نفسي .

(١٤) الحقيقة المحمدية هي النور المادي الذي خلقه الله في البدء .
وتفنى الدنيا ويتولى الزمان ، ولا يبلغ الواصفون هذا الجمال الكلي الذي
لا حد له .

(١٥) صورة الجمال المحسوس نقطة انطلاق في الحب . غير ان
العاشق الصوفي لا يقف عندها وانما يبحث وراها عن الحق والجمال
المعنوي واللطائف الخفية .

.....
.....
فسمعت ما لم تسمعي ونظرت ما
لم تتظري وعرفت ما لم تعرفي (١٦)

.....
.....
ما للنوى ذنب ومن اهوى معي
ان غاب عن انسان عيني فهو في (١٧)
واليكم نبذا من قصيدته الشهيرة المسماة (الثانية الكبرى أو نظم
السلوك) وهي مختارات تتضمن المبادئ الرئيسية للتصوف التي مطلعها :

سقتني حبيبا الحب راحة مقلتي
وكأسي محيا من عن الحسن جللت

الحب في طوره الاول :

هي ، قبل يقنى الحب مني بقية
اراك بها ، لي نظرة المتقلت

فعندي لسكري فاقية لا فاقية
لها كبدي ، لولا الهوى ، لم تفتت

ولم احك في حبيك حالي تبرما
بها لاضطراب ، بل لتنفيس كربتي

(١٦) قال الشاعر يخاطب نفسه : « سمعت من روح الله ، ورأيت
من وجود الحق وتجلياته المبينة ما لم تتسنن لك رؤيته » .

(١٧) ليس هناك ذنب للبعاد ، اذ ان من اهوى هو دوما معي .
فان غاب عن عيني فهو كامن في اذ ان روحينا ممتزجان في الوجود الكلي .

ويضعني شكواي حسن تبصري
ولو أشك للاعداء ما بي لاشكت
وما حل بي من محنة فهو منحة
وقد سلمت من حل عقد عزيزتي
وكل اذى في الحب منك اذا بدا

جعلت له شكري وكان شكيتي^(١)

ما الموت والفناء غير الحياة الحقيقية :

فلم تهوني ، ما لم تكن في فانياً
ولم تفن ، ما لا تجلى فيك صورتي^(٢)

وجانب جناب الوصل ، هيات لم يكن
وها انت حي^(٣) ، ان تكن صادقاً مت^(٤)

هو الحب ، ان لم تقض ، لم تقض مارباً
من الحب ، فاختر ذاك أو خل خلتي^(٥)

اجل اجلى ارضى انقضاء صبايه
ولا وصل ان صحت لحبك نسبي

-
- (١) يخاطب المحبوبة يسألها ان تمن عليه رؤيتها قبل ان يعروه الفناء . ويلتمس العذر عن شكواه مما يعاني من ألم هواه . ولو انه افضى بالسر الذي يبرحه للعدو لرق لحاله . وهو في ذلك كله متصبر راض بعد الألم هبة ، وهذه هي لذة الألم .
- (٢) لا يسمى الحب كذلك الا اذا تم الفناء في المحبوب وما لم تتضح في نفس العاشق صورة معشوقه .
- (٣) لا يكونن وصل بالحياة فان كنت صادقاً في طلب الوصال فاستعد للفناء .
- (٤) فلن يمكنك ان تقضى مارباً من الحب ان لم تتخلص من عالم الظلال المحسوس :

فقد صرت ارجو ما يُخاف فأُعدى

به روح ميت للحياة استعدت^(٥)

في حالة الفناء تستعيد النفس صفاء القديم :

فاننى الهوى ما لم يكن ثم باقيا

هنا من صفات بيننا فاضمحلث^(٦)

فالفيت ما ألفت عني صادرا

الى ومنى واردا بمزيدتي^(٧)

وشاهدت نفسي بالصفات التي بها

تحجبت عني في شهودي وحجبتني

وانى التي احببتها لا محالة

وكانت لها نفسي على محيلتي^(٨)

الفناء والاتعاد :

حلت في تجليتها الوجود لناظري

ففي كل مرأى اراها برؤية^(٩)

واشهدت غيبي ، اذ بدت ، فوجدتني

هنالك اياها بجلوة خلوتي^(١٠)

(٥) صرت اتمنى الموت الذي يخاف الناس منه واجد بذلك سعادة

اي سعادة لاني بذلك ساستقبل الحياة الحقيقية .

(٦) بالحجب زالت الصفات الجسمانية التي هي الحجب الفاصلة

ما بينه وبين محبوبته .

(٧) انه هو البداية والمصدر ، وهو المنتهى والمآل .

(٨) بعد ارتفاع الحجب تكشفت ذاته لذاته ، واتضح له ما كان

قد شبه له والتبس عليه .

(٩) هي التي اظهرت الوجود لناظريه فبات يراها في كل موجود .

(١٠) ولما تجلت الحبيبة عرفت ان ذاتي هي عين ذاتها .

وطاح وجودي في شهودي وبنت عن
وجود شهودي ما حيا غير مثبت^(١١)
وعانقت ما شاهدت في محو شاهدي
بمشهده للصحو من بعد شكرتي^(١٢)

وحدة الوجود حال من الاحوال الشعورية :

اروح بفقدي بالشهود مؤلفي
واغدو بوجد بالوجود مشتي^(١٣)
يفرقني لبي التزاما بمحضري
ويجمعني سلبى اصطلا ما بغيتي^(١٤)
اخال حضيضي الصحو ، والسكر معرجي
اليها ، ومحوى منتهى قاب سدرتي^(١٥)
وشفع وجودي في شهودي ظل في ات
سحادي وتراً في يقظ غفوتي^(١٦)

(١١) لقد امحى وجودي في الحبيبة . والمحو وجود سلبي مختلف
عن الانبات الذي هو الوجود المحسوس خاصة .

٣٦٢

(١٢) لقد حصل لي صحو رائع بعد السكر الذي انتشيت به . ومرد
هذا الصحو الى ان الحبيبة هي الوجود المطلق . والصحو يعقب السكر ،
والسكر اعلى درجات الغيبة .

(١٣) الوجد يشعره بوجود ذاته .

(١٤) العقل هو سبب التفرقة . وان الجمع والاتحاد لا يتمان الا
في حالة الغيبوبة .

(١٥) حالة الصحو هي الحضيض وحالة السكر تؤدي لا محالة الى
الاتحاد بالمحجوب الالهي .

(١٦) ان وجودي وشهودي ظلا متميزين حتى كانت غفوتي اليقظة
فكان الاتحاد .

٣٦١

تعانقت الاطراف عندي وانطوى
بساط السوى عدلاً بحكم السوية (١٧)

القطبية مصدر الوجود والحياة والشرائع :

فبى دارت الافلاك فاعجب لقطبها الـ
محيط ، فان القطب مركز نقطة
وكلهم عن سبق معنای دائر
بدائرتي ، او وارد من شريعتي
وروحى للارواح روح ، وكل ما
ترى حسنا في الكون من فيض طيبتى
ومن عهد عهدى قبل عصر غاصرى
الى دار بعث قبل انذار بعثة
الى رسولا كنت منى مرسللا
وذاتى بآياتى على استدلكت
ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن
شهود ، ولم تعهد عهد بدمه
فلا حى الا عن حياتى حياته
وطوع مرادى كل نفس مريدة (١٨)

(١٧) لقد تجمع ما كان شتيتا . ولم يعد ثمة تمييز بين الانانية
والغيرية . بين المحبوبة والشاعر . اذ انهما قد تساويا في معادلة الوجود .
(١٨) ان هذه الابيات تنقصر مبدأ وحدة الوجود وشمول الروح
الالهية لكل فرد ولكل شيء في الكائنات . فالكون بأسره وبجميع اجزائه
يكون وحدة شاملة تندمج بالقوة الالهية . وكل جزء من هذا الكون يمثل
مظهرا من مظاهر تلك الازلية . ولكن من الخطأ أن يدعى اى جزء من هذا
الكون بانه هو الله كما قال الحلاج « انا الله » و « ما في الجبة الا الله » اذ
الجزء ليس الكل .

فالقطب في نظر ابن الفارض مبدأ الحياة وأصل الوجود • وكل ما في العوالم المادية والعقلية والروحية من كائنات جزئية مستقى من اصل واحد ومنبثق من حقيقة جامعة شاملة •

كما قال ابن الفارض :

وروحيّ للارواح روحٌ وكلُّ ما
تري حسناً في الكون ، من فيضِ طيبتي

وكلهم عن سبقِ معنایِ دائرٍ
بدائرتي ، او واردٍ في شريعتي



رفع ا. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

الفهرست

الصفحة	
٣	تصدير
٧	توطئة
١٠	المقدمة :
١٠	العرب : منشؤهم وموطنهم ولغتهم
١٤	حياتهم الاجتماعية والفكرية
١٧	الشعر العربي : خصائصه واغراضه
٢٥	الشعر الجاهلي
٣٠	الشعر الاموي
٣٨	الشعر العباسي
٤٤	الشعر الاندلسي
٤٩	الحماسة في شعر عنترة العبسي
٧٦	الثناء في شعر الخنساء
١٠٧	الغزل في شعر عمر بن ابي ربيعة
١٤٦	العشق في شعر قيس بن الملوح
١٧٧	المجون والخمريات في شعر ابي نؤاس
٢٠٩	الزهد في شعر ابي العتاهية
٢٣١	الفلسفة في شعر المعري
٢٦٢	الفخر والكبرياء في شعر المتنبي
٢٨٥	المدح في شعر ابن هانئ الاندلسي
٣٠٦	الحكم والامثال في شعر الطغراني
٣١٧	الوصف في شعر ابن خفاجة
٣٤٣	التصوف في شعر ابن الفارض

للمؤلف نفسه

الديمقراطية في التكوين

بحث تحليلي وسجل تاريخي

للفلسفة السياسية والحركات

الديمقراطية منذ عهد الاغريق

حتى يومنا هذا

نقد

الدستور وحقوق الانسان

الجزء الاول : في فلسفة التشريع والايديولوجية الديمقراطية

نقد

الجزء الثاني : في حقوق الانسان ومبادئ الدستور الامثل

نقد

جغرافية العالم للاحداث

كتاب من كتب الرحلات فيه وصف

شيق لمختلف أقطار العالم

مترجم عن الانكليزية

لمؤلفه : الرحالة ف. م. هيلير

الناشر : مؤسسة فرانكلن

تصحيح أخطاء مطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٢	٧	سيقيا	سقيا
١٩٩	١	مجانبة	مجانبة
٢١٣	السطران ٧ و ٨	مكسران	• يحذف السطر السابع ويضاف السطر التالي بعد كلمة يعزفون : • ويعربون ، وهناك في زاوية أخرى ترى العابدين سادرين بين المقابر •
٢١٦	١٨	عب	حب

وهناك بعض الأخطاء المطبعية البسيطة الأخرى لا تحفى على القارىء • اللبيب

٢١٧			
٢١٨			
٢١٩			
٢٢٠			
٢٢١			
٢٢٢			
٢٢٣			
٢٢٤			
٢٢٥			
٢٢٦			
٢٢٧			
٢٢٨			
٢٢٩			
٢٣٠			
٢٣١			
٢٣٢			
٢٣٣			
٢٣٤			
٢٣٥			
٢٣٦			
٢٣٧			
٢٣٨			
٢٣٩			
٢٤٠			
٢٤١			
٢٤٢			
٢٤٣			
٢٤٤			
٢٤٥			
٢٤٦			
٢٤٧			
٢٤٨			
٢٤٩			
٢٥٠			

الطبعة الاولى

١٩٦٧

١٥٠٠/١

٥٥-٥٥٥٥-٥٥
٥٥-٥٥
٥٥

٥٥٥٥